المكتبة الثقافية

القصة القصيرة والحكاية في الأدب الفارسي

دراسة ونماذج

عبد الوهاب محمود علوب



المكتبة الثقافية

(٤٩٠)

القصة القصيرة والحكاية في الأدب الفارسي

دراسة ونماذج

د . عبد الوهاب محمود علوب



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

تقـــديم

تعد القصة القصيرة من أخصب ميادين الأدب الفارسى المعاصر ، ولو أنها كنوع أدبى لم تلق ما تستحق من دراسة من جانب الباحثين والمتخصصين حتى الآن ، وتحظى القصة القصيرة فى العقود الأخيرة بشعبية كبيرة سواء لدى كتاب القصة أو قرائها ، وربما أمكن القول أن شعبية القصة القصيرة فى ايران قد قاربت الشعبية التى حظى بها الشعر قرونا طويلة رغم أنها لم يمض على تطورها الى نوع أدبى مستقل فى الأدب الفارسى بضع عقود من السنين ٠

والرجاء أن يقدم هذا البحث اسهاما متواضعا فى دراسة هذا النوع الأدبى المتميز فى الأدب الفارسى ، يقدم البحث دراسة عن ماضى القصص القصير والمتمثل فى شكل « الحكاية » الكلاسيكية المعروفة فى الأدب الفارسى

باعتباره جزءا من آداب المشرق الاسلامى ، كما يقدم الكتاب خلفية ودراسة عن ظهور فن المقامة فى الأدب الفارسى ، وكيف تطورت منه الحكاية الكلاسيكية لتصـــل فى القرن العشرين الى مزيج جديد من القصص يجمع بين عناصر « المقامة » و « الحكاية » وقواعد « القصة القصيرة » الأوربية مما نتج عنه شكل من القصص القصير ذو طابع ايرانى متميز ، كما يتعرض البحث لتاريخ ظهور القصة القصيرة بصـــورتها الأوربية الحديثة فى العقد الثالث من القرن الحالى ٠

هذا ويضم البحث فى هوامشه وفى نهايته نبذة عن حياة كتاب القصـــة القصيرة ممن ورد ذكرهم فى البحث وقائمة بأعمالهم فى مجال القصة القصيرة ٠

ويجدر بى أن أنوه الى مصطلح « الأدب الشرقى » أو « أدب المشرق الاسلامى » اللذين استخدما فى هذا البحث وأقصد بكل منهما الأدب فى البيئة الشرقية الاسلامية أى الآداب العربية والفارسية والتركية والأوردية وغيرها من آداب العالم الاسلامى ٠ ورجائى أن يكون ما بذلت فى هذا البحث من جهد عونا لغيرى من الباحثين ، وعلى الله قصد السبيل ٠

د ٠ عبد الوهاب علوب

آداب القاهرة

١٩٨٩

(١)

القصة القصيرة والحكاية

لم تكن القصـــة القصيرة تمثل فنا جديدا على الأدب المشرقى حين وردت فى صورتها الأوربية مع مطلع القرن العشرين ، وما القصة القصيرة الحديثة الا شكلا متطورا للحكاية الشرقية التى نجدها فى كثرة من الأعمال الأدبية فى الآداب الشرقية منذ القدم ، ولكن النقطة التى يجب أن نركز على مضمونها هى أن الحكاية بصورها الشـــرقية العديدة ـ الشعرى منها والنثرى ـ لم تتطور باعتبارها شكلا أدبيا مستقلا ، وانما اتخذت أنماطا مختلفة أبرزها فن المقامة وما كتاب **ألف ليلة وليلة** الا مجموعة من الحكايات والقصص القصيرة فى مرحلة من تطورها ٠

وفى مناقشـــتنا للأنواع القصصية الموجزة فى الأدب الشرقى الكلاسيكى علينا أن نأخذ فى الاعتبار أنه ليس ثمة أطر محددة بصورة صارمة تصف كل نوع قصصى على حدة

بل ان الأنواع تتداخل بصورة يصعب معها وضع حد فاصل بين نوع وآخر منها ، وبنفس القدر من الصعوبة نجد مسألة تحديد نشأة كل نوع قصصى من حيث المكان أو الزمان ، فتحديد المكان الذى نشأت فيه الحكاية مثلا أو الزمان الذى شهد أول قصة موجزة يعد أمرا بالغ الصـــعوبة ، وتعود صعوبة تحديد منشأ الأنواع القصصية سواء جغرافيا أو تاريخيا فى معظمه الى صعوبة تحديد اطار كل نوع وأيها ينتمى الى هذا النوع وأيها لا ينتمى الى ذلك ، فاذا عدنا الى آداب الشرق القديمة وكتبه المقدسة نجد أمثلة وفيرة على القصص النثرى الموجز ، وفى الأدب المصرى القديم نجد أقدم نماذج القصص القصيرة من قبيل قصة • سنوحى أو قصة البحار وسفينته المحطمة والتى كتبها المصريون فى الألف الثانية قبل الميلاد ، وتعد هذه القصص المصـــرية القديمة ابداعا أدبيا صرفا له قيمة جوهرية هى التسلية ، واذا تقدم بنا الزمن قليلا نجد التوراة وقد حفلت بنماذج من القصص النثرى القصير، كقصص يوسف (سفر التكوين) وشمشون (سفر القضاة) وغيرهما ، ولو أن هذه القصص لم تعرض كابداع أدبى خيالى ولا كاسهام فى فن القصة ، بل يفترض أنها صحيحة تاريخيا ولها غرض تعليمى صريح يعرض حكمة الله على البشر(١) ، وكذلك فى القرآن نجد وفرة من القصص التى يفترض أيضا أنها صحيحة تاريخيا ولها نفس الغرض التعليمى ، كقصص نوح والطوفان ، ويوسف وامرأة العزيز ، وذى النون وغيرها •

وهذه القصص وان كانت لم تعرض كابداع أدبى الا أنها تضم مقومات قصصية أساسية تجعل من كل منها كلا متكاملا ، كما أنها تختلف عن القصص الأسطورى الذى يتناول موضوعات تنتمى الى ما وراء الطبيعة كقصص الآلهة والشياطين والغيبيات ومافوق الواقع ٠

وهناك بالطبع اجتهادات كثيرة بصدد وضع أطر محددة تقريبا لكل نوع قصصى ، الا أن هذه الاجتهادات تعتمد فى معظمها على ما جرى العرف عليه ، يقول ايان ريد :

« باستثناء ما ذكر (القصص الأسطورى عن الآلهة والشياطين) يمكن القول أن اصطلاح « قصة قصيرة » فى الاستعمال الجارى ينطبق عامة تقريبا على أى نوع من السرد القصصى النثرى الخيالى أقصر من الرواية(٢) » ٠

ولو شئنا الدقة لتساءلنا : وماهى « الرواية » ؟ ، ولكن بالطبع يقصد ريد ماجرى العرف على تسميته « رواية » ، نعود الى القصة القصيرة فنقول أن فونتين الشاعر الفرنسى (١٦٢١ ـ ١٦٩٥) فى « حكاياته » الرمزية على لسان الحيوان لا يفرق بين مصطلحى « القصة » (Nouvelle) و « الحكاية » (Conte) فأطلق على مجموعة من حكاياته الشعرية اسم « حكايات وقصص » (Contes et nouvelle) ، وحين حاول أحد نقاد الأدب ـ ألبرت جورج ـ التفريق بين المصطلحين قدم تعريفا « للحكاية »

بأنها « قد جرى العرف على أنها أكثر تركيزا وتضم «حدوتة» واحدة رئيسية فى حين أن القصة Nouvelle تتسم بأنها أكثر تعقيدا وتضم عدة مشاهد »(٣) ٠

ينطبق هذا على الأدب الفارسى كذلك ، فقد عرف الأدب الفارسى منذ القدم ألوانا عديدة من فن القصص باعتباره جزءا من آداب الشرق ، وهناك العديد من الألفاظ العربية والفارسية للأنواع القصصية ، مثل « قصه ، حكايت ، نقل، سركذشت ، داستان » وغيرها ، الا أن أيا من هذه الألفاظ لم تتحدد له معالم أدبية تميزه عن غيره من فنون القصص فكانت جميعها مترادفات لمعنى واحد عام ، ورغم ذلك فقد نشأت المقامة فى الأدب العربى وانتقلت منه الى سائر الآداب الشرقية وغير الشرقية مكونة نوعا أدبيا مستقلا له سماته المحددة والمتميزة ، وعلى الرغم من ذهاب البعض الى رأى مفاده أن فن المقامة قد أولى جل اهتمامه الى اللغة وفنونها دون التركيز على الجانب القصصى الا أننا نرى من جانبنا أن القصـــــة المقامية لا تقل تحديدا وقوة بناء عن أى فن قصصى محدد المعالم ، فالمقامة لها حبكة شبه ثابتة وتتناول حياة الانسان الأرضى الدنيوى ـ لا الأسطورى ـ فى حياته العادية ، وبطل المقامة له سماته المحددة التى تميزه عن غيره من أبطال سائر الأشكال القصصية ، فهو صعلوك له قضية ، يجول العالم الاسلامى بحثا عن المعرفة كاشـــــفا لأوجه الفساد فى عصره ، وهو شخصية نمطية بمعنى أن معالم شخصيته ثابتة لا تتغير فى كل مقامة ، وتتسم بنية

المقامة كذلك بالنمطية فتتبع فى بنائها خطوات متتابعة فى كل وحدة مقامية كما يلى :

١ ـ الراوى يحل بمدينة ٠

٢ ـ الراوى يتعرف على البطل الصعلوك المحتال متخفيا ويكشف تخفيه ٠

٣ ـ الراوى يغادر المدينة ٠

٤ ـ البطل المحتال يبدأ مغامراته ٠

٥ ـ البطل يروى حكايته فى تلك المدينة ٠

٦ ـ البطل يغادر الى مدينة اخرى ، وتتكرر الدائرة من جديد

واذا كانت اللغة تمثل جانبا رئيسيا فى هذا الفن القصصى فان هذا يرجع الى سمة عامة من سمات العصر الذى نشأت فيه ، حيث كانت للغة وامتلاك ناصيتها واستعراض فنونها سطوة ظاهرة فأضحت جزءا لا يتجزأ من المقامة ولايقل اهمية فيها عن شخصية البطل والبنية النمطية ٠

المقامة فى الأدب الفارسى :

تعد المقامة والحكاية أقرب الأشكال الأدبية الى القصة القصيرة فى الأدب الفارسى ويرجع دخول فن المقامة من الأدب العربى الى الأدب الفارسى الى القرن الثانى عشر

الميـــلادى وربما كان القاضى حميد الدين بلخى (توفى ١١٦٤ م) أول من كتب المقامة بالفارسية ، ويذكره نظامى عروضى سمرقندى فى كتابه جهار مقاله (كتبه فى حدود عام ٥٥١ ـ ٥٥٢ هجرية) فى مقالة « ماهيت دبيرى » ضمن كبار كتاب عصره المتميزين من العرب والعجم(٤) .

وتضم مقامات حميدى ما يقرب من اثنتين وعشـــرين مقامة ، وعلى خلاف المقامات العربية يتعدد أبطال مقامات حميدى بعدد مقاماته ، فاختار لكل مقامة بطلا يناســـب موضوعها دون ذكر اسمه فهو تارة فى زى الشباب وتارة أخرى فى ثياب النساء وأحيانا نجده شيخا هرما وما الى ذلك ، وبذل حميد الدين جهدا فائقا فى سبيل اختيار جمله والحفاظ على التكوين المسجع لعبارته ، ولهذا يصف بهار مقاماته بأنها « تقليد فج وفظ لمقامات كل من بديع الزمان الهمذانى والحريرى(٥) » .

تناول القاضى حميد الدين فى مقاماته موضـــوعات مختلفة أغلبها أدبى ، فتناول فى بعضها موضوعات صوفية ودينية وفى بعضها كتب فى الوعظ والخطابة أو فى الهجاء والهزل ، وتميز بعضها بالروح النقدية وضم بعض آخر جوانب علمية وتاريخية(٦) .

وبعد مقامات حميدى أصيبت كتابة المقامة بالركود حتى كتب سعدى كلستان فى القرن التاسع الهجرى وهو عبارة

عن مجموعة حكايات قصيرة راعى فيها الكاتب الخصائص البلاغية لفن المقامة ومزج النثر فيها بالشعر وهو الأسلوب الذى كان يعرف باسم « النثر الفنى » ، يقول بهار :

« ان كلستان سعدى هو فى الحقيقة مقامات ، ويمكن اعتباره الثانى بعد مقامات حميد الدين ، واذا كانت مقامات حميد الدين ماهى الا تقليد فج وفظ (لمقامات) بديع الزمان والحريرى فان مقامات سعدى ابتكار خالص وابداع ومهارة وصنعة ولا مجال فيها للتقليد »(٧) .

وربما كان بعض «مقامات سعدى» أو حكاياته مشاهدات شخصية أو تجارب ذاتية وقعت للكاتب ، الا أن أغلب حكاياته من وحى الخيال وأبطالها يتصفون بصفات واقعية ولا مجال فى قصصهم وشخصياتهم للمبالغات والأسطورية ، فكانت حكايات سعدى حلقة فاصلة بين المقامة بصورتها العربية التقليدية والحكاية الفارسية الأصيلة التى تناسب البيئة واللغة الفارسيتين وسار على نهج **كلستان** سعدى كثرة من الكتاب فى القرون التالية ، فاذا مررنا بكتاب **بهارستان** (القرن التاسع الهجرى) الذى تأثر فيه الشاعر والكاتب جامى الى حد ما **بكلستان** سعدى ، ووصلنا الى القاضى احمد غفارى كاشانى وكتابه **نكارستان** (القرن العاشر الهجرى) نجده وقد احتوى على قدر كبير من الحكايات الا أنها حكايات ينسبها الكاتب الى احداث تاريخية حقيقية

وأحيانا نقلا عن كتب معروفة ، فيورد الكثير من الحكايات القصيرة والنوادر والأمثال تسبقها أسنادها التاريخية التى يفترض فيها الصحة مما يخرجها من نطاق بحثنا هذا ٠

وفى القرن التاســـع عشر الميلادى ظهر كتاب **بريشان** لمؤلفه ميرزا حبيب الله الشهير بقاآنى وقد اقتفى فيه قاآنى أثر **كلستان** سعدى الى حد بعيد ، وأورد فيه حكايات شبيهة بمقامات سعدى فى **كلستان** ولها شخوصها الخيالية فيماعدا شخصية البطل حيث جعل الكاتب من نفسه بطلا لحكاياته ومقاماته وأسند أدوارا فى بعض حكاياته لشخصيات من رجال عصره وأمرائه ، وتناول فى مقاماته هذه موضوعات شتى من عشق وكدية وفكاهة وهجاء وعرفان وتاريخ ٠

وكتب أيضا عبد الرزاق دنبلى (ولد عام ١١٧٦ هـ / ١٧٩٧ م) حكايات قصيرة فى كتابه **حدائق الجنان** ضمن الموضوع الأصلى وهو سيرة نادرشاه أفشار وكريمخان زند وأوائل ملوك آل قاجار ، وقد صاغ حكاياته فى قالب يشبه قالب المقامة لولا أن شخصياتها تاريخية وليست خيالية تماما ٠

وفى أواخر القرن التاســـع عشـــر كتب أديب الممالك فراهانى (ولد ١٨٦٠) مجموعة مقامات عنوانها **مقامات أميرى** الا أنها حسب قول ابراهيمى حريرى (٣٩٠) ـــ تعد مفقودة ٠

تطور الحكاية فى أوائل القرن العشرين :

وفى أوائل القرن العشرين برزت كتابات على أكبر دهخدا كتطور جديد على أسس قديمة راسـخة فقد جمع دهخدا بين أسلوب سعدى الجزل ولغته القوية وبين صورة أدبية جديدة تبنتها الصحافة التى كانت حديثة العهد حينئذ فى ايران ، كتب دهخدا مجموعة مقـالات تحت عنوان : **جرند برند** كعمود أسبوعى ثابت فى صحيفة **صور اسرافيل** بين عامى ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨ بامضاء « دخو » ، وكانت هذه المقالات بمثابة حكايات قصيرة سخر فيها الكاتب من الظروف السياسية والاجتماعية لعصره بلغة قريبة من اللهجة العامية التى يتحدثها الايرانيون فى أسواق تهران وأزقتها ، ويمكن القول أن حكايات دهخدا تمثل حلقة فاصلة بين الحكاية التقليدية والقصة القصيرة الحديثة ، ونسـج دهخدا فى حكاياته بين الواقع المعاش فى ايران ذلك الوقت وبين الخيال القصصى لينتج عن ذلك صورة ساخرة بلغة أدبية متميزة ٠

نخلص مما سبق الى أن القصة الموجزة أو الحكاية القصيرة لم تكن نوعا أدبيا حديثا فى الأدب الفارسى كجزء من آداب المشرق الاسـلامى ، بل يمكن القول أنها مثلت واحدا من أكثر الأشكال الأدبية شيوعا فى الأدب الشرقى ، الفارق هو أن الحكاية قد توزعت فى صور شتى شـعرية ونثرية وقصة وأقصوصة وخبر وما الى ذلك من اصطلاحات دون حدود حاسمة تفصل بينها وتميزها عن بعضها البعض ٠

والحكاية كذلك من أكثر الأشكال القصصية شيوعا فى التراث الشعبى الشرقى ، و « الحدوتة » الشعبية خير مثال على ذلك ، واذا كانت اصطلاحات مثل « يروى أن ... » و « يحكى أن ... » وغيرها قد ميزت « الحكاية » فى الأدب « الرسمى » الشرقى فقد دلت تعبيرات شعبية مثل « كان ياما كان » و « يقولون ... » فى العربية ومثيلاتها فى الفارسية مثل « يكى بود ويكى نبود ... » و « ميكويند » على بداية قصـــة شـــعبية تتداولها الأجيال ، ويرى أحد الباحثين الايرانيين المحدثين أن الخيـــال الأدبى الايرانى يبدى على الدوام اهتماما زائدا وارتباطا ابداعيا شديدا بالأشكال الأدبية « المضغوطة » أو القصيرة(٨) ، ومثاله على ذلك القصيدة الغزلية فى الأدب الكلاسيكى وما تحويه من صور خيالية غنية .

وهكذا كانت الساحة معدة لاستقبال الصورة الحديثة « للحكاية » التقليدية وهى « القصة القصيرة » ، وبعبارة أخرى جاء الاتصال بالأدب الأوربى باطار محدد لمضمون قائم بالفعل فى الأدب الشرقى ، ورغم هذا التطور الذى طرأ على « الحكاية » التقليدية فلازلنا نجـــد كتاب الأدب الشرقى ــ من ايرانيين أو عرب أو ترك ــ يكتبون قصصهم القصيرة فى شكل « الحكاية » التقليدية بل ويطلق كاتب قصصى مثل جمالزاده ــ على سبيل المثال ــ اسم « كان يا ما كان » عنوانا على أولى مجموعاته ــ وأول مجموعة فى الأدب الفارسى ــ من القصص القصيرة ، ولا تكاد القصة

القصيرة الحديثة فى الأدب الشرقى تخلو من عناصر المقامة والحكاية التقليديتين سواء من حيث البناء أو الحبكة أو الشخوص كما سنرى فى تحليلنا لأول « قصة قصيرة » فارسية وهى فارسى شكراست لمحمد على جمالزاده ·



(٢)

القصة القصيرة الحديثة فى الأدب الفارسى

جمالزاده رائد القصة القصيرة :

ظهرت « القصة القصيرة » بصورتها الأوربية الحديثة وباعتبارها نوعا أدبيا مستقلا فى الأدب الفارسى لأول مرة فى عام ١٩٢١ ، وكانت أول « قصة قصيرة » بالفارسية هى قصة **فارسى شكراست لكاتبها** محمد على جمالزاده (ولد ١٨٩٢) ونشرت على صفحات جريدة **كاوه**(٩) التى كانت تصدرفى برلين ، وعندما لاقت القصة نجاحا بين الجالية الايرانية ببرلين أضـــاف اليها خمس حكايات أو قصص قصيرة أخرى ونشرهم فى مجموعة قصصية بعنوان : **يكى بودويكى نبود**(١٠) (كان ياما كان ١٩٢٢) صدرت من مطبعة كاويانى ببرلين ، وهذه الحكايات الخمس الأخرى هى :

١ ــ رجل سياسى (السياسى)

٢ ــ دوستى خاله خرسه (حب الدب لصاحبه)

٣ ــ درد دل ملا قربانعلى (أحزان الشيخ قربا نعلى)

٤ ــ بيله ديك بيله جغندر (« كل فى واديه »)

٥ ــ ويلان الدولة ٠

وقدم جمالزاده لهذه المجموعة القصصية بمقدمة أدبية هامة عن فن الكتابة القصصية ومكانته الهامة بين فنون الأدب(١١) ، وباعتباره وسيلة لتعليم العامة وابتكار لغة أدبية محلية للأدب ، ولا تقتصر أهمية هذه المقدمة الأدبية على تاريخ الأدب الفارسي الحديث بل تتجاوزه الى تحليل الصلات الأدبية بين الشرق والغرب ورد فعل آداب المشرق تجاه تحديات القرن العشرين ومستحدثاته(١٢) ٠

ورغم أهمية هذه المقدمة الأدبية لجمالزاده الا أنه لم يكن أول من يكتب مثلها ، فقد سبقه بحوالى نصف قرن ميرزا فتحعلى آخوندزاده بمقدمته الأدبية لمسرحياته ، وانتقد جمالزاده فى مقدمته أيضا « التقليدية » فى الأدب وركز على مكانة النوع الروائى كسبيل لحفظ التراث اللغوى العـــامى والتعبيرات الدارجـــة ، كما ألحق جمالزاده بمجموعة **يكى بودويكى نبود** معجما موجزا مرتبا ترتيبا أبجديا لعشـــرات من الألفاظ والتعبيرات العــامية التى استخدمها فى المجموعة ، وذكر فى مقدمته صراحة تأثره

فى ايراد هذا المعجم بكتاب فرنسيين مثل ف . دى فييون ، وج . ريشبان ، وشكل هذا المعجم نواة لمعجم أكبر لجمالزاده تحت عنوان فرهنك لغات عاميانه قام بنشره محمد جعفر محجوب فى تهران عام ١٩٦٤ .

استخدم جمالزاده فى هذه المجموعة من الحكايات لغة أدبية تمتزج فيها الفصحى بالعامية مع التركيز على ايراد تعبيرات وألفاظ دارجة من لغة السوق والحارة بصورة متعمدة ، فكانت اللغة فى حكاياته جزءا لا يتجزأ من عمله وكأنه يكتب قصصه بهدف تجميع أكبر قدر ممكن من التعبيرات العامية الدارجة ، وفى ذلك أيضا لم يكن جمالزاده قد أتى بجديد . فكانت هذه اللغة الأدبية الأقرب الى لغة الحوار اليومى فى الحياة الايرانية شائعة بالفعل فى الأدب الفارسى لعدة عقود قبل ظهور مجموعة يكى بودويكى نبود ، فكانت هذه اللغة فى مقدمة القضايا التى شغلت أدباء النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى حركتهم نحو تجديد الأدب الفارسى ، وفى هذا المضمار لايمكن انكار الدور الذى لعبه الاتصال بالغرب والأدب الأوروبى فى المضى قدما بهذه الحركة التجديدية ، فكانت من أولى نتائجه بداية تحرير لغة المراسلات الحكومية من التعقيدات اللغوية القديمة على يد رئيسى الوزراء قائم مقام فراهانى وميرزا تقى خان أمير كبير بأواسط القرن التاسع عشر ، ومن خلال حركة الترجمة من اللغات الأوروبية بلغت اللغة الأدبية مكانة غير مسبوقة على يد مترجمين أكفاء مثل

ميرزا حبيب اصفهانى فى ترجمته الفارسية لرواية حاجى بابا اصفهانى من تأليف الكاتب الانجليزى جيمس موريية (١٨٢٤) وفى أدب الرحلات حقق « حاجى زين العابدين مراغة أى أسلوبا أدبيا مبسطا متميزا فى كتابه سياحتنامة ابراهيم بك (١٨٨٨) وطو ميرزا عبد الرحيم طالبوف لغة أدبية متميزة كانت نواة لكتابة الأدب العلمى وأدب الأطفال فى الفارسية من خلال كتابه كتاب أحمد ياسفينة طالبى (١٨٩٢) ، وحين عرفت ايران عن الغـــرب الطبـــاعة والصحافة المتطورة برز رواد فى تجديد اللغة الأدبية التى تتناسب والكلمة الصحفية السريعة ومنهم على أكبر دهخدا وأغلب الظن أن جمالزاده ، وعددا من معاصريه قد تأثروا الى درجة كبيرة بعلى أكبر دهخدا فى لغته المتميزة وأسلوبه الساخر ، وكان دهخدا(١٣) بمقالاته تحت عنوان جرند برند (كلام فارغ التى نشرتها صحيفة صوراسرافيل بين عامى ١٩٠٧ و ١٩٠٨(١٤) فى طليعة رواد الأســـلوب الأدبى الجديد .

اذن تكمن ريادة محمد على جمالزاده فى مجال كتابة « القصة القصيرة » الأوروبية لا فى مجال اللغة الأدبية ، ونركز من جانبنا على هذه النقطة الأخيرة ونرى أن لغة جمالزاده فى مجموعته يكى بودويكى نبود تبدو مفتعلة وبها تعمد لتجميع الألفاظ العامية والتعبيرات الدارجة ، فى حين أن اللغة الأدبية فى أعمال مثل حاجى بابا اصفهانى ومقالات جرند برند تتسم بالطبيعية والاستخدام غير المفتعل للألفاظ

العامية ، الا أن جمالزاده قد ذاع صيته فى هذا المضمار لتركيزه عليه فى مقدمته الأدبية وفى كثرة من كتاباته مما جعله يبدو كما لو كان أول من استخدم اللغة الأدبية الأقرب الى لغة الحوار ، ورغم هذا ينبغى أن نذكر دوره فى تطوير هذه اللغة ضمن غيره من الكتاب وفى تعريف الأدب الفارسى بالقصة القصيرة كنوع أدبى مستقل .

بنشره لحكاية **فارسى شكراست** قدم جمالزاده أول مثال « للقصة القصيرة » الحديثة فى الأدب الفارسى ، وانتقد فيها مزج الفارسية بوفرة من الألفاظ العربية على لسان « رجل الدين » ومزجها بالألفاظ الفرنسية على لسان « المتفرنج » ، ودعا الى العودة الى الفارسية « الخالصة » المستخدمة فى حياة العامة من أهل ايران ، ويذكر البعض أن مجموعة **يكى بودويكى نبود** أثارت رد فعل معاديا فى الأوساط الدينية فى ايران حين ظهرت لأول مرة بسبب الصورة المزرية لرجل الدين الشيعى والتى رسمها جمالزاده فى احدى قصص هذه المجموعة وهى **درد دل ملا قربانعلى** ، كما تضمنت المجموعة أيضا نقدا للساسة الايرانيين ونماذج أخرى من المجتمع الايرانى ، بل ويظن بعض نقاد الأدب أن الكتاب أثار مظاهرات عدائية وأنه قد أحرق فى بعض مناطق

ايران تعبيرا عن ادانة الكاتب ونقده لمثالب أهل وطنه(١٥) ، الا أن هذا القول مبالغ فيه الى درجة بعيدة ، اذ لم يكن نموذج جمالزاده لرجـــل الدين الشـــيعى فى مجموعته القصصية أول نموذج ساخر لرجال الدين الايرانيين ولا أكثرها ازراء بهم ، فصورة رجل الدين الايرانى فى رواية **حاجى بابا اصـــفهانى** تذهب الى درجة أبعـد كثيرا من صورته لدى جمالزاده فى السخرية والتحقير ورغم ذلك لم تثر ما يدعى البعض أن كتاب جمالزاده قد أثاره رغم أن مؤلف حاجى بابا انجليزى وظهرت ترجمته الفارسية قبل ظهور يكى بوديكى فبود بما يقرب من نصف قرن ٠



(٣)

القصة القصيرة بعد عام ١٩٢١

الفترة من ١٩٢١ الى ١٩٤١ :

رأينا فيما سلف كيف كانت حكايات سـعدى حلقة الوصـل بين المقامة العربية التقليدية والحكاية الفارسية الأصيلة ، وتطورت الحكاية فى أوائل القرن العشرين على يد على أكبر دهخدا لتكون همزة الوصـل بين الحكاية التقليدية والقصة القصيرة الحديثة بصورتها الأوربية ، وتحدثنا أيضا عن ريادة جمالزاده فى فن القصة القصيرة ومزجه فى نسـيجها بين أسس القصـة القصـيرة الأوربية وعناصر المقامة والحكاية التقليدية مما أضـفى على قصصه لونا محليا متميزا ، وفيما يلى نناقش تطور هذا الفن القصصى بعد ١٩٢١ وهو تاريخ نشـر أول مجمـوعة منه وهى يكى بود ويكى نبود لمحمـد على جمالزاده ٠

رغم النجاح الذى حققته مجموعة يكى بود ويكى نبود الا أن ظهور مجموعات من القصص القصيرة الحديثة الأخرى قد استغرق ما يقرب من عقد من السنين ، وكان جمالزاده قد لجأ الى الصمت الأدبى تحت ضغط ـ واحتجاجا على ـ الرقابة على المطبوعات والذى فرضه نظام رضا شاه منذ أن تولى العرش فى عام ١٩٢٥ كأول ملوك الأسرة البهلوية ، فأحجم جمالزاده عن نشر أى من كتاباته حتى عام ١٩٤٢ حيث أصدر أولى رواياته وهى دار المجانين ثم توالت أعماله ، وفى فترة حكم رضا شاه ـ (١٩٢٥ ـ ١٩٤١) ـ شكلت الرقابة على المطبوعات عقبة فى طريق نشر أية مطبوعات ، لا فى مجال القصة القصيرة وحسب بل فى كل المجالات الأدبية والصحفية . فخلت الساحة للكتاب المؤيدين لنظام رضا شاه الشمولى ، فازدهرت الرواية التاريخية التى كانت بمثابة وعاء جيد يحوى الأفكار التى روج لها النظام بصورة مكثفة ومنها فكرة القومية الايرانية واحياء « أمجاد » ايران القديمة قبل الاسلام ، وفى مجال الرواية الاجتماعية(١٦) أيضا روج الكتاب للأفكار التى نادى بها النظام وتبناها مثل قضايا حرية المرأة والحجاب وخروج المرأة للعمل والبطالة والحب وما الى ذلك من الأمور التى شغلت البرجوازية الايرانية الجديدة وقوامها جيل الشباب الجديد ممن تلقوا تعليما حديثا ، ولكن يجدر بنا أن نذكر أن بعض كتاب ايران قد كتبوا الرواية الاجتماعية وغيرها من الأشكال

الأدبية وتناولوا فيها القضايا التى تهم المجتمع الايرانى الجديد بدافع التأييد للنظام الذى علقوا عليه آمالا كبيرة للأخذ بيد ايران الى مصاف العالم الحديث ، فى حين أن بعضا آخر منهم كان دافعه الى ذلك الهروب من قبضة النظام الحديدية على المطبوعات السـياسية التى تمس النظـام الديكتاتورى الحـاكم ، أما كتاب الرأى الحر المناهضـون للنظام فكان أمامهم أحد طريقين(١٧) : أما اللجوء الى الرمزية لتفادى الصدام غير المتكافىء مع نظام لم يتوان عن البطش بأى صوت معارض ، أو اللجوء الى الرحيل عن ايران لنشر أعمـالهم(١٨) ، وفى أوائل الثلاثينات بدأت الأصوات الموالية للنظام فى التحول عن موالاته نتيجة للاحباط الذى ألم بهم على أثر فشل النظام فى تحقيق آمالهم . ونتيجة لاحجام النظام عن منح بعض الحريات للطبقة المستنيرة التى حرمت من أية مشـاركة سياسية فعلية فى ادارة أمور البلاد ، وهكذا حين انكشف القناع الزائف عن وجه النظام الشمولى انقلبت عليه الفئة التى ساندته فى البداية ، ولكن أيضا بسبب الخوف من بطش النظام لجأوا فى كتاباتهم الى الرمزية أو الى النقد الاجتماعى أو أى من القضايا العامة طالما انهم لا يقربون النظام السياسى بنقد صريح .

خلت السـاحة ـ كما ذكرنا منذ قليـل ـ للرواية التاريخية والاشعار الحماسية التى تمجد النظام الجديد ومراميه فى أواخر العشرينات ، وانزوت القصة القصيرة

الحديثة العهد بلجوء رائدها جمالزاده الى الصمت الأدبى، الى أن قام برزك علوى (ولد عام ١٩٠٤) بنشر مجموعة جمدان عام ١٩٣٤ ، وقد استفاد علوى فى هذه المجموعة القصصية من الأفكار الفرويدية فى التحليل النفسى والتى ألم بها فى أثناء سنوات دراســـته فى ألمانيا(١٩) ، وفى حين خلت مجموعة جمدان من أى لون سياسى اصطبغت كل كتاباته القصصية منذ ١٩٤٢ ــ أى منذ سقوط نظام رضا شاه ــ بصبغة سياسية ولو أنه لا يعتبر نفسه كاتبا سياسيا فى المقام الأول ، وأظهر علوى فى كل أعماله قدرة فذة على اتباع التكنيك الأوربى فى القصص بينما غلبت المحلية الايرانية بصورة متميزة على مضمون قصصه ٠

وعام ١٩٣٧ أصدر سعيد نفيسى مجموعة قصـــصية بعنوان ستاركان سياه (النجوم السوداء) وتضم قصصا يعود تاريخ كتابتها الى عام ١٩١٦ ، أى أن سعيد نفيسى كان لايزال يجرب قلمه فى كتابة القصة القصيرة حين ظهرت مجموعة يكى بود ويكى نبود لجمالزاده فى عام ١٩٢١ ولما كانت مجموعة جمدان تجريبية فقد أنصب اهتمامه فيها على الشكل والأســـلوب دون محاولة التجديد الأدبى ، فتميزت كتـــابته بالتزام الحـــرفية الفنية التى لا تثير الجدل(٢٠) ٠

وكانت أواسط الثلاثينيات من هذا القرن بداية انطلاق القصة القصيرة الى آفاق جديدة فى الأدب الفارسى على

يد الكاتب القصصى الايرانى الفذ صادق هدايت(٢١) ، وقد تميزت كتاباته القصصية بالتعقيدات الفلسفية والنفسية العميقة ، وعبر فى بعض منها عن اتجاهاته الفلسفية كاتجاهه النباتى وحبه للحيوان ودعوته الى احياء كل ما اعتبره ايرانيا « خالصا » ، وشغله بشكل خاص موضوع « الضحية » الذى يعانى من القهر والظلم ، فنجد فى قصصه شخصية الأحدب الذى يلقى السخرية من الجميع ، ورجل الدين المرائى ، والتاجر الجشع والعانس الحاقدة وما الى ذلك من النماذج الاجتماعية الحية بقاع المجتمع الايرانى ، وفى استخدامه للهجة العامية الفارسية ذهب هدايت الى درجة أبعد كثيرا مما ذهب اليه جمالزاده فى أوائل العشرينيات ، أما من حيث التكنيك فقد أصبح أسلوبه معيارا ونهجا لمن تلاه من الكتاب فى العقود التالية ..

فترة الأربعينيات والخمسينيات :

فى أوائل الأربعينيات احتلت قوات الحلفاء أجزاء من الأراضى الايرانية وأجبروا رضا شاه على التنازل عن عرشه لابنه محمد رضا بهلوى فى عام ١٩٤١ ، ومنذ ذلك العام ولعدة أعوام تالية خفت قبضة الرقابة على المطبوعات الى حد ما ، ونتيجة لذلك شهدت الحياة الثقافية بعض الازدهار ، وانتعشت القصة القصيرة ، وكان التجديد الذى أضفاه صادق هدايت على الكتابة القصصية مصدر الهام لعدد من الكتاب الجدد الذين خاضوا هذا المضمار كوسيلة

للتعبير السياسى ، وقد تأثرت كثرة من هؤلاء الـكتاب بكتابات جان بول سارتر الفلسفية والأدبية ضمن تأثرهم بالتطورات الفكرية والأدبية فى فرنسا بشكل عام ، ومن ثم كانت كتابات هدايت وسارتر دليلا جديدا أعاد كتاب ايران الجدد على ضوئه النظر فى المفاهيم الأدبية الراسخة، كما ازداد نشاط حزب تودة الشيوعى الايرانى فى ظل مناخ الحرية النسبى فى الأربعينيات(٢٢) ، كانت كل هذه عوامل أدت الى انتعاش الحياة الثقافية فى البلاد والى قيام نهضة أدبية جديدة فى هذا العقد .

من أبرز الكتاب القصصيين الايرانيين الذين بدأوا انتاجهم الأدبى فى هذه الفترة صادق جوبك (ولد عام ١٩١٦) ، وبرز اسم هذا الكاتب فى مجال كتابة القصة فحاز مكانة لا تقل عن مكانة صادق هدايت وجمالزاده ، وانصب اهتمامه فى القصة على التحليل النفسى والغوص فى أعماق النفس الانسانية ، وتعالج أعماله المصير المأسوى لبعض الناس فى عالم « لا انسانى » وهو الموضوع الذى يوحى برباط بين أعماله وأعمال ادغار آلن بو ، وتتميز كتابات جوبك أيضا بدقة التصوير والصراحة فى الوصف وحيوية اللغة التى يستمدها من اللهجة العامية الجارية .

فى أولى مجموعاته القصصية خيمة شب بازى (خيال الظل ، ١٩٤٥) تجلت بعض السمات المتميزة فى أسلوب جوبك مما بدا واضحا فى أعماله اللاحقة ، وهى محاولته

صبغ القضايا الاجتماعية الملحة بصبغة فلسفية ، وتعاطفه مع أقدار الضعفاء وضحايا القدر ، ويركز فى قصصه على « ضعة » الحياة وما يؤول اليه الانسان ، ويصور العوالم الضيقة الكئيبة للمومسات والعوانس والانتهازيين وغيرهم ممن نبذهم المجتمع(٢٣) .

ومن أبرز كتاب القصة القصيرة فى الأربعينيات أيضا جلال آلا أحمد (١٩٢٣ ـ ١٩٦٩) ، ورغم غزارة انتاجه القصصى الا أنه لم يلق بعد ما يستحقه من عناية ودراسة من جانب نقاد الأدب الفارسى المعاصر ، بدأ آل أحمد حياته الأدبية بنشر قصته زيارت فى عام ١٩٤٥ على صفحات مجلة سخن الأدبية ، وظهرت أولى مجموعاته القصصية متضمنة القصة المذكورة وتحت عنوان ديد وباز ديد فى عام ١٩٤٦ ، ثم توالت مجموعاته القصصية فى فترات قصيرة(٢٤) ، يقول رضا براهنى الناقد الأدبى الايرانى المعاصر فى نقده لقصص آل أحمد :

... ولدينا آل أحمد صاحب أسلوب نثرى يعد أفضل من أسلوب هدايت وربما يعد أفضل أسلوب نثرى معاصر ، ولكن هذا الأسلوب للأسف لا يولى ما يكفى من عناية غالبا لتقصى أغوار نفس شخوصه .. ، فأحيانا تمر شخصياته أمام عيون القارىء كأنها البرق دون أن يتمكن القارىء من أن يمسك بهم أو أن

يعلقوا بذهنه ، فآل احمد لا طاقة له على وصف أحوال الأفراد أو المجتمع ذهنيا أو نفسيا ، ويعد ميله المتميز للرسم السطحي للشخصيات نتيجة لعدم رؤيته للعالم من الداخـــل ، من أعماق العلل والنتـــائج ، فبدلا من أن يخلق شخوصا يخلق صورا هزلية يركز فيها على وصف المرتفعات والمنخفضات الجسدية(٢٥) .

أما من حيث الموضوع فيرى ناقد آخر أن استغراق آل أحمد فى الموضوعات الأخلاقية والاجتماعية قد جعلت بعض أعماله أقرب الى المقالات السردية منها الى القصص، واستغرق فى السخرية فلم يفلت من سخريته المريرة أى من المؤسسات الاجتماعية أو الدينية أو الســـياسية فى المجتمع الايرانى(٢٦) .

وفى أعقاب فشل حركة مصـــدق عام ١٩٥٣ عادت الأوضـــاع الســـياسية الى ما كانت عليه من قهر وكبت للحريات فى أواخر عهد رضا شاه . ومن جديد اشتدت قبضة الرقابة على المطبوعات مؤكدة قوة النظام الحاكم وقدرته على اسكات الأصوات المعارضة فى الأوساط المثقفة، وأعاد محمد رضا شاه سيرة والده بشأن مكافحة الشيوعية فطورد أنصار حزب توده وأعضاؤه النشطون وفى حين تم اعتقال مؤيدين للحزب أمثال أحمد شاملو الشاعر المعروف، اضطر أعضاء الحزب من ذوى الفعالية من أمثال آل أحمد

ومحمد على افراشته الى اللجوء للترجمة والكتابة فيما لا يقرب السياسة الا بالرمز والتلميح ٠

وساد خلال هذه الفترة من الاضطراب السياسى صمت أدبى نشط بموازاته أصحاب الأنشطة السياسية من مختلف الاتجاهات ، وفى أواسط الخمسينيات عادت الحياة الأدبية الى النشاط بروح جديدة وتباين فى الاتجاهات والأنشطة ، فكان ظهور المجلات والدوريات الأدبية حافزا على نشر الأعمال القصصية لكتاب ناشئين ، وفى الوقت نفسه شهدت حركة الترجمة عن الأدب الغربى طفرة كبيرة وبخاصة ترجمة الأعمال القصصية لكتاب بريطانيين وأمريكيين ، وكان النوع الغالب فى هذه الترجمات القصص البوليسية وقصص الجريمة ومعظمها للاستهلاك الشعبى لكن هذا لا ينفى ظهور ترجمات هادفة قام بها كتاب لهم مكانتهم الأدبية مثل سيمين دانشور (١٩٢١) ومحمود به آذين (١٩١٥) ، فترجمت سيمين دانشور ضمن ما ترجمت أعمالا مثل : **بياتريس** لآرثر شنيتسلر **والكوميديا الانسانية** لساروويان ، وقام محمود به آذين بترجمة **عطيل** لشكسبير ، وبالاضافة الى العائد المادى الذى وفرته الترجمة للكتاب كانت مختاراتهم من الأعمال الأدبية والنصوص من ذلك النوع الذى يحوى ظروفا سياسية أو اجتماعية شبيهة بظروف ايران ، ومن خلال هذه الترجمات عبر هؤلاء الكتاب عن وجهة نظرهم السياسية ولو بطريق غير مباشر ٠

كما ظهرت أعمال قصـــصية لم يحاول كتابها تجربة أشكال جديدة أو حتى على نهج الجيل السابق من الكتاب القصصيين كهدايت وجوبك بل عادوا أدراجهم الى أسلوب جمالزاده فى مزج عناصر الحكاية التقليدية بعناصر القصة القصيرة الحديثة ، الا أن هذا الأسلوب القصصى كما يرى ظفرزاده وان كان قد اعتبر تجديدا وطفرة الى الامام فى العشـــرينيات فكان يعد ركودا وقفـــزة الى الوراء فى الخمسينيات ، وربما كان أتباع هذا « الأسلوب البسيط » متأثرين فى نهجهم هذا باتجاه عشدايه فى الأدب الأمريكى لدى همنجواى مثلا(٢٧) ، ونجد هذا المنحى الأدبى لدى ابراهيم كلستان فى مجموعته شكر سياه (السكر الأسود ١٩٥٥) التى تجنب فيها التكلف فى التكنيك وعـــاد الى الأسلوب المبسط ذى الحبكة واللغة المباشرتين السهلتين .

وفى أواخر الخمسينيات ظهر الى جانب هذا الاتجاه « الكلاسيكى » فى القصة القصيرة اتجاه آخر واقعى ركز اهتمامه على قضايا الانسان العادى والمواقف المألوفة ف الحياة الايرانية كما نجدها لدى هدايت وكتاب جيله ، ومن أبرز أصحاب هذا الاتجاه جمال مير صادقى ورضا مقدم اللذان تناظرا على صفحات مجلة سخن(٢٨) ، وفى أعمال تالية له اتجه مير صادقى الى السخرية المرة كأسلوب له كما سنرى فى قصة تدريس دربهار دل انكيز المترجمة فى هذا الكتاب ، فى هذه القصة يلجأ مير صادقى الى الرمزية

الساخرة التى نجدها فى رواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ كما سنرى فيما بعد .

ونحى غلا محسين ساعدى (١٩٣٥ ـ ١٩٨٥) نفس هذا المنحى الواقعى فى أعماله ، وتدور معظم أعماله حول آمال الايرانيين البسطاء وآلامهم فى القرى النائية والاحياء المنسية بالمدن ، وقد استخدم مهارته كطبيب نفسى فى كتابته القصصية والمسرحية .

فترة الستينيات والسبعينيات :

ومنذ أوائل الستينيات شهدت القصة القصيرة حركة ازدهار ملحوظة الى درجة أن أصبحت ضمن الفنون ذات الشعبية الكبيرة بين الشباب الايرانى ، فظهرت كتب عن كيفية كتابه القصة ومن أشهرها كتاب **هنر داستان نويسى** لابراهيم يونسى (تهران ، أمير كبير ، ١٩٧٦)(٢٩) ، وكان لوفرة الدوريات الأدبية دور كبير فى تحقيق هذه الشعبية للقصة القصيرة ، ولكن لا ندرى هل أدت شعبية القصة القصيرة الى التوسع فى نشرها أم العكس ، على أية حال لا يسعنا أن ننكر الدور الاقتصادى فى زيادة الاقبال على هذا الشكل الأدبى القصير ، فكان الانخفاض النسبى لسعر المجلة الأدبية أو الصحيفة يعد عاملا فى تفضيل كثرة من القراء للقصة القصيرة على الرواية التى كانت تنشر فى شكل كتاب ، فكان الكتاب لايزال مرتفع الثمن نسبيا ، الى

درجة ان بدأ اتجاه فى نشر الروايات والترجمات الأدبية على صــورة ســـلسلة فى الصــحف لمواجهة العامل الاقتصادى ٠

ظهر فى تلك الفترة وما تلاها جيل من كتاب القصة القصيرة بذل جهدا ملحوظا لشق طريق جديد لهذا الفن الأدبى بعيدا عن الانغماس فى اللون المحلى أو الاستغراق فى الالتزام بقــواعده الأوربيــة أو فى مزيج من هذين العنصرين ، فكانت أعمال هذا الجيل من الكتاب تتسم بما يمكن أن نطلق عليه اسم « أدب انسانى » يخاطب الانسان فى كل مكان ويتحدث عن البشر دون تمييز ويعالج آلامهم وآمالهم دون تفرقة ، ويختلف كل من كتاب هذا الجيل عن غيره من الكتاب فى أسلوبه أو التكنيك الذى يتناول به قضاياه ، فمنهم من اتخذ من الهزل أسلوبا بينما استخدم آخرون الرمزية الساخرة وتبنى غيرهم الواقعية الدرامية، وأنه لمن الصعب وضع اطار عام يجمع بين الكتاب المحدثين جميعا تحت عنوان واحد وذلك أولا لكثرة عددهم ، وثانيا لوفرة ما انتجوا من أعمال ، وثالثا لتشــعب القضــايا والأساليب التى عالجوا بها قصصهم ، ومن ثم نبرز فيما يلى أبرز سمات هؤلاء الكتاب المحدثين وأعمالهم كأمثلة لا للحصر ، مع تقديم نماذج لأعمالهم روعى فى اختيارها هذا التباين فى الموضوعات والأساليب ٠

نادرا ما تتناول قصص هذه الفترة عاطفة الحب نفسها، اذ ركز كتاب هذه القصص على ما لهذه العاطفة من ردود فعل اجتماعية ، فالمجتمع الايرانى كمجتمع شرقى محافظ يدين الحب خارج اطاره المحدد وهو الزواج ، ولو أنه يغض الطرف عن خروج الرجل على هذه القاعدة الاجتماعية ، أما الفتاة فيحكم عليها المجتمع بالتدنى الاجتماعى أو السقوط وسوء المصير ، كما أن عاطفة الحب كانت موضوعا ثانويا بالنسبة للقضايا الملحة التى عرضت للطبقة المتوسطة فى الستينيات والسبعينيات ، فأولوا جل اهتمامهم الى مسائل أكثر شمولية والحاحا على انسان العصر الحديث ومجتمعه السريع التغير ، ومن ناحية اخرى مثلت القصة القصيرة شكلا أدبيا أقصر من أن يسع قصة حب بكل أبعادها وظروفها ، أما فى الرواية الطويلة فنجد قضية الحب فى مجتمع محافظ من أبرز القضايا التى شغلت كتاب القصة منذ عشرينيات هذا القرن ، ومن خلال هذا النوع من القصص عولجت قضية تحرير المرأة ونظرة المجتمع اليها ، وعلى أية حال كانت غالبية هذه القصص تنتهى بالاحباط أما نتيجة للفوارق الاجتماعية أو العامل الاقتصادى ٠

يعد طغيان الأب وسيطرته على الأسرة من الموضوعات التى عولجت فى أكثر من قصة فى هذه الفترة ، فالأب فى المجتمع الايرانى يمثل الدعامة الاقتصادية الأولى وربما الوحيدة فى النظام الاقتصادى الايرانى مما يحول دون

استقلالية الابناء حتى سن الشباب . فتظل صورة الأب الطاغية مسيطرة على خيال الكاتب وتنعكس سنوات طفولته التعسة فى كتاباته ، أو ربما قلنا ان الكاتب يظل منشغلا بسنوات طفولته وأحداثها من منطلق محدودية خبراته وتجاربه فى الحياة(٣٠) . وهكذا كانت شخصية الأب : الطاغية والابن المقهور ـ كما نجدها فى قصة جشن فرخنده (الحفل السعيد) لجلال آل أحمد ـ شخصيات ثابتة نجدها فى كثير من قصص الكتاب المحدثين ، وغالبا ما تروى القصة من وجهة نظر الابن .

وتمتد فكرة الرغبة فى الخلاص من سيطرة الأب الى رفض الماضى التاريخى للبلاد ، ففى قصة البرج التاريخى لخسرو شاهانى نجد الكاتب يسخر من البرج الأثرى الذى يمثل تاريخ ايران القديم برمته ويتمنى زواله ، فالكاتب الايرانى المعاصر يتساءل عن جدوى التاريخ وقيمته فى مقابل انجازات الغرب الحديثة . واذا كان صادق هدايت قد أسند ما تعانيه ايران من مشكلات فى العشرينيات والثلاثينيات الى « الغزو العربى » وانتشار الاسلام الذى أباد « أمجاد » ايران القديمة فان خسرو شاهانى يرجع تخلف ايران فى الستينيات الى نفس ذلك التاريخ القديم الذى بكى هدايت على أطلاله ، والحقيقة ان الاتصال المكثف بين ايران والغرب منذ أواسط القرن الحالى قد زاد من حدة الهوة التى تفصل بين ايران وأوربا فى العصور الحديثة ، بل وزادت هذه الهوة اتساعا لتخلق نوعا من

الغربة لا بين ابناء الجيل الجديد وماضى ثقافاتهم وحسب بل وبينهم وبين ذويهم وبنى وطنهم أيضا .

تحتل فكرة الاغتراب مكانا بارزا فى قصص الستينيات والسبعينيات ، ولكننا هنا لا نعنى احساس الايرانى بالغربة فى اثناء اقامته خارج ايران ، بل على النقيض من ذلك ، ونقصد الغربة التى يحسها فى وطنه وثقافته وبين أهله ، ففى قصة الفراشــات فى الليل (پروانه ها درشب) لغلا محسين نظرى نجد البطل يروى قصـــته فى أثناء اقامته بفوتنفن بالمانيا الغربية بعد عودته من زيارة قصيرة لايران، وتدور أحداث القصة فى أثناء هذه الزيارة ، يشعر البطل ومنذ اللحظة الأولى بالاغتراب عن أسرته ، يسود الصمت بينهم ، يتبادلون نظرات باردة ، الزمن لا يتحرك هنا ، الا ان زادت الأم عجافا وعينا الأخ هولا ، ويظن البطل أن « شيئا قد انكسر فى قلوبنا » ، « كسروا شيئا فى قلوبنا » . ونتيجة لهذا التباعد بين البطل وماضيه يفضل العودة الى حيث لا اغتراب ، ويكتب قصته فى « ليلة العيد » .

وتلقى الصور الدرامية فى هذا النوع من القصص بظلال الحزن والقتامة على القصة كلها فتعكس صـــدق الكاتب فى تجربته وما يعانى ، ففى قصة « كفراشات فى الليل » نجد صورا مثل : « كأنهم أخافوا عينيه » ، «نظرات باردة صامتة » ، « عيون زجاجية » « التصقت الفراشات بشعاع المصباح » ، « رأس أختى سقط على ركن من المقعد

كرأس دمية مخلوعة » ، ... . وتدعم اللغة المستخدمة والألفاظ هذه الصورة الدرامية : مثل : « عجفازين ــ لا شيء ــ أخـــافوا ــ متعب ــ صـــامتة ــ ماذا أقول ؟ فراشات » .

ويعبر الكاتب فى قصة (البرج الفاريخى بأسـلوب ساخر عن جهل الايرانيين بتاريخهم واستخفافهم بآثارهم الا اذا ما أبدى الغرب اهتمامه بها ، فيظل أهالى البلدة يتجاهلون البرج حتى وصلت بعثة أثرية أوربية لفحصه فبدأوا يولونه اهتمامهم ، وحين رحلت البعثة دون جدوى عاد الأهالى سيرتهم الأولى ، ولا يقتصر تأثير الغرب على العلاقة بين الايرانى ووطنه وماضـيه وجذوره بل وتمتد لتشمل اللغة ، ففى قصة فارسى شكراست لجمالزاده نجد البطل يعانى من عدم فهمه لما يقوله المتفرنج الذى يستخدم فى فارسيته ألفاظا أوربية (فرنسية) .

ومن عوامل احســـاس المثقفين الايرانيين بالاغتراب أيضا الظروف السياسية التى شهدتها ايران فى ظل نظامى رضا شاه (١٩٢٥ ــ ١٩٤١) وولده محمد رضـــا شاه (١٩٤١ ــ ١٩٧٩) فكان حرمانهم من أية مشاركة سياسية فى ادارة البلاد بالاضافة الى سياسات النظام التعسـفية والسـطحية باعثا للمثقفين الايرانيين لمعارضـــة الجهاز الحاكم ، الا أن قبضة النظام الحديدية قد حالت بينهم وبين التصريح بسخطهم ، فلجأوا فى كتاباتهم الأدبية الى الرمز

والتلميح لتفادى الرقابة . ففى قصـــة غصــن بنفسج من أجل عديد لنسيم خاكسار لا ندرى لأى ســبب ألقى القبض على ياسين وعديد واقتيدا الى المعتقل ، لكننا من بعض العبارات نستشف أنهما قد اعتقلا لأسباب سياسية : « ... فى الطريق الى المدعى العام ، كانوا (المعتقلون الآخــرون) يروجون الهيروين أو الأفيــون ، أو متهمين بالسرقة » ، « كان عديد حزينا لأنه لم يكن يستطيع أن يحرك يديه » ، وينعكس يأس المثقفين الايرانيين فى حدوث أى تغيير الى الأفضل فى استسلام كل من ياسين وعديد لمصيرهما فى المعتقل ، وربما كانت مســتشفى الأمراض العقلية فى قصة القبر لبهرام صــادقى رمزا للمعتقلات الســياسية التى أعدها النظــام البهلوى للمعارضــين السياسيين ، وربما ترمز « المدينة القصــية » الى ايران نفسها :

« كان المحافظ فى مدينتنا يختــال بهذه الميزة (وجود مستشفى للامراض العقلية) ، ولو أنه أحيانا يتحســر على وجوده فى هذه المحافظة الهادئة المليئة بالأسرار والقابعة فى الصحراء الواسعة وحيدة تفصلها أميال عن المدن البهيجة ... »

وتتصاعد حدة السخط على النظام السياسى الشمولى لدى بعض الكتاب الى درجة السخط على الحياة الانسانية

عامة ، فتبرز فى أعمالهم الجوانب القاسية فى الحياة على الأرض فتبدو مغرقة فى الكآبة والسوداوية . ومن امثلة هذا النوع من القصص الخوف لجمال ميز صادقى ، تصور هذه القصة عالمين يسيران فى خطوط متوازية وفى اتجاه واحد : عالم الكبار وهو العالم الحقيقى بما فيه من كوارث وحروب مفجعة ومجاعات كما يحكى والد الطفلة نقلا عن الصحيفة ، فينحى الوالد الصحيفة جانبا ليفسح المجال لعالم آخر من خلال عيون طفلته المريضة ، وهو عالم قوامه الطفولة والقسوة ، فالطفلة مريضة ومسرح الأحداث عيادة طبيب أطفال ، والطفلة عرضة لقوة كبرى تفترس براءتها هى المرض ، ومن ناحية أخرى تفزع الطفلة لمرأى الوحشية كسمة من سمات العالم الأرضى متمثلة فى سمكة كبيرة وعدة أسماك صغيرة فى حوض لأسماك الزينة ، وبلا سبب تعتدى السمكة الكبيرة على السمكات الصغيرة وتقتلها دون رحمة ، واذا ما نظرنا الى الحوض وأسماك الزينة على أنها رموز يقصد بها الكاتب معانى خفية فربما كان الحوض هو العالم الأرضى يعتدى فيه القوى على الضعيف دون سبب ، بل وربما قصد الكاتب هذا المعنى على المستوى الدولى كالعلاقة بين القوى العظمى والدول الصغيرة ، على أية حال فالقصة تحمل فى ثناياها وعلى أى مستوى رمزى أو واقعى السخط على فكرة الصراع غير المتكافىء فى الدنيا .

وتمتد فكرة السخط على النظام السياسى الجائر والحياة الانسانية الى مستوى أعلى لتشمل السخرية من النظام الكونى واقعه وغيبه كما نرى فى التدريس فى ربيع بهيج لبهرام صادقى ، يتدخل الكاتب فى هذه القصة بصوته كراوية للأحداث يدعو القراء الى مشاركته خياله ، فيتخيل مدرسة لها ناظر ومدرسون وطلاب ، يتوافد المدرسون على الفصل الذى تدور به أحداث القصة الخيالية ، ويختلف الطلاب بين مواظب ومهمل ، وفى النهاية يخضعون جميعا لاغراء الفتاة الحسناء الا شيخ متهدم لم يمنعه من الخضوع لها الا كهولته ، ونعلم أن هناك ضبابا بين المدرس والطلاب لا ينقشع الا فى نهاية القصة حيث يكتشف المدرس أن الطلاب جميعا قد ملوا حديثه وذهبوا فى أثر الحسناء الا الشيخ ، فيبدأ المدرس فى استجوابه .

تنتمى هذه القصة الى نوع من الموضوعات الفلسفية الرمزية التى اقبل عليها عدد لابأس به من كتاب القصة الايرانيين المحدثين ، وجدير بالذكر ان بهرام صادقى لم يكن أول من كتب هذا النوع من القصص ، فقد كتب صادق جوبك قصة مشابهة عنوانها القفص (من مجموعة عنترى كه لوطيش مرده بود ، ١٩٤٩) تحكى عن قفص دجاج يفتح بابه من حين الى آخر وتمتد يد ضخمة وتخرج بأحد الديكة أو احدى الدجاجات لذبحها أمام أعين الأخريات ، انه صراع بين الانسان وقوى أكبر منه ولا يسعه فيها الا

الاستسلام ، وهى فكرة تسيطر على كثرة من القصاصين المحدثين ٠

فترة ما بعد ثورة ١٩٧٩ :

أما عن تطورات عالم القصة القصيرة فى أعقاب ثورة ١٩٧٩ فليس بين يدى سوى قصة واحدة حصلت عليها من أستاذى الجليل بروفسر / جرنوت وندفور أستاذ اللغة والأدب الفارسى بجامعة ميشيغان بالولايات المتحدة الامريكية ، وهى قصة **بزرك بانوى روح من** (مليكة روحى) التى كتبتها الكاتبة القصصية كلى ترقى (١٩٣٩ —) فى صيف عام ١٩٧٩ أى بعد شهور قليلة من استقرار السلطة فى يد الثوار واعلان الجمهورية الاسلامية الايرانية ٠

تحكى القصة عن أستاذ جامعى يعايش الأحداث فى الشارع الايرانى فى أيام عنفوان الثورة ، ويصور التضارب الشديد فى مواقف الناس من حوله متمثلين فى أفراد أسرته وأصدقائه وجيرانه وهو نفسه ، ففى حين ينشغل والده بالبحث عن الزبيب لصنع العرق الذى يفضله تعجل زوجته بتعلم قواعد الصلاة والدين وترديد آراء الثورة ، وبينما يؤمن ولده بالشيوعية ويبشر بقيام ثورة « حقيقية » أخرى غير الثورة الدينية تهيم ابنته حبا بشخص مجهول وتفرط فى الطعام ، أما صديقه الشاعر فلايزال هائما فى شاعريته الحالمة و « فجأة يتذكر الله » ، والبطل نفسه بين أولئك

جميعا مناهض للثورة وهارب من جحيم الأحداث الى حلم يراوده ، فيرى فى منامه يوتوبيا أو دارا مثلى « تخلو ... من منطق العلية وحســـاب اللحظات ، من آداب الحياة الصحيحة وأسلوب الوجود ، بعيدا عن ســـيطرة المادة والحتمية التاريخية والحقيقية المطلقة للمثل ... » ، وفى أثناء استغراقه فى « أيام الغليان الآتية » تلوح صورة الدار المثلى أو مدينته الفاضلة فى مخيلته من جديد .

تعبر الكاتبة من خلال قصتها عن حالة احباط تعانيها فلا تملك حيالها الا الاستغراق فى مثالية حالمة ، وهذه النظـرة اليوتوبية نجدها فى كثير من الأعمـــال الأدبية الفارسية المعاصرة والحديثة نتيجة لحالة الاحباط المتكررة على الصعيد السياسى فى ايران منذ أواسط القرن التاسع عشر وحتى الوقت الراهن ، وتستخدم الكاتبة زمن المضارع فى سرد قصتها مما يضفى على الأحداث سمة الحالية والتواتر السريع ، ويدعم هذا التواتر والسرعة التكنيك الذى استخدمته الكاتبة فى تداخل السرد الوصفى والحوار المباشر، فهى تصف الطبيعة وتتبعها بحوار بين الشخصيات ثم تستأنف وصف الطبيعة أو الحلم وتعود مرة أخرى الى الحوار وهكذا حتى نهاية القصة مما يعزز جو الاضطراب، الخارجى والداخلى ، ويمتزج فيها الواقع الاليم بالخيال البهيج .

ورغم ذلك فلاشك أن الوقت لايزال مبكرا للحكم على

الأدب فى عهد الثورة الأخيرة واتجاهاته وتوجهاته من حيث الشكل أو المضمون ، ونقدم فى الصفحات التالية نماذج مترجمة للقصة القصيرة ، وقد تم اختيارها على أساس التسلسل الزمنى كنماذج لتطور هذا الفن الأدبى فى فترات متتالية ، وأيضـــا على أســـاس التباين فى الموضوعات والأساليب منذ بداية ظهور القصة القصيرة الحديثة فى العقد الثالث وحتى أواخر السبعينيات ، وقد روعى فى ترجمة هذه النماذج ان ترد الصيغ اللغوية فى النصوص كما هى فى متنها الأصلى ، فما كان فى المتن الفارسى فصيحا ترجم بما يقابله فى العربية الفصحى وما ورد بصيغته العامية ترجم الى مايقابله فى العامية المصرية وذلك بهدف الحفاظ على روح النص الأصلى قدر الامكان ٠



الهوامش

(١) Reid, Ian. The Short Story. PP. 15 — 6.

(٢) المرجع السابق ، ص ٩ ٠

(٣) George, Albert. Short Fiction in France., P. 239.

(٤) سمرقندى ، نظامى عروضى ، **جهار مقالة** ٠ مقاله أول ص ٢١ ــ ٢٢ ، نقلا عن خريرى ، فارس ابراهيمى : **مقامة نويسى** . ص ١٣٥ ــ ١٣٦ ٠

(٥) بهار ، محمد تقى : **سبك شناسى** ٠ ج ٣ ، ص ١٢٥ ٠

(٦) حريرى ، فارس ابراهيمى : مقامة نويسى ، ص ١١٦ ٠

(٧) بهار ، محمد تقى : **سبك شناسى** حـ٣ ص ١٢٦ ٠

(٨) Zafarzada, Masud. «The Persian Short Story since the second WW. : An Overview».

(٩) بدأت صحيفة **كاوه** فى برلين عام ١٣٣٥/١٩١٦ ، وكانت تصدر باللغة الفارسية لتمثل وتتحدث باسم الحركة الموالية

لألمانيا بين القوميين الايرانيين ، وكان يرأس تحريرها حسن تقيزاده ، فى البداية كرست هذه الصحيفة جهودها للقضايا السياسة ، ولكن منذ يناير ١٩٢٠ وما تلاه (وهو ماسمى باسم « دورة جديد ») تحولت كاوه الى الأدب وقضاياه تماما . فنشرت مقالات قيمة عن تاريخ الأدب الفارسى ، كما أسست كاوه دارا للنشر خاصة بها وهى دار كاويانى وحفظت الثقافة الفارسية فى الخارج الى أن أصبحت واحدة من أهم نقاط ارتكاز الحركة الأدبية الفارسية .

Kubickova, Vera. «Persian Literature of the 20th Century», P. 373.

(١٠) صدرت الطبعة الأولى عن كاوه عام ١٩٢٢ فى ١٥١ صفحة ، وأعيد طبعها عام ١٩٤١ فى ١٢٨ ص ، وللمرة الثالثة عام ١٩٤٨ (شركت سهامى جاب) فى ١٣٥ ص ، وطبعة رابعة ١٩٤٨ ، وطبعة خامسة (ابن سينا) عام ١٩٥٤ فى ١٥٩ ص ، وطبعة سادسة (كانون معرفت) عام ١٩٦٠ فى ١٥٣ ص ، وطبعة تاسعة ١٩٦٥ .

(١١) ترجمة هذه المقدمة الأدبية بالجزء الثانى من هذا الكتاب .

(١٢)
Daragahi, Haideh. « The Shaping of the Modern Persian short story : Jamalzadih's «Preface» to Yiki Bud Yiki Nabud.» P. 18.

(١٣) ولد دهخدا (١٨٧٩ ـ ١٩٥٦) وتعلم فى تهران ، وقضى عامين فى فيينا لتعلم اللغة الفرنسية وفى أوائل هذا القرن تعاون مع ميرزا جهانكير خان وميرزا قاسم شيرازى فى نشر صحيفة **صوراسرفيل** وهى من أهم صحف العهد الدستورى ، وفى أثناء

منفاه بأوربا استمر فى نشر هذه الصحيفة هناك . ونشر أيضا صحيفة **سروش** باسطنبول ، ومن بين أهم انجازاته الأدبية موسوعة **لغت نامه** الفارسية وكتابه ذو المجلدات الأربع عن الأمثال الفارسية وعنوانه **أمثال وحكم** .

-- Bashiri Iraj. The Fiction of Sadeq Hedayat. P. 136

(١٤) Green, John. The Modern Persian Short Story.

رسالة دكتوراه بجامعة ميشتيجان ، وقد وردت ترجمة انجليزية لبعض مقالات **جرنديرند** فى كتاب براون .

— E.G. Browne. Literary Histroy of Persia.

المجلد الرابــع .

(١٥) Kubickova, V. «Persian Literature of the 20th Century». P. 389.

(١٦) قام المؤلف بعمــل رســالته للدكتوراه تحت عنوان « **الرواية الاجتماعية في ايران منذ ١٩٠٠ الى ١٩٤١**

(The Persian Social Novel 1900 — 41)

بجامعة ميشيجان / آن آربر بالولايات المتحدة عام ١٩٨٨ (٢٣٢ صفحة) .

(١٧) من الشعراء البــارزين تناول بهار وعارف قزوينــى وبروين اعتصامى الموضوعات والمسائل السياسية عن طريق الرمز ومع ذلك توقفوا تماما عن النشر حين زادت الأمور حدة والنظام بطشا ، ففر لاهوتى بعقيدته الى الاتحاد السوفيتى ، وأصيب سيد أشرف نسيم شمال بالجنون بينما اختار عارف العزلة التامة فى أواخر سنى حياته ، وكان اغتيال الشاعر عشقى عام ١٩٢٤ عبرة للآخرين .

(١٨) بينما امتدت فترة صمت جمالزاده مدة عشرين عاما ـ وهى تنطبق تماما على مدة حكم رضا شاه ـ اضطر الكاتب الايرانى صادق هدايت (١٩٠٣ ـ ١٩٥١) الى اللجوء الى الهند لنشر عمله الأدبى الشهير **بوف كور** (الزاهد ، ١٩٣٧) خوفا من بطش الرقابة داخل ايران فى ذلك الوقت .

— Mashiah, Yaakov. «In Search of an Insane Universe» P. 156

(١٩) قضى بزرك علوى ـ مثل جمالزاده ـ عدة سنوات فى أوربا حيث تلقى جزءا من تعليمه الثانوى والتعليم الجامعى بالمانيا حيث تأثر بالمدرسة الفرويدية فى التحليل النفسى ، وحين عاد الى ايران اعتقل بين الأعوام ١٩٣٧ ـ ١٩٤١ بتهمة القيام بأنشطة شيوعية وبمخالفة القوانين التى استنها نظام رضا شاه ضد الشيوعية والترويج لها . وكان بزرك علوى فيما بعد من مؤسسى حزب توده الشيوعى الايرانى ، وفى أعقاب الاضطرابات السياسية التى شهدتها أوائل الخمسينات عاد الى أوربا حيث يعيش الآن ويعمل بالتدريس بجامعة هامبولت بالمانيا الشرقية

— Jazayery, M.A. «Modern Persian Prose Literature». P. 260 — 1.

والمجموعات القصصية التى أصدرها علوى هى :

ـ جمدان (الشنطة) ١٩٣٤

ـ ورق پاره هاى زندان (مذكرات السجن) ، ١٩٤١

ـ نامه ها (الرسائل) ، ١٩٥٢

ـ ميرزا ، ١٩٧٨

ـ ديو ! ، ديو ! .. (العفريت ! ، العفريت ! ...) ١٩٧٩

(٢٠) Green, John. The Modern Persian Short Story., P. 4

(٢١) ولد صادق هدايت بتهران اعم ١٩٠٣ لأسرة موسرة ، وقد آرسله والده للدراسة بفرنسا حيث قضى شطرا من حياته ، وقد مات منتحرا بباريس ١٩٥١ ، ويعد هدايت أشهر كتاب ايران المعاصرين ، فكتب عنه الكثير من الكتب والترجمات والدراسات بمختلف لغات العالم ، وقد عبر فى كتاباته صراحة عن عدائه للاسلام والتأثير الثقافى العربى فى الثقافة الايرانية فكان يعد داعية لكل ما كان يعتبره خاصا بالثقافة الايرانية « الخالصة » كاحياء التراث القديم ودراسة اللغة البهلوية القديمة وجمع مواد من تراث ايران الشعبى . فكان رائدا لحركة فنية وأدبية امتد تأثيرها الى العقود التالية ·

وتشمل مجموعاته القصصية ما يلى :

- زندة بكور (مدفون حى) ، ١٩٣٠
- سه قطره خون (ثلاث قطرات من الدم) ، ١٩٣٢
- سايه روشن (الظلال) . ١٩٣٣
- سك ولكرد (الكلب الضال) ، ١٩٤٢
- مجموعة نوشته هاى براكنده صادق هدايت (مجموعة كتابات صادق هدايت المتفرقة) ، ١٩٥٥ - ٦ ·

— Green, John. The Modern Persian Short Story., PP. 5, 211 — 2.

وقد ألحق كامشاد بكتابه قائمة بالأعمال الكاملة لصادق هدايت :

— Kamshad H. Modern Persian Prose Literature, 1960 London.

(٢٢) Green, John. The Modern Persian Short Story., P. 6.

(٢٣) Dorri, J., «The Satire of Sadeq Chubak». P. 106

ولد صادق جوبك فى بوشهر عام ١٩١٦ وتلقى تعليمه الأولى فى تلك المدينة ، وحين انتقل والده الى شيزار التحق بمدرسة حيات بتلك المدينة ، ثم التحق بكلية ألبرز وهى كلية أمريكية بتهران ، وفى عام ١٩٣٧ التحق بوزارة التعليم وبدأ حياته العملية ، ومن أعماله فى مجال القصة القصيرة ما يلى :

ـ خيمه شب بازى (خيال الظل) ١٩٤٥

ـ انترى كه لوطيش مرده بود (القرد الذى مات صاحبه) ، ١٩٤٩

ـ روز أول قبر (أول ايام القبر) ، ١٩٦٥

ـ جراغ آخر (المصباح الاخير) . ١٩٦٦

(٢٤) وأعمال آل أحمد القصصية القصيرة هى :

ـ ديد وبازديد (التزاور) ، ١٩٤٦ ، (١٢ صفحة)
ـ از رنجى كه مى بريم (من آلامنا التى نعانيها) ، ١٩٤٧ ، (٧ قصص)

ـ سه تار ، ١٩٤٩ ، (١٣ قصة)

ـ زن زيادى (امرأة غير مرغوب فيها) ، ١٩٥٢ ، (٩ قصص)

ـ بنج داستان (خمس قصص) ، ١٩٦٩ ،

(٢٥) براهنى ، رضا · قصة نويسى · الطبعة الثـــــانية ، تهران ، أشرفى ، ١٩٦٩ ، ص · ٤٤٢ ـ ٤٤٣ · نقلا عن :

— Michael C. Hillmann. «Al-e Ahmad's Fictional Legacy P. 332 — 3.

(٢٦) Zafarzadeh, Mas'ud. «The Persian Short Story since the Second World War». P. 151.

(٢٧) المرجع السابق ص ١٢٢

(٢٨) المرجع السابق ص ١٥٣

(٢٩) Green, John. **Modern Persian Short Story** P. 13.

(٣٠) Southgate, Minoo. (ed.) **Modern Persian Short Stories.** P. X.

(٤)

فارس شكراست

كحكاية مقامية

تحليل أدبى من منظور آخر

ينظر معظم نقاد الغرب الى الأدب الفارسى الحديث باعتباره ينحدر بصورة مباشرة عن الأدب الغربى ، وقد تبعهم فى زعمهم هذا معظم نقاد الأدب الايرانيين بدورهم ، ونتيجة لذلك فان أى عمل أدبى فارسى منذ الفترة السابقة للعهد الدستورى تقوم فى نظر هؤلاء النقاد من منظورين محددين ضيقين : أى نوع أدبى أوربى يندرج تحته العمل ، والى اى مدى روعيت فى بنائه المعايير الأدبية الأوربية ، ومن ثم فقد حشـــر كل عمـــل أدبى فارسى تعسفا فى اطار أدبى أوربى أو آخر دونما اعتبار للاشكال والأطر الأدبية الشرقية الأصيلة .

أهدف فى مقالى هذا الى بيان منظــــور اخر للأدب الفارسى الحديث بصورة عامة والقصصى بصورة خاصة، متخذا من **فارسى شــــكراست** لمحمد على جمالزاده وهى أولى حكايات مجموعة **يكى بود ويكى نبود** (كان ياما كان، ١٩٢١) كمثال تطبيقى لهذا المنظور التحليلى ٠

تدور الحكاية فى **فارسى شكراست** (الفارس سكر) حول مثقف ايرانى عائد من أوربا فى زيارة لأرض وطنه ، فيهبط بميناء انزلى حيث ينتقد ويسخر من الأوضــــــاع المتدهورة بالميناء كجزء من التدهور العام الذى شـــهدته البلاد فى ذلك الوقت ، ويؤدى تعســــف رئيس الجمارك واستبداده بالمثقف الى الحبس المؤقت بسجن الميناء ، وفى زنزانته يلتقى المثقف بشخصين يمثلان فى الحكاية طرفى نقيض بالمجتمع الايرانى ، وبعد برهة يلحق بثلاثتهم رابع يلقى به من باب الزنزانة الى داخلها وهو « رمضان » البطل وهو ساق رقيق الحال بمقهى الميناء ، يدور حوار بين البطل ـ رمضان ـ وكل من الأشخاص الثلاثة ، ويقوم التوتر فى الحكاية على عدم قدرة البطل على فهم أسلوب الحديث بالفارسية لدى اثنين من النزلاء ، فيحاول المثقف أن يقنع البطل بأن الآخرين يتحدثان الفارسية أيضا ولكن بأساليب مختلفة ، ويطلق سراح الأشخاص الأربعة ، وفى حين يبقى البطل بالميناء يغادر المثقف والشخصان الآخران المكان ، وفى الطريق يرى المثقف رئيسا جديدا للجمارك متجها صوب الميناء ٠

يرى كل النقاد تقريبا فيما يشبه الاجماع أن محمد على جمالزاده هو الكاتب الذى قدم القصــــة القصـــيرة كفن قصصى أوربى الى الأدب الفارسى ، ويعتبرون هذه الحكاية على وجه الخصوص - **فارسى شكراست** - أول أعماله فى هذا النوع الأدبى ، وأرى من جانبى أن **فارسى شكراست** لا تنتمى الى القصة القصيرة الأوربية تماما بل تندرج تحت نوع المقامة أو قصص الصعاليك فى آداب الشرق الاسلامى، أو بعبارة أخرى فان **فارسى شكراست** أقرب الى المقامة التقليدية المحلية منها الى القصة القصيرة الأوربية ٠

ظهر فن المقامة فى الأدب العربى فى القرن العاشر الميـــلادى على أثر ظهور مجموعة **مقامات بديع الزمان الهمذانى** (توفى عام ١٠٠٨) ، وقد نشـــأت فى الأدب العربى كثورة على النفاق وازدواجية القيم بشكل عام فى المجتمع العربى وكدعوة الى الاصلاح الاجتماعى ، وكل وحدة مقامية هى حكاية قصيرة مستقلة كاملة تنسج حول شخصيتين خياليتين ، أحدهما نموذج للشـــخص الظريف المغامر الا أنه بطل عاجز لا بطولى يطوف العالم الاسلامى بحثا عن المعرفة ، والآخر « راوى » ٠

تحتوى **فارسى شكراست** على كل العناصر الأساسية للمقامة تقريبا :

١ - الاطار القصصى والبنية العامة ٠

٢ - البناء الهامشى للشخصيات ٠

٣ ـ شخصيتا الراوى والبطل وما بينهما من علاقة تلميذ بأستاذه أو خادم بسيده ٠

٤ ـ اللغة كعنصر أساسى وكموضوع بالحكاية ٠

٥ ـ الاصلاح الاجتماعى كغرض أساسى ٠

٦ ـ السخرية كتكنيك أساسى ٠

٧ ـ النهاية المفتوحة ٠

يحدد الناقد الأدبى عبد الفتاح كيليتو(١) خطـــوات محددة تتبعها بنية الحكاية فى فن المقامة وتتمثل معظمها بصـــورة شبه ثابتة فى تكنيك كل مقامة فى حين يختلف الموضوع من مقامة الى أخرى وهذه الخطوات هى :

(أ) الراوى يحل بمدينة ٠

(ب) الراوى يتعرف على بطله ٠

(ج) البطل يستعرض بلاغته أو ذكاءه ٠

(د) الراوى يلوم بطله على التخفى أو الاحتيال ٠

(هـ) البطل يبرر موقفه ٠

---

(١) Kilito, Abd el Fattah. «Le genre «Séance» : Une introduction», in : **Studia Islamica**, 43 (1976), PP. 25 — 51.

(و) الراوى يغادر المدينة أو المكان ويترك البطل وحده ٠

حين نطبق هذه البنية القصصية الموحدة فى التتابع المتباينة فى الموضوع على حكاية **فارسى شكراست** نجد ما يلى :

(أ) الراوى ويقوم بدوره المثقف الذى يفد من أوربا الى ايران ويهبط بميناء انزلى ٠

(ب) يتعرف الراوى ببطله رمضان فى زنزانة الجمرك ٠

(جـ) يعبر رمضان عن احساسه بالظلم مستخدما أسلوبا فارسيا « خالصا » من لغة الحوار اليومى ٠

(د) المثقف يلوم البطل على سوء فهمه لأسلوب حديث النزيلين الآخرين وهما الفارسية المعربة لدى الشيخ والفارسية المفرنسة لدى المتفرنج ٠

(هـ) البطل يبرر احباطه بغموض لغتى حديث النزيلين ٠

(و) بعد اطلاق سراحهما يرحل الراوى ورمضان ، فيغادر الأول الميناء بينما يبقى الآخر ٠

٢ ــ بناء الشخصيات : فيما عدا الشخصيتين الأساسيتين وهما الراوى والبطل لا يتم التركيز على تكوين الشخصيات كعنصر أساسى فى فن المقامة ، يلتقى البطل فى هذا الفن بالعديد من الأشخاص توظف فى مشهد أو اثنين ثم تختفى ٠

والبطل فى فارسى شكراست هو رمضان وليس المثقف كما يبدو لأول وهلة ، أما المثقف فهو الراوى ، وينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار كذلك أن البطل هو الشخصية الوحيدة المميزة باسم علم فى الحكاية ، أنه بطل مقامى أصيل ، فهو شاب فقير يعانى من ضربات القدر وظلم الآخرين ، فيلقى به مأمور الجمرك فى السجن لغير سبب بين ، ويتضح اضطرابه النفسى من خلال خوفه من النزلاء الذين يستخدمون فى لغتهم الفارسية ألفاظا « غريبة » على سمعه من اللغتين العربية والفرنسية والتركية ، وفى الوقت نفسه يستخدم البطل كأداة لانتقاد بعض العيوب الاجتماعية وعلى الأخص تباين الأساليب اللغوية بين مختلف فئات الشعب مما يفرق بين الطبقات ويعرض الوحدة والتماسك الوطنى للخطر ، فتبرز مشكلة التباين فى أساليب الحديث بالفارسية كعرض من أعراض مشكلة أكبر واجهت المجتمع الايرانى فى أثناء الفترة الدستورية وما تلاها ألا وهى انقسام المجتمع بين التقليدية والحداثة بين القديم والجديد ، بين الأصيل والوافد .

واذا كانت شخصية المثقف (بلا اسم) تؤدى دور الراوى فى الحكاية المقامية وتقابل شخصية عيسى ابن هشام فى مقامات بديع الهمذانى فان شخصية رمضان ترادف شخصية البطل أبى الفتح الاسكندرى ، أما الشخصيات الهامشية فهى رجل الدين (بلا اسم ولكنه يدعى باسم « الشيخ ») والمتغرب (أيضا بلا اسم ويدعى

« المتفرنج ») • والحمالون بالميناء وحراس السـجن وشخص من سلماس وآخر من اسطنبول ، ويقتصر دور هذه الشخصيات على عبارات موجزة دون مشاركة فعالة فى الأحداث ، ورغم أهمية شخصيتى الشيخ والمتفرنج فى القصة الا أنهما لا يشاركان فى الأحداث الا فى حدود ما يمثله كل منهما ، أى أسلوب حديث كل منهما ، فيمثل الشيخ ضربا من ضروب اللغة الفارسية مطعما بوفرة من الألفاظ والتعبيرات العربية الأصل ، ويمثل المتفرنج اللغة الفارسية المطعمة بألفاظ فرنسـية ، أما البطل فيتحدث الفارسية الدارجة « الخالصة » ، ويقف الراوى بين ثلاثتهم كمثقف يجمع بين الأصيل والوافد ويلم بمختلف أساليب اللغة الفارسية الا أنه يتحدث اللغة « الخالصة » ويدعو الى تبنيها من جانب كل الايرانيين باعتبارها عنصـرا رئيسيا يجمع بين مختلف طوائف المجتمع •

٣ ـ يقوم الراوى بدور الأستاذ الذى يوجه تلميذه « ويهديه » ، فيرشده الى أن النزلاء الآخرين ، ليسوا بجن ولا مجانين ، بل « اخوة ايرانيون » وأن اللغة « التى يتحدثونها هى أيضا فارسية •• » ، ويسعد البطل بدوره بوجود رفقة يسهل فهمها كشخصية المثقف الذى « أرسله الله استجابة لدعواتى » •

٤ ـ تمثل اللغة جزء جوهريا من الحكاية وهى سمة من سمات المقامة بشكل عام ، فاظهار الفصاحة والمهارة

فى استخدام اللغة العربية يمثل هدفا رئيسيا فى فن المقامة، وفى فارسى شكراست تقوم الحكاية أســـاسا على اللغة الفارسية والتباين بين أساليب الحديث لدى فئات المجتمع الايرانى ، وباظهار مهارة رمضان فى استخدام فارسية « خالصة » يستهجن كل من الأسلوبين الفارسيين المتعرب والمتفرنس وتبرز الدعوة الى اصـــلاح لغوى يوحد بين مختلف الأساليب ويتمثل فى الأسلوب « المحلى » .

٥ ـ اذا كان الاصلاح الاجتماعى أمرا جوهريا تقوم عليه الحكاية المقامية من الناحية الموضوعية فان اصلاح اللغة يبدو كموضوع رئيسى فى حكاية فارسى شكراست باعتباره دعامة من دعامات حفظ الهوية الايرانية المحلية .

٦ ـ يستخدم الهزل فى القصـــة كأداة للاصـــلاح الاجتماعى ، فتوضع شخصيتا كل من رجل الدين والمتفرنج موضع الســـخرية باعتبارهما نموذجين لفئات اجتماعية تشذ عن الكيان الاجتماعى العام ، فيمثل مظهر رجل الدين ولكنته العربية الاتجاه التقليدى ، ويمثل المتفرنج بلغتـــه المفرنسة اتجاه التغريب ، وبين هذين النقيضين يمثل البطل الهوية الايرانية « الحقيقية » حسب رأى الكاتب .

٧ ـ وقد تركت نهاية القصة أيضا مفتوحة ، فيرحل الراوى بينما يظل البطل فى الميناء وفى الطريق يرى الراوى مأمور جمارك جديد فى طريقه نحو الميناء ، وهكذا يبرز

احتمال أن يخضع البطل لجولة جديدة من الظلم والحبس على يد المأمور الجديد مما يعنى مغامرة جديدة للصعلوك ·

وهكذا تشترك **فارسى شكراست** مع فن المقامة فى كل عناصرها الأساسية ، ولمزيد من الايضاح نتخير احدى مقامات الهمذانى كمثال ، فى **المقامة القريضية** تبدأ القصة بالراوية عيسى بن هشام يحكى وقائع رحلة له الى جرجان الأقصى ، حيث بدأ تجارة وقد جعل من حانوته مقصدا لتدارس الشعر ، وذات يوم جلس عيسى مع جماعة من رفاقه « نتذاكر القريض وأهله وتلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد ينصت وكأنه يفهم ويسكت وكأنه لا يعلم ، حتى اذا مال الكلام بنا ميله ، وجر الجدال فينا ذيله ، قال : قد أصبتم عذيقه ، وأوفيتم جذيله ، ولو شئت للفظت وأفضت ولو قلت لاصدرت وأوردت ، ولجلوت الحق فى معرض بيان يسمع الصم »(١) · وهكذا يعرض الشاب فصاحته ويدلل على تفوقه فى مناظرة الجماعة فى الأدب واللغة ، ثم يقول عيسى بن هشام : « فأنلته ماتاح ، وأعرض عنا فراح ، فجعلت أنفيه وأثبته ، وأنكره وكأنى أعرفه ، ثم دلتنى عليه ثناياه ، فقلت : الاسكندرى والله ·· »

---

(١)مقامات بديع الزمان الهمذانى · شرح محمد عبده ، ص ١ ، ٢ ، الدار المتحدة للنشر بيروت ، ١٩٨٣ ·

فى هذه المقامة نجد الراوية عيسى بن هشام — وبطله أبا الفتح الاسكندرى يجتمعان دون أن يدرك الراوية حقيقة بطله المتخفى ، وكذلك فى حكاية **فارسى شكراست** نجد الراوية — الشاب الايرانى المثقف — وبطله رمضان يجتمعان فى السجن دون سابق معرفة ، وبينما يشارك بطل المقامة فى مناظرة شعرية أمام جماعة تضم الراوى ، ينشغل بطل **فارسى شكراست** بأمور اللغة مع سائر نزلاء الزنزانة بما فيهم الراوى ، واذ يدرك عيسى بن هشـــام حقيقة بطله المتخفى ، يدرك الايرانى المثقف مدى « أصـــالة » بطله رمضان ولغته الفارسية الخالصة ٠

* * *

(٥)

المقدمة الأدبية لمحمد على جمالزاده

(مقدمة مجموعة يكى بود ويكى نبود ، ١٩٢١)

صار الحديث عن الاسكندر عتيقا
هات جـــديد فللجـــديد طلاوة
« فرخى »

ان ايران المعاصرة قاصرة عن اللحاق بأغلب شعوب الدنيا فى مضمار الأدب ، ففى سائر الشعوب طرأ العديد من التغييرات على الأدب بمرور الزمن ، وقد انعكس شعاع هذه التغيرات على روح طبقات الأمم كلها ، فرغب كل انسان من نســـاء ورجال وأغنياء وفقراء ، من التلاميذ الصغار الى الشيوخ الكبار فى القراءة مقبلين عليها ، مما كان باعثا على السمو بمعنويات أفراد الأمم ، أما فى ايراننا فقد عد الخروج عن طريق الأولين هدما للأدب ،

وعلى أية حال فان روح الاستبداد السياسى الايرانى الذى طبقت شهرته الآفاق قد انعكس على الأدب أيضا ، أى أن الكاتب حين يمسك بقلمه يضع نصب عينيه جماعة الأفاضل السابقين والأدباء الأولين ولا يعر أى التفات الى سواهم ، وحتى أولئك الذين يتقنون القراءة والكتابة ويســـتطيعون قراءة الكتابات المبسطة غير المتكلفة ويفهمونها حق الفهم وهم كثر لا يكلفون أنفسهم الاطلاع عليها ولا يقربون كل ما يمت « للديمقراطية الأدبية » بصلة ٠

ولاشك أن المرء ليأسف لذلك الأمر خاصة فى دولة كأيران حيث حال الجهل وتعامى بعض الناس دون المضى خطوة الى الأمام على طريق التقدم ، ان أولئك الذين لهم نصيب من العلم والمعرفة قد وضعوا أقدامهم على طريق كشف الحقائق وسعوا فى سبيل كسب قوتهم الروحى ، أما من حق عليهم القول « كالأنعام بل هم أضل » فسيظلون حتى قيام الساعة يتخبطون فى جهلهم وذلتهم وظلماتهم حيارى لا يهتدون اذا لم يأخذ البعض بأيديهم ويرعاهم ٠

كانت هذه الأفكار باعثا فى أغلب الدول المتحضـــرة على انشاء التعليم العام الاجبارى ، فأراد أرباب العلم والبصيرة والفضل للعامة أن يحوزوا من درجات العلم والمعرفة نصـــــيبا ، أما اذا لم يفكر أهل العلم فى ذلك متصورين ان العامة سيسعون بأنفســـهم الى ادراك ما للمعرفة من فوائد وينشطون للعلم والتحصيل ولا حاجة

لأن يبذل الجهد وما عز من الوقت فى هدايتهم فالله وحده يعلم متى يقضى الله للعامة بادراك ذلك ٠

ولو كان هذا صحيحا لكان كافة الايرانيين الآن قد محيت أميتهم ، ولما كانت نسـبة القادرين على القراءة والكتابة واحدا بالمائة حسبما يجرى الظن ، بل لكان ثلث شعب ايران أو ربعه غير أميين ، فى حين أن كلا منا نحن معشـر الايرانيين يعـرف عددا من الأعيان وكبار التجار وذوى المكانة من بنى قومنا ممن لم يكلفوا أنفسهم مشـقة بذل شهر واحد من وقتهم فى سبيل تعلم القراءة والكتابة الى الآن رغم توفر السبل أمامهم الى ذلك ٠

ولايزال حملة الأقلام فى بلدنا يستبعدون العامة من أذهانهم حين يكتبون ، فيدورون حول نفس الأساليب العتيقة التى لا يفهمها الناس ، فى حين أن الكتابة المبسطة غير المتكلفة والمفهومة لدى الناس قد غلبت على كافة الأساليب الأخرى فى الدول المتقدمة التى امسكت بزمام الرقى فى يدها ، ورغم أن مواطنى تلك الدول قد درسوا بالمدارس ويعرفون القراءة والكتابة ولا يعجـزهم فهم ما شق من الأساليب الا أن الأسلوب السهل هو المستحسن عندهم ، ويسعى كتابهم دوما الى الباس اللغة الدارجة لأهل السوق والحارات بما تحويه من تعبيرات واصطلاحات شـائعة لباسا أدبيا ويزينونها بالبلاغة على الورق ، بل ويحاول كبار علمائهم أن يدونوا كتاباتهم بلغة ميسرة قدر الامكان ، كما

أن كثيرا منهم يقدمون الحقائق فى صورة حكايات لتيسير فهم الموضوعات العلمية ، ومثالنا على ذلك « فلاماريون » عالم الفلك الفرنسى الشهير ومن أشهر علماء العصر الحاضر وقد أخرج العديد من المسائل الهامة فى علوم الهيئة والفلك والرياضيات فى ثوب رواية أو حكاية ، وقد ترجمت هذه الحكايات الى معظم لغات العالم وحازت القبول وعممت الفائدة ، بينما لو أراد أن يوجه كلامه الى أنداده لوفر على نفسه الوقت ، ولكن صوته ما كان ليصل الا الى عدد معدود من العلماء المهتمين بعلوم الهيئة والنجوم ، واليوم قد ملأ صوته أسماع الدنيا وأضفى المتعة الى نفوس ملايين من البشر بمعرفة أسرار الطبيعة وخفايا الخليقة .

ان المرء اذا ما نظر الى الأدب الأوربى المعاصر لظن لأول وهلة انه قد أضحى فريسة التدهور والانحطاط لوفرة الروايات التى تشكل غالبيته ، والحقيقة أن رقى الأدب لم يبلغ ما بلغه اليوم فى أوربا من رقى فى أى عهد أو مكان آخر فى الدنيا ، ونظرة سطحية الى حياة أهل أوروبا التى أصبح الكتاب فيها من ضروريات الحياة مثله كمثل السكين والشوكة والجورب والمنديل تقريبا تكفى للتدليل على ذلك ، ولاشك أن السبب الرئيسى فى ذلك هو يسر الأسلوب الأدبى فى الروايات والحكايات .

بالاضافة الى الفوائد المذكورة فللرواية فوائد هامة

اخرى : أولا هى فى الحقيقة مدرسة لمن لا تترك لهم المتاعب اليومية فى سبيل كسب العيش وقتا أو فرصة للالتحاق بمدرسة أو اتمام دراستهم أو اكتساب النذر اليسير من المعنويات الدائمة التطور ومن لا طاقة لهم ولا مجال لقضاء الليل فى قراءة كتب علمية وفلسفية ، بينما الرواية تقدم لنا الكثير من المعلومات الضرورية والمفيدة بلغة عذبة وأسلوب جذاب ممتع ينعش الروح ويبث الأفراح فينا ، فتغذينا بالمعارف سواء التاريخية أو العلمية أو الفلسفية والاخلاقية ، كما أنها تعرف طبقات الأمة ببعضها البعض حيث تجهل كل طبقة أحوال الطبقة الأخرى وأفكارها وحتى أدق جزئيات حياتها اليومية بحكم اختلاف المشاغل والأعمال والصحبة ، فأبن المدينة مثلا لا يدرى كيف تحمل العروس الى دار زوجها فى القرية وابن القرية لا يعلم كيف تصل نساء المدينة النهار بالليل ، وفقراء المدينة لا علم لهم بشئون الموسرين والأعيان بنفس مدينتهم وكذلك الأغنياء بحال اجرائهم وخدمهم ، وفى ايران لا يصل الى أسماع أهل المدن الكبرى شىء عن أوضاع بعضهم البعض وأخلاقهم وعاداتهم ، فالناس فى « قوتشان » مثلا ربما لا يعلمون كيف يحتفل أهل طهران بعيد الأضحى وما الى ذلك ، فالرواية تعرف فئات الشعب المختلفة وتقربها بعضها الى بعض فتعرف الحضرى بالقروى ، والخادم بالتاجر والكردى بالبلوتشى والقشقائى بالكيلانى والفقيه بالصوفى والمتصوف بالزرادشتى ، والزرادشتى بالبابى والتلميذ بالرياضى والموظف بالبائع ، انها تقرب بينهم وتزيل وتمحو

ما قد ينشأ بينهم من خلافات متعصبة نتيجة جهلهم ببعضهم البعض ، ولمن يريدون التعرف على الحــالات الاجتماعية والداخلية والروحية لسائر الشعوب والدول ولا طاقة لهم على الاطلاع على كتب التاريخ التى لا تشير الا الى حياة الشعب السياسية والعسكرية وبصورة ناقصة لا تكفى ليس هناك أفضل من قراءة الروايات المتعلقة بتلك الدولة وذلك الشعب ، فالشخص الكردى الذى يسكن سفح أحد جبال كردستان يستطيع من خلال الرواية أن يتعرف على الكثير من تفاصيل حياة جزيرة ايســـلانده وعادات أهلها وهى واقعة فى الجانب الآخر من العالم فى وسط المحيط وربما لم تطأ أرضها الى اليوم قدم ايرانى ، والعكس صحيح أيضا ٠

يمكن القول أن الرواية هى أفضل مرآة تعكس أحوال الشعوب والأقوام الأخلاقية وسجاياهم الخاصة ، فللتعرف على الشعب الروسى من بعيد ليس أفضل من قراءة كتب تولستوى ودوستويفسكى ، وللأجنبى الذى يود التعــرف على الايرانيين لا شىء يفوق كتاب حاجى بابا لموريبه أو جنك تركمان وقنبر على لكونت غوبينو ، ولما كان الانسان بوجه عام يميل الى قراءة محتويات الرواية فانه من الممكن بث مختلف ضروب الدعاية « بروباجندا » سياسية وغير سياسية ، فلا شك أن الجزائر مثلا لديها عدد من الكتاب المهرة الذين تشتهر أعمالهم ورواياتهم نفس شهرة روايات سنكيوبتش الهولندى فى أوربا وأمريكا ، كل من رواياتهم

هذه كان لها نفس شأن عدة أفواج من جيش ومئات من الخطب البليغة الغراء حيث اجتذبت تعاطف العالم الى تلك الدولة وشعبها وكانت سندا له وعونا ٠

ومن أهم مزايا الرواية والكتابة الروائية هى الميزة المتعلقة بلغة الأمة ، فمجرد الكتابة القصصية التى تهدف الى تدوين قصة أو حكاية سواء على صورة كتاب أو عمل مسرحى أو رسالة وما الى ذلك يمكن أن تصنع معجما للألفاظ والتعبيرات والأمثال والاصطلاحات ومختلف ضروب الكلام واللهجات فى زمن ما ، بل ويمكن أن تكون وعاء يحفظ لكنات مختلف الطبقات والفئات فى أمة ما ، بينما لاتستطيع الكتابات القديمة (الكلاسيكية) والعلمية وغيرها أن تؤدى هذه المهمة ، فنادرا ما يمكن لهذه الكتابات أن تدل على طريقة استخدام الألفاظ خارج نطاق الألفاظ والاصطلاحات الخاصة بها ، فعلى سبيل المثال نادرا ما يحدث أن يترك شاعرنا فن الغزل والقصيدة وهما أوسع أشكال الشعر انتشارا فى ايران وينبرى ليجمع كل الألفاظ والتعبيرات الخاصة بالنوروز والصيد فى قصيدة أو قطعة عن النوروز والصيد أو غير ذلك ، واذا فرض ان فعل ذلك فانه يضطر الى تنحية جانب هام من الألفاظ والتعبيرات المذكورة مما يتعارض مع الوزن الشعرى والفصاحة وقد أدت محدودية دائرة الكلمات والتعبيرات وما اليها بالأجانب الذين يريدون تعلم اللغة الفارسية عن طريق الكتاب والدرس الى أن يلفظوا لغة بهذه السهولة بطريقة تجعلنا

نحن الايرانيين نغرق فى الضحك ان سمعناها ، فالعثمانيون الذين فرض عليهم تعلم اللغة الفارسـية وتعليمها فى مدارسـهم كانوا يحفظون عددا من الألفاظ المرادفة للفظ « الحبيبة « مثل » دوست » « يار » « دلدار » ، « جانان »، « دلبر » ، « نكار » وغير ذلك لكنهم لم يكونوا يعلمون أن هذه الحبيبة كانت توقد النار بملقاط أو أن ضربة من كفها على وجه متغزل وقح كانت تسمى « صـفعة ») جك ، كشيده) ، حدث أن التقى كاتب هذه السطور بواحد من مشاهير أدباء العثمانيين كان يحفظ عدة آلاف من الأبيات من دواوين شـعراء ايران عن ظهر قلب ورغم هذا كنا نضطر الى عرض حديثنا البسيط باللغة الفرنسية والا ما كان ليفهم فارسيتى وقليلا ما كنت أدرك فارسيته ، وسبب ذلك معروف : عدم توفر كتاب مدون بلغة ايران المعاصرة الدارجة يدرس متنه ، وكتابنا بوجه عام يعتبرون كتابة النثر بأقلامهم على الورق تحقيرا لمكانتهم وان أرادوا أن يكتبوا نثرا فمحال أن يتدنوا عن كلستان سـعدى درجة واحدة ·

كتب باربيه دو مينار(Barbier de Meynard) المستشرق الفرنسى الشهير فى مقدمة ترجمته لتمثيليات ميرزا فتحعلى آخوندوف بشـأن افتقاد الكتاب المكتوب باللغة الفارسية الدارجة فى متنـاول الطلاب الأوربيين الراغبين فى تعلم الفارسية يقول : « مطلوب من أهل الشرق أنفسهم أن يأتونا بنموذج من لغتهم المتداولة ، ولكنهم للأسف لا يملكون من

ذلك الكثير ، وليس ذلك غريبا على من هم على علم بالقواعد الأدبية بالعالم الاسلامى ، فاذا أراد أحد الناس فى العالم الاسلامى أن يكتب مثلما يتحدث مستخدما الألفاظ المتداولة وأبنية الكلام الدارجة وأسلوب الحديث الجارى فى كتاب كان ذلك من دواعى التدنى وتحقير الذات وتدنيس المقدسات ويرمى بخيانة المعانى والبيان وعلى أية حال يصدير كلامه لغوا باطلا يستوجب الذم واللعنات ! » .

ومما يدعو الى الدهشة أن كتابا وأدباء من أمثال حسـنعلى خان أمير نظام وميرزا أبو القاسـم قائمقام وميرزا عبد الوهاب نشاط وغيرهم ممن اتبعوا البساطة فى كتاباتهم ونأوا بأنفسهم عن تقايد السابقين قد حظوا بالاستحسان العام فى العهود الأخيرة ومن كتاباتهم ما أعيد طبعه مرات عدة ، ومع ذلك لم ينتبه أدباؤنا الى هذا بعد ولم ينمح خوفهم ورهبتهم .

خلاصة القول ان الكتابة القصصية هى أفضل الكتابات لاستخدام الألفاظ ، ومن ثم فان ألفاظ اللغة وكلماتها حين تحفظ ويتحدد موقع استخدامها تصبح الرواية والقصـة أفضل الكنوز اذا ما اندثرت الألفاظ والكلمات بمرور الزمن لتحل محلها ألفاظ وتعبيرات جديدة ، بل ويكون لها الفضل على المعاجم والقواميس ، فالمعجم مهما دق شرحه وتفصيله الا أنه لا يورد المواضع المختلفة والمتعددة لاسـتخدامات اللفظ والاصطلاح كما ينبغى ، فى حين ان الرواية تؤدى هذه التبعة حق الأداء ، كما أن هنـاك كثرة من الألفاظ

والتعبيرات والاصطلاحات والاشارات اللغوية لا ترد أصلا في المعاجم من قبيل الألفاظ المتداولة بين « المعلمين » والأوباش وما يشيع في أوساط خاصة من الشعب مما يستحيل أن يجمعه ويضبطه معجم ، فعلى سبيل المثال، حين يسمع المتحدثون بالفارسية اليوم أو حين يقرأون تعبير « سيد على راببا ») خلى بالك » في حضرة شخص ما محل اللمز ») فانهم يدركون على الفور ما يقصده القائل أو الكاتب ، ولكن تحت أي لفظ يندرج في المعجم مثل هذا التعبير ؟

جمع كاتب هذه السطور في آخر هذا الكتاب (يكى بود ويكى نبود) العديد من الألفاظ العامية المتداولة بين الطبقات الدنيا وأهل السوق مما يطلق عليه بالفرنسية اسم « أرجون » وقد نظم عدد من مشاهير شعراء فرنسا أمثال فرانسو دى فييون (F. de Villion) وجان ريشبان (J. Richepin) وهما اليوم عضوان في مجمع اللغة الفرنسية اشعارا ودونوا كتبا بهذه اللغة ، ان هذه الألفاظ يجب أن تحفظ وتضبط بمعانيها الثابتة والدقيقة مثل الفاظ « الخبز » المعروفة لكافة المتحدثين بالفارسية ، فذلك يؤدى الى اثراء اللغة فلا تنسى بتقادم الزمن ولا تضيع ، وكذلك على الأدباء وذوى الفضل أن يستخدموا صفوة هذه الألفاظ في كتاباتهم حتى تدخل نطاق اللغة الأدبية شيئا فشيئا ، كما يحدث في سائر الدول · خاصة وان كثرة من هذه الألفاظ مثل « بامبول » (خدعة) و « دبه دراوردن »

(يخلف وعدا) و « خل » (صمولة) وغيرها هى أصلا بلا مرادفات أى لا وجود لكلمات أخرى تؤدى نفس المعنى الدقيق لها ، فالكاتب حين الضرورة اما يضطر الى التغاضى عن ذكر فكرته أو لا يجد بدا من استخدام هذه الألفاظ اذا شاء الاصرار على فكرته ، وربما يعتقد البعض أنه لا يجب استخدام الألفاظ والتعبيرات التى كان الأقدمون يحجمون عن استخدامها ، ولكن اليوم ثبت علميا أن الأفكار والمشاعر والأذواق تخضع ككل شىء فى الدنيا لسنة التطور ، ولما كانت الألفاظ والكلمات تظهر الى الوجود بعد ظهور المعانى والأشياء فلابد أن تظهر الى الوجود ألفاظ وتعبيرات جديدة كل يوم مع ظهور أفكار ومشاعر وأشياء جديدة ، ومعروف أن الاحجام عن استعمال هذه الكلمات يوقع الكاتب فى مشكلات ومصاعب، وبديهى أنه فى هذه الحالة لا الفكرة تنضج نضجا طيبا ولا العبارة تخلو من التصنع والتعقيد ، والحقيقة أن الاعراض عن الجديد من اللفظ والقناعة بالقديم منه لما يستحدث من أفكار ومعانى هو فى حكم من يود أن يلبس رداء طفل رضيع لفتى يافع قوى ، يقول فيكتور هوجو الشاعر الفرنسى الشهير فى هذا الصدد :

« ان اللغة لا تتوقف أبدا ولا تنتظر ، وفكر الانسان دائما فى تطور أو بعبارة أخرى فى حالة حركة ، واللغات وراءه أيضا فى تطور وحركة ، تلك سنة الحياة ، حين يتغير البدن كيف يظل الرداء دون تغيير ؟ ان اللغة الفرنسية

بالقرن التاسع عشر لا يمكن أن تظل هى فرنسـيــة القرن الثامن عشر، أو فرنسـيــة القرن السابع عشـر ، فلغة مونتين(١) تختلف عن لغة رابولية(٢) (F. Rabelais ولغة باسكال(٣) غير لغة مونتين، وليست لغة مونتسكيو(٤) كلغة باسكال ، ومع ذلك فان كلا من هذه الفرنسيات الأربع غاية فى السمو فى‌حد ذاتها ، اذلكل منها سمتها الميزة ، لكل عهد مجموعة من الأفكار والمعانى الخاصة ولابد من وجود الكلمات والألفاظ التى تدل عليها ، ان اللغة كالبحر فى دوام حركتها وتطورها ، وفى كل حين تبعد عن شواطىء عالم ذكرى لتطوى شاطئا آخر تحت أمواجها ، وكل ما يتخلف عن الأمـــواج يجف تدريجيا وينتثر ، بنفس هذه الطريقة يطوى النسيان الأفكار والألفاظ فتنمحى ، فاللغة مثلها مثل أى شىء فى الدنيا ، فى كل قرن من الزمان تقل هاهنا قدرا لتزيد هاهنا مقدارا ، ذلك قانون الحياة ولاحيلة فيه ولا ينبغى السعى هباء الى تجميد جسد اللغة المتحرك فى قالب محدد ، ان هذا هو ديدن أتباع يوشع(٥) فى الأدب الذين يحكمون على شمس اللغة بالتوقف والجمود ، فاللغة كالشمس لا توقف لها ولا جمود ولا تتوقف الا حين ينتهى أجلها وتموت(٦) .

ان أبناء وطننا ممن يبدون وجهة نظرهم فى النقــاط السابقة الذكر يظنون بصـورة عامة أن اصـــلاح الأدب الفارسى منوط بتشكيل جمعية أو لجنة من الأدباء وذوى الفضل من العلماء يأتمرون لمناقشة مايلزم ويفيد ايران من

اصلاحات فى عالم الأدب ، وأى نوع من الألفاظ والتعبيرات يستطيع كل كاتب أن يتخير وأيها لا ينبغى استعماله ، فيكون للجنة المذكورة من ســـيطرة على أدب الدولة ما لمجلس الشورى القومى من سلطة تشـــريعية ، ويرى كاتب هذه السطور ان هذا الرأى مبعثه ان الســـادة المذكورين قد سمعوا بتأسيس لجنة فى فرنسا باسم « أكاديمى » ترعى شئون الادب ، وتصـــوروا ان رقى الأدب فى تلك الدولة يعود الفضل فيه الى تلك اللجنة ، ومن ثم فقد رأوا أن وجود لجنة مثلها أمر ضرورى لايران أيضا ، ونحن لا ننكر فضـــل مثل هذه اللجنة ، ولكن ينبغى أن نعلم أن مهمة الـــ « أكاديمى فرانسيز » لا تتعدى وضع المعاجم اللغوية الفرنســـية ، ولا اختيار لها غير ذلك ، وان كانت تؤدى للأدب الفرنسى من خدمة فهى عن طريق الترغيب والتشجيع لا أكثر ، كما أن هناك العديد من الدول المتقدمة الكبرى لديها آداب راقية بينما ليست لديها لجنة أدبية مثل الـــ « أكاديمى فرانسيز » ، وقد تنبه الى هذه النقطة السيد محمد على خان ذكاء الملك فروغى ، وفى خطابه بتاريخ رجب من عام ١٣٣٣ (هجرية) فى مناسبة تخريج الدفعة الثالثة والعشرين بالمدرسة الأمريكية بتهران قال فيما يتعلق بالأدب الفارسى :

« وهناك كذلك من الأفكار الغربية التى تراود بعض الأخوة مايختص بضرورة انشاء لجان علمية وأدبية أو أكاديميات بغرض تطوير اللغة الفارسية ،

تكون مهمته وضـــع الألفـــاظ واشتقاق التراكيب الجديدة ، فظنوا أن الأكاديميات والجمعيات العلمية والأدبية فى الدول الأجنبية تقوم بذلك غافلين عن أن وضع الألفاظ واشتقاق التراكيب ليس من شأن اللجان بل ان أهل العلم والفضـــل يتخيرون حين الضرورة اصطلاحات ضمن كتاباتهم وحسب قدراتهم ومواهبهم ، ولما كانوا يتخيرون تلك الاصـــطلاحات حسب قواعد منظمة فانها بالطبع تحوز القبـــول وتنتشر ، واذا كانت اللجان العلمية والأدبية تعمل فى طرق تطوير العلم والأدب ففى مجـــالات أخرى ومهمتها فى الغالب هى تشجيع أهل الكمال وترغيبهم وتسهيل مهامهم .

(صحيفة « عصر جديد » العدد ٣٥ عام ١٣٣٣)

اننا اذا قسنا تطور آداب الأمم الأخرى ورقيها وأردنا أن نرى أى سبيل أتبعته تلك الأمم للرقى بآدابها بغرض توجيه ايران الى نفس السبيل من السهل أن نلاحظ أن افضل سبيل للارتقاء بالأدب الايرانى المعاصـــر هو أن ادباءنا الذين يجددون شبابهم الأدبى كل عام أو كل عدة أعوام من خلال معارضة قصيدة أو غزلية شـــهيرة لأحد الشعراء الأقدمين أو الأحدث بمناسبة عيد أو حفل أو ما الى ذلك يوسعون ميدان صولات أقلامهم ويقتحمون مختلف افرع الأدب من شعر ونثر وخاصة النثر القصصى الذى أصبح اليوم مرآة آداب أغلب الأمم وبمؤلفاتهم وكتاباتهم

هم ينفثون روحا جديدة فى جســـد أدبنا المتبلد ويهبون سوقه الكاسدة رواجا وزينة جديدة بدرر بيانهم وفكرهم السامى ، واذا ما أولى أهل العلم والبصـيرة اهتمامهم للكتابة تجد الكلمات والاصطلاحات الجديدة طريقها الى اللغة تدريجيا من خلال أذواقهم السلمية وحسهم الوضاء مع مراعاة القواعد والضرورات وبحيث لا تتنافى مع روح اللغة ، كما أن اللغة تصقل وتتهذب ضمنا ، وكما تجرى الرياضة الجسمانية دما وقوة جديدين فى عروق الانسان تجرى الرواية فى عروق الأدب دما جديدا وشيئا فشيئا يتألق أدبنا ويزدهر ويصبح مدعاة فخر كل ايرانى كما كان أدب الأقدمين ٠

لكل ما ذكرناه وبتشجيع عدد من الأصدقاء النابهين وخاصة حضرة العلامة الكاتب الفاضل الشهيرآقا ميرزا محمد خان قزوينى الذى أدين له بدوام العـــرفان على نصائحه الأدبية فقد نوى كاتب هذه السطور ان يطبع عددا من الحكايات والقصص التى كنت قد دونتها على مر الأيام لمجرد التسلية ، عسى أن يكون صوتى الضعيف كصياح ديك السحر يوقظ القافلة الغـــافلة وأن يكون بداية خير فينتبه الأدباء والعلماء فى بلدنا الى ضرورات العصـــر

فلا يدعون بدائع فكرهم كالشمس خافية وراء غيوم واهنة او كالدر الثمين تحجبه أصـداف عقيمة ، وانه ليحدونى الأمل أن تحـوز هذه الحكايات الهاذية بكل ما بها من اضطراب وتهافت قبول أصـحاب الذوق وان تفتح طريقا جديدا أمام صولات القلم المقتدر فى أيدى كتابنا الحقيقيين ولا أمل لى سوى أن أحوز هذا الجزاء عوضا عما بذلت من نصب ٠

سيد محمد على جمالزاده

برلين ، غرة ذى القعدة ١٣٣٧

الهوامش

(١) M. Montaigne الفيلسوف الفرنسي الشهير (٩٣٩ ـ ١٠٠٠ هجرية) .

(٢) F. Rabelais الكاتب الفرنسى القديم الشـــهير (٩٤٣ هجرية) .

(٣) B. Pascal عالم الرياضيات والفيلسوف الفرنسى الشهير (١٠٣٢ ـ ١٠٧٢ هجرية) .

(٤) Ch. Montesqueiu الكاتب الفرنسى المشهير ومؤلف كتاب « رسائل ايرانية » وكتاب « روح القوانين »

(٥) يوشع Josuã قاد العبريين بعد موسى واستولى على أرض كنعان ، ويتذكر التوراة انه في زمن الحرب مع ملك بيت المقدس أمر الشمس بالتوقف حين جن الليل ولم يحقق النصر بعد .

(٦) نقلا عن المقدمة الشهيرة التى كتبها فيكتور هوجـــو لكتاب « كرمـول » وقد أصـــبحت دستور الأدبـــاء التجديديين (الرومانسيين) .

(٦)

نماذج من القصـــة القصيرة
فى ايران من ١٩٢١ الى ١٩٧٩

- **الفارسى سكر :**

(فارسى شكراست ، ١٩٢١) محمد على جمالزاده

- **لسان حال حمار حين الموت :**

(زبان حال يك الاغ دروقت مرك ، ١٩٢٤) صـــــادق هدايت ٠

- **بائع الجاز :**

(نفتى ، ١٩٤٥) صادق جوبك ٠

- **الحفل السعيد :**

(جشن فرخنده ، ١٩٦١) جلال آل أحمد ٠

- **التدريس فى ربيع بهيج :**

(تدريس دربهارى دل انكيز ، ١٩٦٢) بهرام صادقى ·

ـ سارقة البيض :

(تخم مرغ دزد ، ١٩٦٣) فريدون تنكابنى ·

ـ الفراشات فى الليل :

(بروانه هادرشب ، ١٩٦٥) غلا محسين نظرى ·

ـ البرج التاريخ :

(برج تاريخى ، ١٩٦٩) خسرو شاهانى ·

ـ دفن الميت :

(مرده كشى) خسرو شاهانى ·

ـ القيد :

(زنجير ، ١٩٦٩) بهرام صادقى ·

ـ غصن بنفسج من أجل عديد :

(يک، بنفشه براى عديد ، ١٩٧٤) نسيم خاكسار ·

ـ الخوف :

(هراس ، ١٩٧٧) جمال مير صادقى ·

ـ مليكة روحى :

برزك بانوى روح من ، ١٩٧٩) كلى ترقى ·

الفارسى سكر

محمد على جمالزاده

لا مكان فى الدنيا يبطش فيه بالخبيث والطيب معا دون تمييز مثل ايران ، بعد خمس سنوات من الغربة وتجرع الألم ، لم تكد عيناى تقعان على تراب ايران الطاهر من فوق سطح السفينة حتى بلغت مسامعى أصوات حمالى (ميناء) انزلى بلهجتهم الكيلانية ينادون « اطلع ياحبيبى ، اطلع ! » ، كالنمل يحيط بجرادة ميتة أحاطوا بالسفينة يلقون بلاءهم على المسافرين فوقعت ذقن كل مسافر فى قبضة حفنة من المراكبية وأصحاب القوارب والحمالين ، ولكن من بين كل المسافرين كان أمرى أشد عسرا ، اذ كان الآخرون عامة من التجار ذوى اللبادة الطويلة والطاقية القصيرة من أهالى باكو ورشت ممن لا يفتحون حافظة نقودهم ولو بقوة العصى والهراوات ، ويسلمون أرواحهم لعزرائيل ولا يرى أحد لون نقودهم ، أما أنا التعس اليتيم

الأم فلم أجد فرصة لكى أخلع عن رأسى القبعة الافرنجية فظلت على رأسى من أوربا وحتى هنا ، ظن الأخوة اياهم اننى « ابن ناس » و « لقمة طرية » فأحاطوا بى يصيحون « ياخواجة ، ياخواجة » فصارت كل قطعة من عفشى من نصيب عشرة رؤوس من الحمالين وخمسة عشـــر من المراكبية الظالمين وبالشجار ، وعلا الصياح والصـــراخ والعراك دون سبب واضح ، كنت قد وقفت حائرا مذهولا وفى دوار : بأى لعبة أخلص رقبتى من قبضة هؤلاء المغيرين وبأى حيلة أفلت من حصارهم ، فى هذه الأثناء انشقت الصـــفوف عن اثنين من موظفى الجـــوازات المتكبرين العابسين وبرفقتهما عدد من السعاة ، يرتدون ثيابا حمراء وعلى رؤوسهم طرابيش عليها رمز الأســـد والشـــمس ووجوههم عابسة مكفهرة وشـــواربهم كثة تصـــل الى عوارضهم وتهتز مع نســـيم البحر كأنها بيارق الجوع ، هبطوا جميعا علينا كأنهم القضـــاء ، وبمجرد أن وقعت عيونهم على جواز سفرى أصابتهم الصاعقة وكأنهم تلقوا نبأ اغتيال الشاه أو بلغهم أمر عزرائيل المطاع ، حركوا شفاههم وأفواههم وهزوا رؤوسهم وآذانهم ثم نظروا الى وقاسوا قدى وقامتى من أعلى الى أسفل ومن أسفل الى أعلى عدة مرات كأنهم ـ كما يقول أطفال تهران ـ « يفصلون لى عباءة » ، وفى النهاية قال أحدهم : « كيف ! هل أنت ايرانى ؟ » قلت ماشاء الله ، سؤالك غريب ، اذن من أين تريدنى أن أكون ، طبعا أنا ايرانى ، وسابع أجدادى كان

أيضا ايرانيا ، فى حى سنكلج بأكمله أشهر من نار على علم ولن تجد أحدا لا يعرف « مخسوبك » ! » ٠

ولكن « المعلم خير » لم يدخل رأسه هذا الكلام وصار واضحا أن المسألة ليســت مســألة قرش أو مائة جنيه ، فأصدر أوامره الى السعاة بأن يتحفظوا فورا على « السيد الخواجة » «حتى يتم عمل التحقيقات اللازمة» ، واحد من هؤلاء السعاة يبرز من ثنايا عمامته ذات الخطوط غصن من الخشب كأنه قبضة سيف ، مد يده وقبض على مرفقى وقال « امش أمامى » ، فقدرت الموقف وسكت خوفا ٠

فى البداية أردت أن أصرخ وأقيم ضجة الا أنى رأيت أن الجو غير مناسب وأن الصلاح فى المعقول ، ما ألقى الله بأى كافر فى قبضة جيش السعاة ! لك أن تتصور ما فعله بنا هؤلاء ــ سامح الله آباءهم ــ فى الحال ، الشيئان الوحيدان اللذان استطعت أن أخرج بهما سليمين من أيديهم هما قبعتى الأفرنجية وايمانى ، كان واضحا أن أحدا لم يكن بحاجة اليهما وفيما عدا ذلك لم يبقوا على جيب أو أبط أو ثقب الا وأخلوه فى غمضة عين ، وحين رأوا أنهم أدوا واجبهم الحكومى خير قيام ألقوا بى فى زنزانة مظلمة وراء جمرك ساحل أنزلى تبدو أول ليلة بالقبر بالمقارنة بها نهارا منيرا ، نسج فوج من العناكب على بابها وجدرانها ستارا ، أغلقوا الباب وراءهم ومضوا وأسلمونى لله ٠

فى الطريق حين كنت آتيا بالقارب من السفينة الى الســــاحل كنت قد فهمت من حديث الناس والمراكبية أن اشتباكا قد وقع مرة أخرى فى تهران بين الشاه والمجلس النيابى وبدأ النزاع من جديد ، وصـــدر قرار خاص من العاصمة باحكام الرقابة على تردد المســـافرين وأصبح واضحا أن كل هذه الضجة ترجع لهذا السبب ، خاصة وأن مأمورا غير عادى كان قد وصل صباح اليوم من رشت لهذا الغرض فأخذ يبطش بالخبيث والطيب دون تمييز لمجرد اظهار اللياقة والخبرة والقدرة على العمل ، فاطلق كالكلب المسعور على أرواح الأبرياء ، وضمن بطشه أخذ يناهض الحاكم المسكين اذ كان يطمع فى حكومة انزلى لنفسه ، ومنذ صباح ذلك اليوم لم يترك لخط تلغراف انزلى ـ تهران دقيقة واحدة للراحة من طول اظهاره لقيامه بواجبه ٠

فى أول الأمر ظللت فترة لا ترى عيناى شيئا فبلغ بى الضيق مبلغا ، ولكن حين تعودت عيناى شيئا فشيئا على ظلام هذه الزنزانة اتضح أن ثمة ضيوفا آخرين برفقتى ، وقعت عيناى أول ما وقعت على أحد هؤلاء المتفرنجين اياهم ممن سيظلون فى ايران حتى قيام الساعة نموذجا ومثالا للدلال واللغو والجهل ويقينا سيظل سلوكهم وأفعالهم مائة سنة أخرى تجعل مسارح ايران (كفى الله الشر) تتقيأ امعاءها من الضحك ٠

اخونا المتفرنج كانت ياقة قميصة فى ارتفاع ماسورة السماور(١) ودخان ديزل القوقاز يكاد يكون فى لونها ، كان جالسا على حافة النافذة ، وتحت ضغط هذه الياقة المشدودة على عنقه كالأصفاد كان مســـتغرقا فى قراءة « رواية » فى هذه الظلمة ٠

أردت أن أتقدم نحوه « وأســـبك » عليه « بون جور موسيو » ، وأظهر للأخ أننا أيضا « فاهمين اللعبة » الا أن صوت صفير بلغ مسامعى من ركن من أركان الحجز فالتفت ناحيته ، وفى ذلك الركن لفت نظرى شىء ظننته لأول وهلة قطة بيضاء براقة تكورت نائمة على جوال من تراب الفحم ، ولكن لا ، اتضح انه شيخ احتضن ركبتيه على عادة الكتاب وجلس القرفصاء وقد لف عباءته حول نفسه حتى أذنيه وكانت القطة البيضاء البراقة هى عمامته المائلة وقد أفلت رباط ذيلها فاتخذ شكل ذيل قطة وكان هذا الصفير صوت تسبيحه ٠

ثم اتضح أن الضيوف ثلاثة ، فأخذت هذا الرقم على محمل الفأل الحســـن وأردت أن أفتح الكلام مع الزملاء لعلنا نواسى بعضنا البعض ونبحث عن وسيلة ، فاذا بباب الحجز ينفتح على مصراعيه ويلقى منه بشاب تعس على

---

(١) سماور : وعاء فى وسطه ماسورة طويلة للنار يتم فيه غلى الماء لصنع الشاى ٠

رأسه طاقية لباد ويسبقه صياح وضجيج الى داخل الحجز. ثم يغلق الباب ، اتضح أن المأمور الذى جاء خصيصا من رشت قد ألقى الى السـجن بهذا الطفل البرىء بغرض ارهاب أهالى أنزلى وجرمه أنه قبل سنوات وفى بدايات اضطرابات الدستورية والاستبداد كان يعمل خادما لدى شخص من القوقاز ، عندما وجد « الأخ » الجديد أن البكاء والعويل والأنين لا تشفى ألما مسح عينيه بطرف عباءته القذرة ، وحين أدرك ألا أحد من الحراس وراء الباب أطلق على آباء الجميع وأجدادهم سيلا من السباب الفاحشة التى لا تجد مثلها الا فى ايران كالبطيخ الكركاب والطبـاق الحكان ، ثم وجه عددا من الركلات بقدمه الحافية الى الباب والجدار ، وعندما رأى مدى قذارة الحجز وانه أقذر من قلب المأمور بصق على الأرض بصقة تسليم وألقى نظرة على زنزانة الحجز فأدرك أنه ليس وحده ، أما أنا فقد كنت « خواجة » ولم يكن له شأن معى ، ولم تستـسغ عيناه المتفرنج أيضا ، فسار حسيسا نحو « سيدنا الشيخ » وبعد أن نظر اليه فى دهشة لبعض الوقت قال وصوته يرتعد : « ياسيدنا الشيخ ، استحلفك بالله وبحضرة الشاه عباس ، ما جريمتى ؟ بالله الواحد يقتل نفسه ويستريح من ظلم الناس ! » .

حين سمع سيدنا الشيخ هذه الكلمات تحركت عمامته كأنها سحابة بطيئة فبدت من ثناياها عينان القيا نظرة واهنة على ذى الطـاقية اللباد ، ومن منفذ الصوت الذى كان

يفترض أنه يقع أسفل هاتين العينين والذى لم يكن ظاهرا بلغت مسامع الحاضرين الكلمات التالية هادئة وفى غاية القوة والوضوح : « ياموٌمن ! لا تسلم عنان نفسك العاصية القاصرة لسورة الغضب ، فالكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ... » .

ذهل الصبى ذو الطاقية اللباد لدى سماعه هذا الكلام ولم يفهم من كلام حضرة الشيخ سوى كلمة « كاظمين » فقال : « لا يافندم ، اسم خادمك ليس كاظم ، بل اسمى رمضان ، كل قصدى هو ليتنى افهم بأى تهمة ندفن أحياء فى هذا المكان » .

مرة أخرى وبنفس القوة والوضوح صـــــدرت هذه الكلمات من ذلك الركن المقدس : « جزاك الله ياموٌمن : لقد أدرك العبد الفقير مقصودك ، الصبر مفتاح الفرج ، أرجو أن ينجلى سبب الحبس عما قريب ، وبلا أدنى شك وبأى نحو كان وسواء عاجلا أو آجلا سيبلغ أسماعنا ، والى ذلك الحين ، وفى وقت الانتظار فان أفضل الأمور وأنفعها هو ذكر الخالق ، فهو على كل حال نعم الاشتغال » .

لم تدخل رأس رمضان المســـكين يتيم الأم كلمة من فارسية حضرة الشيخ ، فكان يبدو انه ظن أن الشيخ يتحدث مع الجن والعفــــاريت أو أنه منهمـــك فى تلاوة الأوراد والتعازيم ، فبدت آثار الخوف والهلع على وجناته فهمس

بالبسملة وأخذ يتراجع شيئا فشيئا ، الا أن جناب الشيخ قد انطلق لسانه المبارك وبدون أن يوجه حديثه الى شخص محدد ركز نظره على أعلى الجدار وهام فى أفكاره وقال بنفس وضوحه المعهود : « ربما تم القبض علينا لمصلحة أو أصلا عن غير قصد ، ولأجل ذلك يحدونى الأمل الواثق أن يرفع البلاء عما قريب ، ولعلهم قد ظنوا أن العبد الفقير لا قيمة له فعرضونى للتهلكة والدمار التدريجى دونما رعاية للمقامات والمراتب ، وبناء على هذا ينبغى علينا أن نطلب الغوث من الجهات العليا بأى نحو كان بواسطة الغير أو بدون واسطة كتابة أو شفاهة علنا أو فى الخفاء ، وبلا ريب ومصداقا لقول « من جد وجد » سيتحقق المرام ونبلغ المراد وستثبت براءتنا ما بين الأماثل والأقران كالشمس فى وضح النهار » .

استولى الذهول على رمضان المسكين فأجال بصره فى زنزانة الحجز ثم نظر كمن أغشى عليه الى الشيخ نظرات مذعورة وأخذ يستعيذ من الشيطان همسا وقرأ ما يشبه آية الكرسى وأخذ ينفخ حوله ، كان واضحا أن أفكاره قد تشتتت وساعدت حلكة الظلام على ذلك فلانت مفاصله من الهول انفطر قلبى اشفاقا عليه ، أما جناب الشيخ فلم يتوقف عن الكلام وكأن لسانه قد لان أو كما يقول المشايخ أنفسهم قد أصابه « سلس القول » فشمر عن ساعديه حتى المرفقين وكانا فى كثافة الشعر عليهما يشبهان ــ كفاكم الله السوء ــ أرجل خروف ، وقد نهض

على ركبتيه وطرح عمامته الى الخلف وبدون أن يرفع عينيه
عن قمة ذلك الجدار المسكين كان يوجه حديثه الى المأمور
غيبا باشارات غريبة وصسيحات زاجرة ، وكمن يريد أن
يكتب اليه التماسا أخذ فى سرد القاب وصفات مثل « العلقة
مضغة » و « فاسد العقيدة » و « شارب الخمر » و « تارك
الصلاة » و « ملعون الوالدين » و « ولدالز نا » وغيره
وغيره مما لم يبق من كثرته شيء فى ذاكرتى وما يكفى
لاباحة النفس والمال وتحريم النساء على بيت كل مسلم ،
وظل فترة يتحدث بكل اطمئنان ووقار وحرقة وحسرة عن
« اللامبالاة تجاه أهل العلم وخدام الشريعة المطهرة » وما
يلاقونه من « اهانة واذلال فى كل ساعة » وألقى عليهم
« عاقبة السوء فى الدنيا والآخرة » ، وشيئا فشيئا أخذ
حديثه الواعظ يشـتد غموضا وتداخلا حتى بلغ درجة
يستحيل معها على رمضان أو جد رمضان أن يستوعب
منها كلمة واحدة ، حتى أننا لم أفهم من كل ما قاله الشيخ
شيئا رغم انى كنت أتقعر باللغة العربية وقضيت من عمرى
الغالى سنين عدة اضرب زيدا فى عمرو وأظل باسم الدرس
أستذكر من الصباح حتى المساء مختلف أسماء مصادر
الضرب والشجار وسـائر الأفعال الذميمة والصـحيح
والسالم والأجوف ، ووعد مختلى العقول ووعيدهم فى هذا
الصدد وذاك وأفنيت ردحا من شبابى فى ليت ولعل ولا
ونعم وحروف الجر ودرس المعلوم والمجهول ٠

فى أثناء هذه الفترة كان السيد المتفرنج جالسـا فى

مكانه على حافة النافذة منهمكا بكل حواســـه فى قراءة روايته المسلية ، دون أن يولى أدنى اهتمام الى ما حوله كان أحيانا يحرك شفتيه ويقضم بأسنانه طرفا من شاربه المشهر على جانبى فمه كذيل عقرب ويأخذ فى مضغه ، وفى أحيان أخرى يخرج ساعته وينظر فيها وكأنه يريد أن يرى ان كان موعد القهوة واللبن قد حان أم لا ٠

أما رمضان التعس الذى فاض قلبه وكان فى حاجة للمواساة اذ لم ير من الشيخ خيرا فقد رأى النجاة فى فرد واحد فحمل قلبه على كفه واقترب من المتفرنج كطفل جائع يلتمس الطعام لدى غير أمه ، فألقى الســـلام وقال بصوت مرتعد : « ياسيدى ، قل لى بالله ! فأمثالى من ذوى الياقات القذرة لا يفهمون ، وقد وضح أن حضرة الشيخ من الجن والمهرفين أصلا لا يفهم لغتنا ، أنه عربى فهل لك بالله أن تقول لى بأى ذنب ألقى بنا فى سجن الموت هذا ؟

لدى سماعه لهذه الكلمات قفز المتفرنج من فوق النافذة فطوى كتابه ودسه فى جيب فضـــفاض بمعطفه ثم اتجه باسما الى رمضان ومد يده اليه بالسلام قائلا « أخى ، أخى » لم يدرك رمضان الأمر فتراجع قليلا ، فاضطر جناب الخان الى أن يسحب يده تلقائيا الى شاربه ، ولمجرد عدم الحرج أخرج يده الأخرى الى الميدان ثم وضعهما معا على صدره وصابعى الابهام فى ثقبى كم الصديرى وبأصابعه الثمانية الأخرى أخذ يضرب على صدره المنشى ، وقال

بلهجة عذبة « ياصديقى وابن بلدى العزيز : لماذا تم وضعنا هنا ؟ قضيت ساعات طويلة أحفر رأسى الا أنى لم أفهم شيئا ، آبسولومان ، لا بوزيتيف ولا نيغاتيف ! أليس شيئا كوميك أن يلقى القبض على باعتبارى كريمينل من أجل ٠٠ وأنا الشاب الحاصل على دبلوم ومن أحسن فاميل وأعامل كالآخرين ؟ ولكن لا عجب فهذه ثمار آلاف السنين من الديسبوتيسم وانعدام القانون والاربيترير ان الدولة التى تفخر بذاتها وتسمى نفسها كنستيتو سيونل ينبغى أن يكون بها تريبونال قانونى حتى لا يؤخذ أى من أفـــراد الرعية بظلم ، أخى فى التعاسة ! ألا تتفق معى فى الرأى ؟

أنى للمسكين رمضان أن يدرك مثل هذه الأفكار العالمية أو أن يفهم الألفاظ الأفرنجية ، كيف يفهم مثلا أن « كلما حفرت رأسى » هى ترجمة حـــرفية لتعبير فرنسى يعنى « امعان الفكر » ونظيره فى الفارســـية هو « كلما قتلت نفسى ٠٠ « أو » كلما ضربت رأسى فى الجدار ٠٠ أو أن « رعيت بظلم » هى أيضا ترجمة حرفية لاصطلاح فرنسى معناه « وقوع الظلم من الطرف الآخر » ، عندما ســـمع رمضان لفظتى « رعية » و « ظلم » تخيل عقله المحدود أن المتفرنج يتصور أنه مزارع(٢) وقع عليه ظلم » من مالك الأرض فقال : لا ياسيدى ، خادمك ليس مزارعا ، أنا صبى قهوجى فى الجمرك القريب » ٠

---

(٢) لفظ « رعيت » فى الفارسية بالاضافة الى معناه العام « رعية » فهو يعنى أيضا « مزارع أجير » (المترجم) ٠

هز جناب المسيو أحد كتفيه وأخذ يدق بأصابعه الثمانية على صدره وبدأ يمشى وهو يصفر وهام فى خياله دون اهتمام برمضان وقال : « رفولوسيون بدون افولوسيون تعد شيئا لا يتصوره العقل نحن الشباب تقع عليا تبعة ارشاد الشعب ، وقد كتبت ارتيكل طويلا عن هذا السوجيه أثبت فيه بصورة واضحة أنه لا ينبغى للفرد أن يتواكل على الآخرين بل على كل فرد أن يؤدى واجبه تجاه وطنه فى حدود ٠٠ فى حدود البوسيبليتيه : هذا هو طــريق التقدم : والا فان الديكادانس يتهددنا ، ولكن لسوء الحظ كلامنا لا يؤثر فى الناس ، يقول لامارتينى بحق فى هذا الصدد ٠٠٠ » وبدأ حضرة الفيلسوف فى تلاوة قدر من الشعر الفرنسى كنت بالمصادفة قد سمعته من قبل وكنت أعلم أنه للشـــاعر الفرنسى فيكتور هوجو ولا شأن له بلامارتينى ٠

ذهل رمضان لدى سماعه لهذا الكلام العميق العجيب فجرى مذعورا الى ركن من الزنزانة وأخذ يبكى ، وسرعان ما تجمع الحراس وراء الباب وصـــاح صـــوت فظ قبيح من وراء الباب كان صوت الشيخ حسن شمر اقرب بالمقارنة به الى أعذب الأنغام قائلا : « يابن ٠٠ ماذا يؤلمك حتى تصرخ هكذا هل يســحبونك من ٠٠٠ ك ؟ ما هذا الضجيج ؟! ان لم تقلع عن هذا التمثيل (كهن اليهود) و « شغل الغجر » جاءوا اليك وحطموا فكك ٠٠ ! » أخذ رمضان يتوسل ويتضرع بصوت ذليل بائس ويقول : « ايها

المسلمون ما جريمتى ؟ ان كنت لصا اليكم يدى أقطعوها ، وأن كنت مجـــرما فأجلدونى ، أو اخلعوا أظافرى ، أو اسحقوا أذنى فوق بوابة ، أو اقتلعوا عينى ، و اخلعوا حذائى وضعوا العصى بين أصابعى ، أو صبوا على شمعا مذابا ، ولكن ذولوا رضا الله ورسوله وخلصونى من هذا الكهف ومن قبضة هؤلاء المجانين والعفاريت ! اقسم بالأمام وبالرسول ، عقلى يكاد يطير من رأسى ، وضعتمونى فى قبر بصحبة ثلاثة أحدهم أفرنجى عبوس من ينظر الى وجهه وجبت عليه الكفارة انتحى جانبا كالبومة ويريد أن يأكلنى بعينيه ، والآخران لا يفهم المرء كلمة من كلامهما ، فكلاهما من الجان ، ولا أدرى ربما عن لهما أن يخنقانى ، من سيلبى نداء الله ؟ » لم يعد رمضان التعس يستطيع الكلام فقد سد الحقد حلقه فأخذ ينشج بالبكاء ، وعاد الصوت المنفر من وراء الباب يسدد الى قلب رمضـــان الحزين سلسلة من السباب الموجعة ، انفطر قلبى من أجله ، فتقدمت ووضعت يدى على كتفه وقلت :

« يابنى ، كيف أكون أفرنجيا ، أقسم بقبر أبى مهما تفرنجت فأنا ايرانى وأخوك فى الدين ، مم تخاف ؟ ماذا حدث ؟ مازلت شابا ، لم كل هذه الحيرة ؟ ... »

عندما رأى رمضان أنى أفهم الفارسية بحق وأحدثه « بالبلدى » أمسك بيدى وأخذ يقبلها وسر سرورا بالغا كأنه قد ملك الدنيا وردد يقول : « لا فض فوك ، والله انك ملاك ، أرسلك الله نجدة لى ، فقلت : « اهدأ يابنى ، أنا

لست ملاكا على الاطلاق ، بل يساورنى الشك فى آدميتى أيضا ، يجب أن تتشـــجع ، لم البكاء ؟ لو علم أقرانك لسخروا منك وحينئذ سيلحق بك العار . فقال : « أجارك الله من هؤلاء المجانين والله كدت أموت هلعا ، أرايت كيف لا يفهمـــان كلمة من كلامنا ويتحدثان لغات العفاريت ؟ قلت : « يا أخى ، هذان ليسا من العفاريت ولا من المجانين، بل هما ايرانيان واخوانا فى الوطن والدين » .

حين سمع رمضـــان هذا الحديث بدا وكأنه ظن أنى مثلهما ، فنظر الى وانفجر فى الضحك وقال : « استحلفك بالشاه عباس ياسيدى ألا تسخر منى ، لو كانا ايرانيين اذن لماذا يتكلمان هذه اللغات التى لا تشبه أية كلمة منها لغة بشر ؟ » .

قلت : « يارمضان – ان اللغة التى يتحدثون بها هى أيضا فارســـية ولكن الفرق .. » ولكن كان واضحا أن رمضان لم يصدق وأشهد الله أنه كان على حق وما كان ليصدق ولو بعد ألف سنة ، وقد رأيت أنا أيضا ان تعبى يذهب هباء فأردت أن أتحدث فى موضوع آخر فاذا بباب الحجز ينفتح فجأة على مصراعيه ويدخل أحد الســـعاة ويقول : « هيا ، اعطونى « الحلاوة » واذهبوا فى أمان الله ، أطلق سراحكم جميعا .. » .

عندما ســـمع رمضان هذا الخبر بدلا من أن يفرح التصق بى وأمسك بطرف ثوبى وأخذ يقول : « اقسم لك

أنى أعلم ان هؤلاء يقولون ذلك كلما أرادوا أن يسلموا سجيننا ليد الجلاد ، اللهم احفظنا » ، الا أنه ثبت ان خوف رمضان وارتعاده بلا مبرر ، تبدل مأمور فترة الصباح وجاء بدلا منه مأمور جديد آخر سخيف متعجرف يستعرض قوته فى حكومة رشت ، وبعد وصوله الى أنزلى ولمجرد أن ينقض مأمور العصر ما غزله مأمور الصباح فقد كان أول قراراته اطلاق سراحنا ، حمدنا الله وأردنا أن نخرج من باب الحجز فرأينا شابا تدل لهجته وسيماه وملامحه انه من أهالى خوى وسلماس ، كان الحراس فى طريقهم لايداعه الحجز ، وكان الشاب أيضا يتحدث نوعا من اللغة الفارسية أدركت فيما بعد أنها « مستوردة » من اسطنبول فكان يبدى « استرحام » الناس ويرجوهم أن يصغوا اليه ، نظر اليه رمضان وقال فى دهشة بالغة : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هاك شخص آخر « منهم » يارب ألا تلقى الينا اليوم الا بكل مخبول مجنون : ، حمدا لك على مامنحت ومامنعت »، أردت أن أقول له ان هذا أيضا ايرانى ويتحدث الفارسية لكنى خشيت أن يظن انى أخدعه فينكسر قلبه ، فلم أبد له شيئا ومضينا للبحث عن عربة تقلنا الى رشت وبعد دقائق لحق بى حضرة الشيخ والسيد المتفرنج فاشتركنا فى استئجار عربة ، وحين بدأنا فى التحرك رأيت

رمضان آتيا يجرى فأعطانى منديلا به ياميش وهمس فى أذنى قائلا : « اغفر لى جرأتى ولكن أقسم لك أنى أعتقد أن جنونهم قد أثر عليك والا ما جرءت على السفر برفقتهم » ، قلت : « يارمضان ، أنا لست جبانا مثلك : » قا ل: « كان الله فى عونك ، كلما مللت الصمت كل من الياميش وتذكر خادمك » .

ارتفع سوط سائق العربة وتحركنا ، ولا أطيل عليكم مر الوقت سعيدا ، خاصة حين رأيت فى الطريق «أمورا جديدا فى طريقه الى أنزلى ، فانفجرت فى الضحك .

* * *

لسان حال حمار حين الموت (١)

صادق هدايت

آه ! آلام جسمي تصيبني بالرعشة ، هذا جزاء جهودى التى بذلتها فى سبيل كائن ظالم لا يعرف المروءة ، اليوم آخر ايامى ، وهذا هو عزائى الوحيد ! بعد حياة مفعمة بالمرار والمشقة وحمـــل الأحمال التى تنوء بها الظهور ، وضربات العصى والجنازير وسباب المارة ، ولكن لايزال ثمة متسع للحمد بأنى سأودع هذه الحياة المهيبة ، هنا شارع شميران ، اليوم بسبب اهمال صاحبى كسرت سيارة قدمى وأصابنى ما أصابنى ، بعد ضرب وسباب سحبوا جسدى الى جانب الطريق ، وتركونى لحالى ، ربما نسوا أنه لايزال من الممكن أن يستفيدوا من حوافرى وجلدى ! ، لعلهم يأسوا تماما ٠

---

(١) نشرت بمجلة وفا ، ١٣٠٣هـ ٠ ش / ١٩٢٤ ٠

هل سيحضرون غذائى فى موعده ؟ لا ·· على أن أموت فى قمة الحزن والجوع اذ لم تعد ترجى أى فائدة منى

آه ! آلام جروحى تشتد ، ولايزال الدم يسيل منها ، أى كائن هذا الذى سلط علينا وجعل حياتنا عارا وقذارة وآلاما ومحن ، وجرح أحاسيسنا الطبيعية التى لا تصنع فيها ، وأعمل الجراح فى أجسادنا وأحال حياتنا كلها مرارا فى مرار ؟ ، هو يشبهنا فى ظاهره شبها تاما وفى النهاية يموت مثلنا ، من هذه الناحية فلا فرق يذكر بيننا ، ولكن كأن بدنه قد قد من حجر أو خشب ، فهو يلهبنا بسوطه ويظن أننا لا نحس ، ولو كان هو نفســـــه يحس بالألم لرحمنا ·

هذه الأدوات التى يستخدمها فى تعذيبنا ليست طبيعية بل من صنعه هو ، هناك جمعيات أنشئت منذ زمن فى أوربا وأمريكا باسم « الانسانية » بهدف رعاية حقوق الحيوان ، فوضعت قوانين خاصة للدفاع ورفع الظلم والعنت عنا ، هل يعد هؤلاء أيضا ضمن نفس الكائنات ؟ أبدا ! لو كانت تلك الجماعة تنتمى لنفس هذه الحيوانات اذن فقلبها ليس من حجر ·

ان علماء العلوم الطبيعية لا يرون فرقا كبيرا بيننا وبينهم ، ويصفون أنفسهم بأنهم على رأس فصيلة الحيوانات الثديية ، لكن ثمة فيلسوف معروف ـ ديكارت ـ يؤكد أن

الحيوان آلة متحركة ليس الا ، بمعنى انه كلما تقدم علم الميكانيكا اصبحت صناعة الحيوان ممكنة ! وتعقيبا على هذا الفكر الملتوى قام ضده عدد من الفلاسفة الآخرين الذين انتصروا لنا ومن بينهم شوبنهاور الذى قال : « أســـاس الأخلاق الرحمة ، لا بالنسبة لبنى النوع فقط بل أيضـــا بالنسبة لكل الحيوانات » وقام بشرح أحاسيسنا وذكائنا الى حد ما فى كتابه عن الأخلاق ، ويقول آخر : « من تسالى الأمهات أن يرين أطفالهن يكسرون رقبة طائر أو يجرحون كلبا أو قطا أثناء اللعب ، هؤلاء هن جذور الفساد ولب القسوة والظلم والخيانة » ، والحقيقة أن هذا الظلم الذى وقع ويقع علينا هو فى معظمه نتيجة لتربية الأمهات الظالمة للاطفال ٠

للأسف لا نستطيع أن نتكلم وهذه ســـمة تهيىء لنا أسباب التعاسة ، أرسطو فقط هو الذى تتبع حقيقة حياتنا اذ يقول : « الانسان حيوان ناطق » ، بهذا النطق وحده ابتلينا بجنون حفنة من الكائنات الجشعة المغرورة ، لم لم يقتد الناس بهؤلاء الفلاسفة ؟ بديهى أن أفكار الانسان تقوم أساسا على المنفعة الشـــخصية ، والحمارون على وجه الخصوص يتبعون فلسفة ديكارت اتباعا تاما ويفترضون أننا جسد بلا روح ٠

الرفق بالحيوان هو أصلا فكرة نشأت فى الشرق ، كما أن الانبياء جميعا وبلا استثناء قد حرموا ظلم الحيوان،

ويتفق فى هذا العلماء والفلاسفة والكتاب الأخلاقيون وحتى الشعراء ، فيقول فيلسوف فردوسى مثلا :

لا تــؤذ نمــلة دملت حبــة
فان لها روحا وما أطيب الــروح

ولكن نظرا لعدم وجود قانون لمنع قسوة البشر والحد من جشعهم الشديد فقد راح هذا الكلام أدراج الرياح ، لو كسرت قدماى فى الخارج لخلصــونى من هذا الألم العقيم أو قتلونى ، آه من الألم ٠٠ ويلى من الجوع ، ما ضرهم لو كنت حرا طليقا فى المراتع حيث الماء والهواء أحيا بين بنى جنسى ، وأنفق حتى يحين الأجل ؟! أما الآن فينبغى على أن أنفق منهكا جائعا فى أسرى ، يالها من نهاية مفجعة لحيوان أخرس وقع فى يد جنس يمشى على قدمين ، لابد أن نكتوى بناره ، آه ، لقد نفد صبرى ٠٠ ! الانسان قاتل المظلومين ، لماذا لا يستخدم الضوارى لخدمته فى الأسر ؟ هذا ذنب الحيوانات الضعيفة التى لا تؤذى ٠

اظلمت الدنيا فى عينى ، ضعف بدنى شيئا فشيئا من ألم الجوع ، وقع أقدام آتية لعل صــاحبى قد رق قلبه لشقائى ٠ فأحضر لى « تعيينى » من العليق ؟ لا ، هذا طفل، ألقى على حجرا وابتعد !

ليتنى أموت بسرعة ، فأطالب بثأرى على أعتاب العدل السرمدى من هذا الجنس الظالم ٠

* * *

بائـــع الجـــاز(*)

صاق جوبك

باطمئنان وثقة ربطت عذرا عقدة الحجاب وبه قطعة من فوطة دم الحيض بالضريح ، أمسكت بأسنانها طرف عباءتها القطنية المرزكشة ، رفعت رأســـها وركزت عينيها العجفاوين على القناديل المتربة المتدلية من سقف الضريح، وهمست بقلب ملؤه الخوف والأمل : « سيدى ، يابن الأمام موسى بن جعفر ! أبلغنى مرادى ! لاتخجلنى أكثر من ذلك أمام القريب والغريب ، افعل شيئا يا سيدى لأعرف لنفسى بداية ونهاية ، فأقيم بيتا يعج بالحياة ، ... اجعل من نصيبى زوجا يحملنى من دار أبى .. يحملنى الى حيث يشاء ، لا أريد منك غير هذا ، زوج لا أكثر ، هل هذا كثير على قدرتك الآلهية ؟ .. هل أطلب الكثير ؟! كيف تعطى لابنة عزيز خان وهى « السائبة » التى تتزاحم القذارة على

(*) من مجموعة **خيمه شب بازى** ، تهران ، ؟ ، ١٩٤٥ .

رأسها زوجا بهذا الحسن ؟! ياسيدى ، أفديك بنفسى ، نذر على أن بلغت مرادى أن أذبح كبشا سمينا » ٠

فيما عدا عذرا كان بالمكان قارىء كفيف يجلس بالرواق يدخن « الجوزة » ويردد من حين لآخر آية قرآنية يحفظها ، وكان صوته الميت المدوى يمتد فى فضاء الضريح ٠

كانت عذرا تقف ملتصقة بالضريح الخشبى البنى اللون وقد تدلت على جوانبه آلاف الأحجبة الملونة الأخرى ، تهدجت انفاسها وتجمعت دموعها حول مآقيها ، استقر بقلبها أمل أليم وذلة يكسوها خجل ، فتحت عينيها وأسبلتهما عدة مرات ، ثم مالت بجبهتها على الضريح ناظرة فى حيرة الى القناديل ومساند الكتب الموضوعة على الضريح ٠

كان الضريح يكتسى بكسوة صوفية خضراء أكلتها العتة وغطاها التراب ، كانت القناديل ومساند الكتب تهتز أمام عينيها ، وكانت الأشياء التى تعلو الضريح تشغلها ظاهريا ، كان الضريح ضخما وشامخا ، مما دل على أنه يضم جثمان رجل طويل القامة ـ هكذا تخيلت عذرا ، تأملت القبر فى دهشة ودار بخلدها : « روحى فداؤك ، ياله من قوام رشيد ! » ، ولكن لما كانت قد طلبت منه رجلا يتزوجها فقد استحت واحمر وجهها ٠

نهضت من مكانها فى سرعة وخفة ، قبلت الضريح

عدة قبلا متصلة رنانة ملؤها الشهوة والحسرة ، وبدون أن ترفع يديها عن الحجر طافت بالضريح مرتين ثم عادت ووقفت حيث كانت ، جذبت فى رفق عقدة حجابها وهزته برقة ، وحين رأت حجابا غليظا من قماش الستان رمادى اللون يتدلى فوق حجابها احتواها الضيق ، فجذبت عقدة الحجاب الستان الرمادى اللون وهزته عدة مرات ، وكالبستانى الذى يستطيع على الفور أن يميز الوردة الأصيلة فى زحمة من الورود ميزت ذلك الحجاب ، وأظهرته على غيره من الأحجبة ، لكنها انتبهت فجأة ودار بخيالها انه ربما كان لرجل عقده لجلب الحظ ، فقالت لنفسها :

« ربما عقده رجل يبغى زوجة ، من يدرى بنصيبه ؟! فلأعيده الآن كما كان لعله يتردد من وقت لآخر • »

نظرت فى ثورة شهوانية الى الحجاب الستانى الرمادى اللون الرجولى الخشن وقد انعقد الى جوار حجابها المزركش ، فغاص قلبها لرؤيته ، أحست بحب بهيج لهذا الحجاب ، بدا لها كمظهر لرجل قوى يشتهى ، فعشقته عشقها لزوج •

خجلت من سلوكها الفظ تجاهه ، بدا الحجاب الرمادى اللون فى عينيها فى صورة رجل فمدت يدها اليه تريد ضمه الى صدرها ، اعتصر قلبها ، نظرت خلسة حولها ثم مالت بشفتيها على الحجاب الستانى الرمادى اللون وقبلته بشوق عارم •

كانت عيناها مسبلتين ، أخذت تشم فى لهفة الرائحة العطنة لقطعة القماش الستانية العتيقة بينما تعتصر كسوة الضريح بين أصابعها المبللة بالعرق ، تبدى أمام ناظريها رجل ذو ملامح مبهمة يرتدى ثيابا رمادية اللون ، كانت صورته تفر من عينيها ، فتحت عينيها برفق ووضعت الحجاب الرمادى فوق حجابها الذى يضم فوطة الحيض ، كما كانا من قبل ، ثم هرولت خارجة من الحرم .

فى هذه الدنيا الوردية المتفتحة المزدحمة كانت عذرا تخشى الوحدة ، كانت تفكر فى الناس جميعا ، بينما لم يكن أحد يعلم ان لها وجودا فى الدنيا وانها قد ملت الوحدة وتريد زوجا ، كان ثمة آلاف من الرجال يريدون زوجة ، لو علموا بقلب عذرا المسكينة ، ربما فعلوا من أجلها المستحيل ، ولكن ، أنى لأحد أن يعلم ، كم من نساء ورجال ينامون الليل يحدوهم أمل الوصال ، لا يعلم أحدهم بحال الآخر ، آه لو نطقت هذه الوسائد والأغطية ، اذن لخاف الناس بعضهم بعضا .

كانت عذرا تقضى ساعات حياتها منتظرة ، كأنها دائما فى انتظار شخص يطرق باب الحارة يخطبها ، يمسك بيدها ويأخذها معه ، كان انتظارها يتجدد كل صباح حين تستيقظ من نومها ، لكن لم يكن أمامها سوى بائع الجاز يتردد على دارها لسنوات يبيع بضاعته ، كان هو نفس الرجل الذى يأتى كل يوم بثيابه المشبعة بالزيت والتى يتلقاها كزكاة

وشامته الغليظة على جفنه ، كان يدخــل البيت ، يتناول الوعاء من يد عذرا ، يملأه حتى نصــفه ويعيده لهــا ويمضى ٠

وأحيانا كانت فى أثناء انشغالها بالبيت يصــل الى سمعها صوت طرقات على الباب ، وكانت حين تسرع الى الباب لتفتحه فلا تجد أحدا ، حينئذ كانت توقن ان الأوهام تلعب برأسها ، كانت تختلق آلاف الأزواج يخطبونها ، وكانت تعجب بهم جميعا حتى من كان منهم على شاكلة بائع الجاز ، وعلى جفنه شامة غليظة ٠

كانت كل حياة عذرا شيئا ورحلتها الى قم شيئا آخر ، كان لذكريات هذه الرحلة ارتباط عذب بحياتها ، تعرفت فيها على أول يد خشنة رجولية فى حياتها ، أمسكت بها من تحت أبطها ــ قرب صدرها ــ يدا ســائق الاتوبيس ــ ليســاعدها على الركوب ، لم تغب ذكرى تلك الليلة عن ذاكرتها أبدا ، كانت تسترجع تفاصيلها دائما وتتلذذ بها ــ لذة شهوانية مجنونة ٠

كان الليل مظلما دافئا حين نزلت عند كشك نصرت ، نزل كل الركاب ، ونزلت عذرا أيضا ، ثمة رائحة رطبة عفنة تهب من ناحية البحيرة ، بدت النجوم وكأنها قتلت القمر ودفنته ، كانت تومض فى سماء حالكة السواد ، كان صبى السائق يضخ البنزين ، وكان السائق واقفا عند سلم

الاتوبيس يساعد النساء على الركوب ، اذ كان سلم الاتوبيس عاليا ، وحين قبض بيديه القويتين الغليظتين تحت أعلى ذراعها - قرب ثدييها - أفعم أنفها برائحة البنزين النفاذة، فأحست لذة لم تحسها من قبل أبدا ، تسارعت نبضات قلبها وحارت فيما تفعل ·

ألم بها دوار وخدر الى أن دخلت الاتوبيس واتخذت مقعدا ، كانت كمن رأت مناما لذيذا لم يكتمل ، طاردت بقاياه فى لهفة ونشوة ، تقلصت عضلات رقبتها عدة مرات من أجل أن تبتلع لعابها ، الا أن فمها وحلقها كان قد اعتراهما الجفاف ، ودون أن تدرى كان ذراعها الأيمن لايزال قابضا على جنبها ، كانت تحاول أن تحول دون فرار اللذة التى بلغتها ، خدرتها رائحة البنزين ·

مدت عنقها الى الأمام عدة مرات الا أنها لم تر شيئا ، ولكن بدا لها السائق فى الظلام رجلا غليظ العنق يرتدى ثيابا ستانية رمادية اللون ، خدرتها رائحته النفاذة والتى كانت لاتزال عالقة بأنفها ممتزجة برائحة البنزين واليد الغليظة ·

ظلت بعد ذلك زمنا تعتصر بيدها اليمنى فوق جنبها فى نومها وفى يقظتها فتتلذذ ، كانت رائحة الستان الرمادى النفاذة وعبق البنزين الحاد تبلغ أنفها فتتلذذ ·

مضى بعض الوقت وعذرا جالسة فى حديقة الفناء

تحت شجرة الرمان تنظر الى زهورها الحمراء وتعود الى التفكير فى زوج لها ، علا صوت بائع الجاز من وراء الباب ينادى : « بائع الجاز ، الجاز » ، نهضت عذرا من مكانها مسرعة ، وفجأة توقفت ، وضعت يدها على جذع شجرة الرمان القصـــير المعوج وتوزع قلبها بين الذهاب اليه والاحجام ، وأخذت تفكر بينها وبين نفسها :

« ليس هناك أسوأ مما هو كائن (لا لون أشد قتامة من السواد) ، ليكن ما يكون ، ربما يريد زوجة ، ليست جريمة ، لم الخجل ؟ ، ربما كان مثلى يبتغى القرين » ·

بلغت الباب ومدت الوعاء الخالى الى بائع الجاز . هذه المرة أبرزت يديها النضرتين من تحت عباءتها القطنية المزركشة أكثر مما اعتادت وأظهرت أساورها الزجاجية ليراها بائع الجاز ، تناول بائع الجاز الوعاء من يدها بانحناءته المعهودة ، وأخذ يصب الجاز ، مرة أخرى تخترق رائحة البنزين أنف عذراً فتسرع دقات قلبها ·

« ياعم يا بائع الجاز ، ألا تبيع البنزين ؟ »

« وفيم تريدين البنزين ؟ حذار ياست أن تصبى البنزين مرة أخرى فى المصباح فينفجر ! » ·

« أنا أعـرف انه ينفجر ·· ولكنى أريده لأغـــراض أخرى ·· » ·

« لأى غرض مثلا ؟ »

« للسيارة ٠٠ ، حقا ، أليست لك زوجة ؟ »

« ثلاث »

« وأطفال ؟ »

« أنا عقيم »

« حلالك أربع منهن ، ربما ترزق فيما بعد بطفل ، مايدريك ٠٠ لا ينبغى للانسان ان يموت دون ذرية »

« لا ياسيدتى ، يكفينى ما أنا فيه ، ومن له القدرة على ذلك ؟ ماذا فعلنا نحن لآبائنا ليفعله أولادنا لنا ؟! »

كانت عذرا لاتزال واقفة بالباب ، تنظر حائرة الى قطرات الجاز التى سقطت على الأرض ، بائع البصل توقف بحماره أمامها وسأل بصوت ينم عن ضيق : « سيدتى ، عندنا بصل خزين ، ألا تريدين ؟! ٠٠ بصل جيد ، بصل أصفهانى » ٠

من بعيد ، كان صوت بائع الجاز يطرق مسامعها : « بائع الجاز ! جاز » ٠

* * *

الحفــل الســعيد

جلال آل أحمد

حين عدت من المدرسة فى الظهيرة كان أبى يتوضأ على حافة البركة ، كانت تحيتى على لسانى حين بدأت الأوامر :

« تعال صب الميه ، واجرى هات لى الفوطة من فوق السطوح » ٠

كانت هذه عادته ، بمجرد أن تقع عيناه على أحدنا ـ سواء أنا أو أمى أو أختى الصغرى ـ كان يبدأ فى اصدار الأوامر ، مددت يدى فى البركة فغاصت الأسماك الى القاع ، وقال أبى :

« ايه ياجحش ، اتلكع شوية » ٠

عدوت صوب سلم السطح ، كان يحب الســمك حبا شديدا ، الأسماك البيضاء والحمراء فى البركة ، عندما كان يتوضأ لم تكن الأسماك تتحرك من مكانها ، ولكنى لا

أدرى لم كانت تغوص الى القاع بمجرد أن أدنو من البركة، كانت تخفض رؤوسها وتهز ذيولها فى سرعة ثم تهبط الى القاع ، على السلم وجهت اليها سبة أو سبتين ثم صعدت الى السطح ، كانت الشمس فى كل مكان ، اما عن الصهد فحدث ولا حرج ، كان جارنا يطعم الحمام ، جذبت الفوطة من على الحبل ووقفت أشاهد الحمام ، فهو على أية حال لا يخاف منى ، ألقيت التحية على جارنا الذى كان قد زوج ابنته مؤخرا وكان يعيش وحيدا بالبيت ، كانت لاحـــدى الحمامات حلقة تحيط بكاحلها ، كانت جميلة فى طريقة مشيها وفى هديلها ، قلت :

« عم أصغر ، حوالين رجل الحمامة دى عامل كده ليه ؟ »

قال : « ده مفيش حد عنده زيه ، تعرف ؟ امبارح قصقصت ريشه »

قلت : « قصقصت ريشه ؟! »

« أيوه ، واحد قل ذوقه معاى فخميته فى حدايتين من بتوعه » .

كان أبى قد حظر التحدث الى هذا الجار « الهايف بتاع الحمام » ، ولكن هل كان من الممكن طاعة أبى فى كل أوامره ونواهيه ؟ حدث مرتين أو ثلاث مرات ان سقط حجر من يد عم أصغر فى فنائنا فعلا صوت أبى ، وذات

مرة أيضا ولسوء الطالع كان والدى يتوضــأ فى البركة فرمى عم أصغر حجرا وراء الحمام فاذا به يســـقط فى بركتنا فذعر السمك ، وكان يوما ملؤه الصياح والوعيد ، فوجه أبى رغم وقاره وهيبته الى عم أصغر من السباب ما جعل شعرى يقف هولا ، أما عم أصغر فلم ينبس بكلمة ، ومنذ ذلك اليوم حظى عم أصغر باعجابى ، فكنت ألقى اليه السلام كلما سنحت الفرصة وأسأله عن الحمام رغم أوامر أبى المشددة ونواهيه ، وكنت أقول :

« يعنى اسمه الحداية ! »

حين سمعت صياح أبى : « ياجحش ! أنت فين ؟! »

لطفك اللهم ، ماجئت الا لفوطة أبى ، هرولت هابطا السلم · كدت أتعثر ، وعندما مددت له يدى بالفوطة وأنا أرتعد مذعورا سقطت قطرة ماء من يده على يدى وأصابنى الهلع ، كأنى تلقيت صفعة منه تماما ، فاستدرت ومشيت ، دق باب الحارة :

« اجرى شوف مين ، لو كان الحاج حسين قل له جاى » ·

كلما كان أبى يبتعد عن المسجد كانوا يأتون وراءه ، فتحت الباب ، كان ساعى البريد ، سلمنى ورقة ومضى ، لا كلمة ولاشىء ، كان أصلا يسىء معاملتنا ، لم يكن أبى يعطيه بقشــيشا ولا عيدية ، ولذلك أعوج معنا ، وكنت

مندهشا ، لم اذن كان يحضر أوراق أبى ورسائله ، وحتى لا تراوده تلك الأفكار فقد قررت بينى وبين نفسى أن أدخر تومانا من مصروفى وأعطيه له وأقول انه من عم الحاج ، أى من أبى ، كان كل أهـــل الحى ينـادونه بلقب « عم الحاج » ٠

« مين ياجحش ؟ »

أتى صوت أبى من داخل غرفته ، دخلت الردهة مادا له يدى بالرسالة قائلا :

« البوسطجى » ٠

« افتحه واقرأه ، أما نشوف المدارس دى علمتكم حاجة والا لأ » ٠

كان أبى جالسا على سطح الفرن يمشط لحيته حين فتحت الرسالة ، كانت أربعة سطور مطبوعة ، ســررت سرورا لا مزيد عليه ، اذ لو كانت بخط اليد وخاصة بخط الرقعة لأسقط فى يدى وبهت ، ولكانت تقريعات أبى قد بدأت ، ومع ذلك كان اسم أبى فقط هو المكتوب بخط اليد وسط السطور المطبوعة ، وتحته امضـــاء أحد شـــيوخ الحارات بحينا ، وقد أصبح مؤخرا أفنديا ، وحتى عام مضى كان على صلة وثيقة بأبى ٠

« أقرأ بأه ، ساكت ليه ياواد ؟ »

وقرأت : « بمناسبة ذكرى السابع عشر من ديسمبر السعيد وتحرير المرأة يقام حفل بمنزل ... »

فجذب أبى الورقة من يدى وسمعته يقول :

« ورينى ياجحش » .

وذهبت ، الذهاب من أمامه أفضل حين تتوتر أعصابه، فى الفناء سمعته يقول بتنغيم :

« الزنديق ابن الكلب ! الملحد ابن الملعون ! »

كنت معتادا على لفظ « زنديق » منه ، كان يقول لعم أصغر جارنا « يازنديق » أيضا ، ولكن مامعنى « ملحد » ؟ لم أكن قد عرفت معناها بعد ، ماذا كان مكتوبا بالورقة أصلا ، من النظرة التى ألقيتها عليها أدركت ان الأمر فى مجمله بطاقة دعوة ، أذكر ان اسم والدى الذى كتب فى وسط الورقة بخط اليد كان مختصرا للغاية ، فلم يرد بها ذكر ألقاب « آية الله » و « حجة الاسلام » وما الى ذلك من ألقاب تعودت رؤيتها فى كل رسائله ، اسمه ولقبه لاغير، وكتبت بعد اسمه كلمة « السيدة » التى لم أفهم معناها ، طبعا كنت أعرف ماتعنيه كلمة « سيدة » ، فقد كنت على أية حال فى الصــــف السادس ، وفى العام الماضى كنت أحصل على درجات عالية ، ولكن ، لماذا بعد اسم أبى ؟ لم أكن قد رأيت شيئا حتى ذلك الوقت .

ما ان مررت بجوار البركة حتى ذعرت الأســــماك

بأفواهها المستديرة وقد برزت من الماء الى النصف وأخذت تلوك فى هدوء ، ثم أدركت ان غليلى لم يشف ، فنثرت حفنة ماء عليها وجـــريت نحو المطبخ ، كانت أمى تقلى الباذنجان ، كان المطبخ معبأ بالدخان وقد احمرت عينا أمى ، كعهدى بها حين تعود من مجالس الروضة(*) ·

« سلام عليكم ، عندنا غدا ايه ؟ »

« آديك شايف ياماما ، عليكم السلام ، أبوك مشى ؟ »

« لأ لسه ·· »

كان الباذنجان المقلى قد رص على الطبق مقطعـــا أنصافا ونثر بجواره البصل المحمر ، وضعت فى فمى عددا من قطع البصل المحمر وقلت وأنا ألوكها :

« أنا جعان »

« روح أنت وأختك أفردوا الطبلية ، أنا طالعة حالا »

وضعت قطعتين أو ثلاث آخر من البصل المحمر ذابت فى فمى قبل أن أخرج من المطبخ ، كانت أختى جالســة مكان أمى بجوار ركن الفرن وقد أخذت تصنع من بقايا الجوارب الممزقة ببقجة أمى دمية ، قصيرة بدينة ودميمة ، قلت :

(*) الروضه : احتفالات التعزية عند الشيعة وتتلى فيهــــا الروضة بكاء على آل البيت ·

« يا براز الكلب ، مدلعة أوى وطالعة فيها ؟! »

وركلت أدوات لعبها بقدمى ، فصاحت :

« ياربى ! آدى عبـــاس المذلول جه تانى ، يابذرة الكلب ! » .

لم أقو على ضربها ، كنت جائعا وكان الباذنجان أحمر ورديا ، ولو عاقبتنى أمى لاعتصـــر قلبى ، لذلك لم أبق أمامها وذهبت منشغلا بأدوات لعبى ، نحيت كتبى جانبا وتناولت ألبوم الطوابع ونظرت اليه خشية أن تكون أختى قد عبثت به ، كنت قد مللت طوابع العراق وسوريا ، ولكن ماذا أفعل ؟ لم تكن تأتى الى أبى رســائل الا من هاتين الدولتين ، من بين هذه المجموعة كلها كنت لا أحب الا أحد طوابع العراق عليه برج ملتو كالثعبان وحاد عند قمته ، وقد وقف أمامه فارس فى حجم ذبابة ، كنت أتمنى أن أكون مكان ذلك الفارس ، أو حتى بجواره ..

« عباس ! »

صاح أبى مرة أخرى ، ياربى ، ماشأنه معى ؟ كانت صيحة من صيحاته التى كان يطلقها حين يريد أن يضربنى، فهرولت .

« تعال ياجحش ، روح الجامع وقول الحاج تعبــــان شوية ، وبعدين تجرى على بيت عمك قل له يسيب اللى فى ايده وييجى حالا » .

« ماتسيب الواد يتسمم له لقمة .. »

كانت هذه أمى ، لم أفهم متى خـرجت من المطبخ ، ولكنى كنت أعلم ان الخناقة على وشك أن تحتدم ويتسمم غداؤنا .

« ياوليه ياقبيحة ! برضه بتدخلى فى شئونى ؟ يعنى آخدك من ايدك دلوقتى راسك ومؤخرتك عريانين وأوديكى الحفلة ؟! »

كان وجه أبى قد احمر لدرجة انى خفت ، كم رأيت من عصبيته ، على و على أمى أو مريديه أو على تجار الحى ، الا أنى لم أره على هذه الحال أبدا ، حتى يوم ان قال لعم أصغر جارنا كل ما خرج من فمه ، هاجت أمى وماجت ولم تدر ماذا تقول وأنا أسوأ منها حالا ، انتفخت أوداج أبى وغدت أغلظ من الحبال ، لم يكن ثمة معنى للبقاء بالبيت ، بينما كنت أضع قدمى فى حذائى أتت أمى وفى يدها لقمة كبيرة وقالت :

« خد وروح جرى للمنحوس »

كان نصف اللقمة لايزال بيدى حين طرت خارجا من باب البيت ، كان الصهد حاميا ، ولم يكن للشمس وجود ، ألقيت ببقية اللقمة الى أوزتين فى الحارة ، وحين وصلت الى المسجد كنت قد مسحت فمى أيضا .

كانت الأحـــذية المهلهلة منتثرة عند الباب ، وكانت صفوف صلاة الجماعة أشدا اعوجاجا وفوضوية من صفوف أطفال المدرسة ، وكان مريدو أبى يتحدثون مثنى وثلاثا ويؤدون الأذكار ، لم تكن ثمة حاجة للكلام ، بمجرد أن رأونى نهضوا فرادى وتهيأوا للصلاة ، كانت عادتهم ان يدركوا حين تقع على عيونهم ان الحاج لن يأتى .

عدوت باتجاه السوق ، مررت بالكبابجى فتميع قلبى ، كان دخان الكباب يعبىء المكان ، ألقيت نظرة على شعلة النار والى أسياخ الكباب التى كان الحاج على يقلبها والى الوعاء المترع بقطع الجرجير ودوائر البصل فوق المنضدة ، ومضيت ، لم تكن محلات الشـــــواء تثير شهيتى أبدا ، بأبوابها الخلفية المغلقة ، وكأن بداخلها تؤتى الفواحش لاتناول الشواء ، كان المسمط صامتا يصفر وأوعيته فارغة، فهذا أوان البليلة على أية حال ، فكان سوق المسمط يروج فى أوقات الصباح ، الصباح البارد الضبابى ، كانت ثمة شاة صحيحة مسلوخة وقد تكورت فى أذان ضخم ورقبتها تشبه جذع الشجرة ، وعلى دكة بالناحية الأخرى أذان آخر ملىء بحبوب القمح وضع فوق مهراس كبير ، كبير جدا ، لا فائدة ، كان على أن أسرع الخطى وأخبر عمى والا فلا غداء .

عند طرف السويقة طباخ متجول وضع حلة حساء بين رجليه وأخذ يغرف والزبائن يرشفون ، كان معظمهم من

الفعلة بطواقيهم اللبادية تحت أبطهم ، وفى قلب ســـوق الاسكافية أقشعر بدنى من رائحة الجلد فأسرعت وانعطفت الى داخل السويقة ، هنا لم يعد هناك صـــهد ، التهبت أذناى ، تحت قدمى ثمة بساط من نشارة الخشب الناعمة ، وفى الأركان وعلى الجوانب من الألواح الخشبية مايهوى قلبك ، وكم كانت رائحتها زكية ، كنت أتمنى أن أمتلك ثلاثة من هذه الألواح فأجعل غرفتى زاخرة بالألواح ، أدق واحدا للكتب ، وآخر للأشياء الصغيرة وثالثا أعلقه أعلى منهما وأخصصه للكراكيب التى لا أود ليد أختى أن تصل اليها ، هاهو دكان عمى ، ولكن مامن أحد به ، وعند باب الدكان ترددت برهة ودرت حول نفسى فاذا بصبيه قد أتى لا أدرى من أين ، كان يعرفنى ، قال ان عمى كان يتناول غداءه بالمخزن ، فاتجهت نحو المخزن ، كان المنقل أمامه وقد جلس على أريكته الجلدية وعباءته على كتفه وأخذ يأكل اللحم بالياميش والأرز ، ألقيت السلام وعرضت قضيتى ، وبينما كان هو يلوك طعامه كنت أنا أقص عليه قصة الرسالة التى كانت قد أتت والحديث الذى دار بين أمى وأبى ، قال: « عجب ، عجب » مرتين أو ثلاث وأجلسنى ونثر لى ملعقة من اللحم على كسرة خبز فابتلعتها ونهضنا ، خلع عمى عباءته من فوق كتفه وطواها تحت أبطه وطوى طاقيته فى جيبه ، وخرجنا من باب الدكان ، كنت أعلم السبب فى ذلك، فى العام الماضى وفى نفس هذه السويقة أمسك شرطى بخناق عمى لأنه لم يكن يضع الباريه على رأسه ، ولم

يتركه حتى تمزقت عباءته ، لا أنسى أبدا امتقاع لون بشرة عمى ذلك اليوم حيث صار بلون الجبس الأبيض وقد أخذ يتحدث عن الكرامة ويتشـــفع بالله ورسوله ، الا أن ذلك الشرطى أدخل يده فى عروة كم العباءة وجذبه فانشق الكم فى يده فرماه ومضى ، فى ذلك اليوم أيضا وتماما مثلما حدث اليوم لا أدرى ماذا حدث فأرسلنى أبى الى عمى وكنا فى طريقنا الى البيت فحدث ذلك الحادث .

فى الطريق سألنى عمى ما اذا كان أبى قد جدد جواز سفره ، ولم أكن أعلم ، كلما كان أبى يريد القيام برحلة الى قم أو قزوين كنا نقيم هذه المراسم ، كان يعطينى جواز السفر فأحمله الى عمى الذى يأخذه بدوره الى ادارة الجوازات ويؤدى المطلوب ، لذلك سأل عمى ما اذا كان مدير الادارة قد أتى الى دارنا اليوم ، قلت لا ، كنت أعرف مدير الادارة ، حين كنت أذهب الى المدرسة فى أوقات الصباح التقيت به مرة أو مرتين بدارنا ، كأنه كان أحد مريدى أبى ، كان كلما أتى لم يكن ينتظر بالباب كان يفتح الباب ويقول « ياساتر » ويتجه مرة واحدة الى غرفة أبى .

وعندما وصـــلنا الى البيت ذهب عمى الى أبى ولم انتظر ، هرولت الى الطبلية التى لم تترك أمى سوى ركن منها لى ، كان يبدو من قطع الباذنجان الباقية انها لم تأكل شيئا ، كانت تفعل ذلك كلما احتدمت فى جدال مع أبى ، تناولت غدائى فى عجلة ومضيت ، حين مررت أمام باب

غرفةأبى سمعت صياحه عاليا وكنت لا أزال أسمع نفس ألفاظه « الزنديق « الملحد » ، لابد انه يسب نفس الرجل الذى أرسل اليه برســـالة ، كم كنت أود أن أتجه الى السطح فأشاهد حمام عم أصغر ولو لمرة واحدة ، الا أن الجو كان غائما ولابد أن الحمام قد ذهب الى مكان ما وقد تأخرت على المدرسة ، لم أكن قد تأخرت كثيرا ، الا أن موقفى كان يحتم على أن أسرع بالذهاب ، نعم ، مرة أخرى نفس قضية الســـــروال القصير ! ، على أية حال لم أكن أستطيع الذهاب الى المدرسة بسروال قصير ! ابن سيد الحى ! ماذا يقول الناس ؟! واذا رآنى أبى ؟ وبصــــرف النظر عن كل هذا لم أكن أنا نفسى أحب ذلك ، مثل هؤلاء الأطفال المدللين الذين يمشون صفوفا ، والصفارات تتدلى من أعناقهم « والسروال والكاب ٠٠ » ، نعم ، لم يعد أحد يعجب بهذا الســـــخف ، لهذا فقد طــــردنى الناظر من المدرسة : « ياتقصر بنطلونك ياتروح عالكتاب » ، كان ذلك فى بداية السنة تماما ، أى فى أواخر شهر سبتمبر ، وفى ذلك الوقت خطرت لأمى فكرة ، خاطت كبسولة فى أرجل الســـروال من الداخل ، وخاطت عروتها أيضا فى أعلى السروال ومن الداخل أيضا ، وعلمتنى أن أرفع السروال من الداخل وأزرره حال وصولى الى باب المدرسة ، ثم أحله عند الخروج وأجذبه الى أسفل ، وقد كان ، صحيح ان سروالى كان يتكور ولا أستطيع أن أجرى ، ولكن ٠٠ ، وفى ذلك اليوم أيضـــا وفى رهان مع حسن « التخين »

فى حمام ســـباحة المدرســـة وصل الماء الى أرجـــل سروالى فتبللت وسخر منى الأطفال ، ولكن على أية حال تخلصت من مضايقات الناظر ، ولهذا كنت أحاول جاهدا أن أصل الى المدرسة قبل الجميع وأغادرها بعد الجميع ، وحين كان جرس المرواح يدق كنت أتعمد التأخر فى دورة المياه حتى يمضى الجميع فلا يرى أحد أى حيلة أحتال بها بسروالى ، ورغم أن الأطفال كانوا يدركون ولا يتدخلون الا أنهم أطلقوا على لهذا السبب « عم الشيخ » ، فى البداية كنت أضيق بالأمر ، ولكنى حين فكرت فيما بعد رأيت أن الأمر ليس بهذا السوء ، فهو لقب على أية حال وأفضل من « أبو ريالة » وهو لقب ألفة الفصل ·

حين بلغت باب المدرسة كنت غارقا فى العرق من طول ما عدوت ، كانت المدرسة مكتظة والناظر يقف بالشرفة يضرب بالسوط على سرواله ، ما كنت لاستطيع أن أرفع سروالى فى ساحة المدرسة فانهمكت فى رفعه فى الحارة واذا بى أسمع من يقول :

« الله يلعنكم ، شوف العيال ووجع القلب بتاعهم ! »

رفعت رأسى ، كانت امرأة عجوز على رأسها طاقية سوداء عريضـــة بارزة الطرف وقد ربطت تحتها طرحة أدخلت أطرافها فى ياقة ثوبها الفضفاض الطويل ، قلت لنفسى : « الولية دى مالها ومالى ؟ » ثم عدوت الى داخل المدرسة ·

فى العصر حين عدت من المدرسة كانت أختى الكبرى قد جاءت الى دارنا بطفلها الرضيع ، كان بيتهم فى أحد الأزقة المجاورة لنا ، وكان بامكانها زيارتنا والعودة فى أثناء النهار ، كانت تتسقط أخبار الحارة وبمجرد أن يخرج زوجها تأتى مهرولة ، كانت تلف رأسها بطرحة حمراء داكنة ، لابد أنها عائدة من الحمام الشعبى ، كان وليدها يبكى ويزعق بصوت ممل ، وكان الحاج حسين مؤذن المسجد يروح ويجيء بالشيشة والشاى ، لابد أن أبى لديه ضيف ، كانت أمى تصب الشاى وتقول أختى :

« عارفة يانينة ؟ الكرارية وقعت على دماغه ، خسارة انهم شالوا مدفع « لؤلؤ » . وايه ذنب العيل اللى عديتيه من ماسورته مرتين وكان زى ما تكون ميه دلقتيها على نار » .

تذكرت أننى حين كنت بالصف الأول كم صعدت فوق هذا المدفع ولعبت بالأسود على جنبيه ، وكنا نلعب الاستغماية ونختبيء بين عجلاته ، وكنا ندحرج الحجارة على جوانب البركة المجاورة له وسط أشجار الصنوبر العالية بميدان أرك ، وكان الحجر يتدحرج فوق ماء البركة فيحدث سبع موجات بل وعشرة ، أى متعة كانت ! رشفت شايى ومعه كسرة خبز .

ـ « ياللا يابنتى شوفى لك صرفة تانية دلوقت .

شيليه وخديه عند القسم وعديه تحت ماسورة بندقية » .

ــ « وهو حد يقدر يهوب ناحية القسم اليومين دول يا أمى ؟ أعوذ بالله !

ــ « طيب يابنتى ليه ماتديهوش لجــوزك يوديه ؟! يعديه من تحت ماسورة بندقية تلت مرات ، وبعدين يدى صاحب البندقية حتة سكر نبات » .

وظلتا تتباحثان عما اذ كان صـــاحب البندقية هو الحكومة أم الحراس حتى سكبت كوبا آخر من الشاى فى جوفى وأسرعت نحو ألبوم الطوابع ، ولم أكد أبلغ صفحة البرج الملتوى حتى بلغنى صوت أمى :

ــ « روح ياحبيبى ، هات حزمتين تلاتة قش وحطهم جنب الحمام ، اجرى الله يبارك لك » .

تجاهلت الأمر وأخذت أقلب فى الألبوم وكأن أمى لم تقل شيئا ، فجاءنى صوت أختى هذه المرة :

ــ « اختشى على دمك ياعجل ، عايزها تروح تجيب هى القش ؟ الكسل طالع على وشك ودماغك ، أنت اللى كنت طوع » .

كان هذا الحمام بطرف الدار وقد تحول أيضا الى مكان للتعزية ، فمنذ ان أزيلت الخيمـــة من فوق رؤوس النسوة بالحارة قرر أبى اقامة حمام فعمر دارنا سبعة أيام فى الأسبوع ، أسوأ ما فى الأمر ان كل نساء العائلة

كن يفدن ، والأسوأ من ذلك ان احضار القش كان على أنا ، من القبو القابع عند نهاية الفناء كان على أن أحضر على الأقل عشر حزم من القش وانثرها فى كانون الحمام فى ركن من المطبخ ، مرتان فى اليوم على الأقل ، صحيح انه منذ أن أقيم الحمام تخلصت من شر الذهاب الى الحمام برفقة أبى ، حيث كان يسلمنى الى الحلاق كل مرة ليعمل الموسى فى رأسى فيحفر جلدها لتصبح كرأس أبى الا أن هذا لم يكن بالأمر الذى يستحق انشـــغاله ، كانت يدى تجرح كل مرة فى موضع أو موضعين ، فقد كانت أفرع القش معوجة وشائكة ومليئة بالقشـــور ، وكان على أن أصعد فوق كومة القش وأرفع من فوقها حزمة بحزمة والا علت صيحات أبى معترضا على سحب القش من أســـفل الكومة ٠

حين وصلت الى القش هبت الطيور الداجنة صائحة أمامى ، كان الجو غياما فظنت الطيور أن الليل قد جن فآوت الى أعشاشها مبكرا عن عادتها ، وفى أثناء التقاطى للحزمة الثانية مر فأر بجانب قدمى وتســـلل بين أعواد القش ٠ كان ضئيلا جدا ، لابد أنه كان وليدا ، فذهبت وأحضرت ملقاطا وحاولت طويلا أن أخرجه دون جدوى ، فما كان منى الا أن تركته وعدت الى أكوام الحطب ، كنت التقط الحزمة الرابعة حين سمعت طرقات باب الحارة ، لابد أنه الحاج حسين يفتح الباب ليخرج ، لم أبرح مكانى ، ثم حملت الحطب الى داخل المطبخ ، كانت أختى تصنع

بعض الحلوى وأمى تعبىء لمبات الجاز بالكيروسين ، قالت حين رأتنى :

« أنت مابتسمعش يابنى ؟! اجرى افتح الباب ، الحاج حسين رايح الجامع » .

أدركت أن أبى لم يكن يريد الذهاب الى المسجد ، كان الجو يوشك على الاظلام حين بلغت الباب ، كان ثمة ضابط بوليس وفى أثره امرأة على رأسها طرحة ، فى عمر أختى الكبرى ، كانت طرحتها قصيرة ومنقوشة بورود ، لم تكن امرأة بهذه الهيئة قد دخلت دارنا أبدا من قبل ، كانت بيدها حقيبة وتمشى على أطراف قدميها ، حييت وتنحيت جانبا فدخلا ، على كتفى الرجل كان ثمة نجمتان ولم أكن أعرفه ، ترى ما شأنه ؟ فى أول الليل مع هذه المرأة المحجبة؟ منذ الصباح وحتى الآن كانت تجرى فى دارنا أحداث كلها جديدة ، فجأة لا أدرى لم خفت ، كانت الردهة مظلمة فلم يلحظوا خوفى ، ربما استجدت مشكلة فيما يتعلق بمكانة أبى الدينية ؟ ، لعله لهذا السبب لم يذهب الى المسجد اليوم لا فى الظهر ولا فى المغرب ، تركت الباب مفتوحا كما هو وأسرعت لأخبر أمى ، جذبت طرحتها على رأسها وأتت الى الردهة وألقت السلام وسألت عن الأحوال وقال الضابط لأمى كلمات فهمت منها أنه ليس غريبا ، فاطمأن قلبى ، ثم قال الضابط :

« هاسيب بنتى أمانة عندكم وأروح للحاج » .

دخلت أمى والفتاة ، وتقدمت آنا ومن ورائى الرجل الى غرفة أبى ، ثم عدت لأحضر الشاى ، رغم ان أبى لم يكن قد أمر الا أنه كان من الواجب أن نقدم الشـــاى للضيف القريب ، حين عدت بالشاى وجدت عمى معهما ومأمور القسم أيضا ومعه شخص آخر ، كالسوق ، جلسوا جميعا حول المدفأة ، عمى الى يمين أبى والآخرون كل فى ناحية ، حين وضعت الشاى كان الضابط يتحدث باللغة الفصحى قائلا :

« نعم ياحاج ، هى من صميم اختصاصك ولك أن تقوم بتنظيمها بنفسك » ·

فخرجت ، مامعنى « اختصاص » ؟ سمعت اليوم العديد من الألفاظ الجديدة ! أمى لاتعرف معانيها ، لو كان أبى فى حالته العادية أو خالى البال لذهبت وسألته عنها ، كان دائما يحب هذا النوع من الأسئلة ، أو حين أعطيه بوصة يبريها لأكتب بها خطا كبيرا ، وفهمت أيضا أنه حين يكون لى طلب لديه أو أريد منه مالا كنت أذهب اليه بواحد من هذه الأسئلة أو ببوصة مكسورة السن ، ثم قررت الذهاب لأرى من تكون تلك الفتاة ·

كانت أمى جالسة على الأرض وقد أجلستها فوق الصفة، مكانها ، ثمة حذاء عالى الكعب عند الباب ، تماما كأنه رجل طويل القامة وقف فى صلاة الجماعة وسط صف من الراكعين ، ثمة عطر بالغرفة لم أدركه لأول وهلة ، لكنى

تذكرت فجأة ، كان يشبه ذلك العطر الذى يفوح من مدرسة الألعاب الرياضية بمدرستنا ، خاصة فى صدر الصباح ، نعم ، كان عبيرا من ذلك النوع ، كانت شفتاها قانيتين وقد اتخذت ركنا من الصفة وطرف اللحاف يغطى قدميها ، كانت تقول حين دخلت :

« الهانم مزاجها مش رايق النهارده ؟ »

قالت أختى : « لا ياحبيبتى ، ده بس الواد قلبه بيوجعه ، قلت أديله سكر مغلى يمكن يروق ، لكن مفيش فايدة » .

سألتها أمى : « وحضرتك عندك كام عيل ؟ »

فطأطأت الفتاة رأسها وقالت : أنا لسه فى الدراسة » .

ــ « دراسة ايه ؟ »

ــ « بادرس توليد » .

وهزت رأسها وضحكت ، اتجهت أمى الى أختى قائلة :

ــ « ومستنية ايه يابنتى ؟! قومى ورى عيلك للست ، قومى لحد ما أروح أجيب لكم شاى » ، وقامت وخرجت ، أحضرت ألبوم الطوابع من غرفتى وأخذت أقلب صفحاته بلا وعى اذ كنت منتبها الى أختى التى فكت لفة الطفل فوق الصفة ، فتحسست الفتاة بطنه التى كانت تشبه بطن أسماك أبى البيضاء ، ولم تكد تنطق حتى علا صياح أبى من غرفته،

كان ينادينى ، ألقيت ألبومى على حافة النافذة وعدوت كانت أمى عائدة من عند باب غرفة أبى ، قلت :

« انتى اللى جيتى تقدمى الشاى للضيوف ؟! »

« قطع لسانك ياقليل الأدب » .

دخلت غرفة أبى ، كان يريد شايا وكان على أن آخذ الشيشة لأغير الحجر ، فى اللحظات التى قضيتها فى جمع الأكواب وحمل الشيشة سمعته يقص حكاية حرب عمرو بن العاص ضد جيوش الروم ، كنت أعرفها ، لو كان ضيفه موظفا لحكى له قصة رحلة الهند ، ولو كان تاجرا لحكى له عن رحلاته الى كربلاء ومكة ، والآن ثمة ضابطان بنجوم على أكتافهما بالغرفة ، خرجت وأحضرت الشاى وعدت وكانت أمى قد غيرت الشيشة أيضا ، فحملتها ، كان أبى قد وصل الى وقوع عمرو بن العاص أسيرا فى يد الروم ومثوله بين يدى قيصر الروم ، لم أطق صبرا ، ولم أكن أطيق أيضا دخول حجرتنا فأرى عورة ابن أختى ورجليه المبللتين بالبول ، وكان قد أصابنى الامتعاض أيضا من عطر تلك الفتاة فهو نفس عطر مدرسة الألعاب ، فخرجت الى الحارة ، لم يكن ثمة أثر للأطفال ، لابد أنهم لم ينتظرونى ومضوا ، كنا نتجمع على ناصية الحارة ساعة الغروب ونقوم بعمل شىء ، كنا نخرج الى الشارع ونقلد الأفندية ونخطف الطواقى من فوق رؤوس الفعلة ونلهو بها ، أو كنا نلعب بحارة دارنا ، أو نتبادل الأفلام أو الأشياء من هذا

القبيل ، كم كنت أود أن آخذهم لأعرض عليهم صـــورة لطرزان كنت قد رسمتها عصر نفس ذلك اليوم بالمدرسة ببوصة جديدة ، بخنجره حول خصره وهو معلق بحبل يحيط بمعصمه ويده الأخرى علي فمه يقلد زئير الأسد ، ولكنى لم أجد أحدا منهم ، ماذا أفعل ؟ جلست قرب الباب أرقب الناس ، أكثر ما كان يستحق الفرجة ، كان صوت « هو الله » مسموعا من داخل الحارة ، فهو لابد قادم على مهل كعادته كل ليلة يضرب بعصاه على الأرض ورأسه متجه الى السماء ، وفى أعقاب كل دعاء واستعاذة كان يقول « هو الله » ثم يعيد ما قال ، وأتى بائع اللفت ومضى ، لم يكن بأوعيته شىء ظاهر ، ولكنه كان ينادى ، امرأة تتشح بعباءة سوداء أخرجت رأسها من داخل البيت المقابل وألقت نظرة داخل الحـــارة وبعد أن تلفتت حولها هرعت الى الخارج وسارت مسافة ثلاثة بيوت ودفعت أحد الأبواب محاولة الدخول الا أن الباب كان مغلقا ، وظلت تتلفت حولها بينما كانت تطرق الباب طرقات متلاحقة ، وفى النهاية فتح الباب وظلت مختفية بالداخل ، وفجأة سمعت :

« هوب ، قفشتها ! »

كان هذا أبى الفضل ، أدرت رأسى ، كان يبحث عن شىء فى يده .

« ياملعونة ، كويس انى قفشتك ، طير مسمن » .

كان الجو مظلما حالك الظلمة ولم يكن بمصباح الحارة

أى رمق ولا أدرى كيف كانت عيناه تريان الذباب فى هذه الحلكة ، وفى هذا البرد الزمهرير أيضا ، ربما كان يتخيل ؟ كان جارنا على بعد بيتين ، وكان عقله قد خف من زمن ، كان يجلس بباب بيته من الصباح حتى المساء يتصيد الذباب ويقال أنه كان يأكله ، لكنى لم أره يفعل ، يبدو انه كان يتخيل اصطياده ويتحدث اليه قائلا :

« هاعمل عليك شوربة تمام » أو « امبارح قفشت دبانة أد العصفورة » أو « ماعندكش فكرة وراكها كانت لذيذة أد ايه ! »

فى بداية أمره كان وسيلة طيبة للضحك وكانت مشاكسته من ألعابنا وقت العصر ، اما الآن فلم تعد السخرية منه ممكنة ، كانت زوجته تغسل لنا الملابس ، مرة كل عشرة أيام، وكانت تقول انها تضربه باستمرار وتطرده ، الا أنها رأت أن هذا لا يرضى الله فتعود وتهيىء له طعامه ، قلت أذهب وأتحدث اليه قليلا ، فذهبت وقلت :

« كان طعمها ازاى يابو الفضل ؟ »

قال : « بطعم القمح ، ماعندكش فـــكرة ! كانت اد العصفورة » .

قلت : « يمكن بيتهيأ لك ؟ بتلاقى الدبان فين فى البرد ده ؟ » .

قال : « وأنت ايه عرفك ؟ أنا باقرا تعازيم وهو بييجى لوحده ، اصبر ! »

ووضع يده فى جيب سترته الرثة وأخذ يبحث عن علبة الكبريت التى كان يخفى بها ذبابة فلم أتحمل المشهد ، لم اجد ما أقوله له ، فنهضت عائداً الى البيت ، سمعت صوت الباب ووقعت عيناى على الضابط وابنته يخرجان ، لابد أن الأمر كان سيبدو غير لائق لو أنهم رأونى بصحبة أبى الفضل المخبول ، فاختفيت على الفور واختبأت وراء ظهر أبىالفضل فخطر ببالى : « بتعمل كده ليه ؟ ودول يعرفوا أبو الفضل منين ؟! » لكن كان قد فات الأوان واذا خرجت فرأونى لازداد الأمر سوءا ، وعندما مرا من أمام أبى الفضل كانت الفتاة تقول :

« يعنى ايه جواز متعة ؟ »

قال الضابط : « كلها مسألة ساعتين ياحبيبتى ، يادوب تروحى معاد ضيفة ·· »

« آه ، قفشتك ، تعالى شوف سمينة اد ايه ! »

لم يدعنى أبو الفضل أسمع بقية كلام الضابط ، عم كانا يتحدثان ؟ هل تقرر ان يتزوج أبى من الفتاة زواج متعة مؤقت ؟ ولم ؟ آه ··· آه ··· فهمت ·

نظرت فى علبة الكبريت وكانت خالية ، الا أنى لم أطق خداعه أكثر من ذلك ، فعدت الى البيت ·

كان الباب مفتوحا ، وفى ظلمة الردهة سـمعت عمى يقول :

« اما دى عجيبة ، عجيبة ! بنت العقيد ؟! »

قطع وقع أقدامى كلامه ، وعندما اقتربت رأيت مأمور القسم أيضا ، ألقيت عليهم السلام دون وعى ومضيت مندفعا الى غرفتنا ، كانت أختى الكبرى قد ذهبت ، وكانت أمى تكافح بالمطبخ ، وكان دخان الحمام يتصاعد ، كنت فى غاية الارهاق ، لم تكن لدى القدرة حتى لانتظار العشاء ، خلعت ثيابى واستلقيت بجوار الصفة ، كانت رائحة الدخان تخترق أعماق أنفى ، وكنت أفكر فى أبى الفضل وفى علبة كبريته الخاوية والاكتشاف الذى اكتشفته ، فسمعت عمى يقول :

« ايه يامرات أخويا ، العيار عدا من جنب دماغك ، ها ! كنا هنجيب لك بلوة على آخر أيامك .. »

كان عمى ينادى أمى بـ « مرات اخويا » ، مثل « مرات عمى » ، وسمعت صوت أمى تقول :

« أنت تقصد البت دى ياعمى ؟ الله لا يقدر ! الهى تتقلب على بوزها » .

وقال عمى : « مش هاتحطى الدكك جنب البركة ؟ الدنيا بردت » .

وفى صباح الغد حين ذهبت الى البركة لأتوضأ رأيت باب غرفة أبى مغلقا ، وكانت الأسماك لاتزال راقدة بقاع البركة ، اما العملات الملونة فكانت منثورة فى الأركان ، متجمعة ومتفرقة ، وعلى أحجار البركة بقعة دم ، فهمت ان

أبى لابد قد سافر ، كلما كان يسافر الى قم وقزوين كان يغلق باب غرفته بالمقفل ، وفى كل ليلة يتغيب فيها عن البيت كانت القطط تنتقم لى من أسماكه ، وحين عدت الى الغرفة سألت أمى :

« الحاج راح فين ؟ »

« مش عارفة يابنى ، ده مشى الفجرية ، عمك كان بيقول انه كان عايز يروح قم » .

وعندما كنا نشرب الشاى قالت ان حمام عم أصغر سرقه لص ليلة أمس ، وانه كان يولول ، صعدت اليه على سطح البيت كان أبى قد سافر ولم يكن ثمة مانع فى لقائى بعم أصغر ، كنت فى ضيق شديد ، كان الجو غائما والبرد قارسا ، كانت الأعشاش كلها خاوية ولا صوت يصدر عن سطح الجيران ، وكانت فضلات الحمام تميل الى البياض .

* * *

التدريس فى ربيع بهيج(*)

بهرام صادقى

دعنا نتخيل ــ ان شئت ــ ان كلينا جالسان فى فصل مدرسى ، لو بدا ذلك الأمر سخيفا فى نظرك أو خشيت أو كنت تريد للموقف أن يتسم بمزيد من الرسمية وبالقرب الى الواقعية فاننا نستطيع أن نفترض اننا جميعا جلوس فى فصل مدرسى ، جميعا ، حسن ، بهذا سيكون لدينا فصل له قيمته قبل أن يعرف الطلاب بعضهم بعضا أو يتعارفون ، كما أننا سنقيم فصلنا فى غرفة نظيفة واسعة بها ما يكفى من الهواء والنور ، ومقاعد بسيطة مريحة ، وربما نعلق سبورة كبيرة على الجدار ومعها ممحاة وقدر كاف من الطباشير الملون ، ولحسن الطالع أن فكرة انشاء هذا الفصل قد خطرت لنا فى فصل مناخى محبوب ، فى هذا الربيع البهيج ، من ثم فلن نحتاج الى مروحة أو مدفأة ، خريطة

(*) نشرت فى كيهان هفته (٢٨ اسفند ١٣٤١/١٩٦٣) .

وبعض صور لمواقع تاريخية وصور لعدد من العظماء تكمل الصورة ، ودعنا نفترض ان اصدقاءنا ومعارفنا وعائلاتنا سيعدونا من المحظوظين فيهنئوننا على أننا جزء من فصل كهذا ويتنبؤون لنا أو يتمنون مستقبلا باهرا ..

حقا اننا لممنونون لهم ، الا أننا حتى الآن لانزال حيث كنا حين بدأنا : لانزال فى الخيال هائمين ومع ذلك فان الموقف يتحول شيئا فشيئا الى الجدية بالنسبة لنا ، ليس من الواضح من نكون ومن أين أتينا ، نرى بعضنا البعض بالفصل القيم المعد جالسين على مقاعد بسيطة مريحة ، وكراساتنا ، وأقلامنا أمامنا ، ونرعى قواعد السلوك والظروف المشجعة على التعلم ، نتبادل النظرات المتمعنة ونتمنى التعارف ونمهد السبل الى صداقات مستقبلية الا أن المشكلة الأساسية هى أنه ليس ثمة دليل على وجود مدرس بعد ..

مر ربع الساعة منذ دق الجرس فهرعنا الى الفصل جميعا ، ولكن ليس ثمة دليل على وجود مدرس أو ناظر بعد ، كما أنه ليس ثمة كتاب مدرسى ، ولم يتم تعيين ألفة للفصل ..

نعم ، تبدو السبورة نظيفة ولم يسبق استخدمها ، ولكن ربما كان بعض من الناس خارج المدرسة مستغرقين فى أفكار ترفية خيالية صعبة التحقيق ، فيظنون على سبيل

المثال أن هذا الفصل رمز لأحجيةأو لفكرة فلسفية ملغزة وأن طلابه ممثلون لنماذج انسانية متنوعة وعقائد وأنماط حياة متفاوتة ، يا للهزل ! أنتم أنفسكم شاهدون على أننا قد استحضرنا صورة هذا الفصل وتخيلنا مقاعده وخرائطه على هذا النحو وذاك ، وزعمنا أيضا ألا أحد منا قد عرف الآخرين ، ونزعم كذلك أن المدرس لم يصل بعد ، والوقت يمر ، الأمر كله لعبة ، تسلية بسيطة صممت لشغل وقت فراغنا ، وكما تعلمون ، فان الأشـــــياء حين تقوم على افتراض يمكن لأى شىء أن يقال وينفذ دون ماهدف محدد فى الخاطر ، بل ولكم أنتم بالطبع أن تزعموا أن فكرة هذا الفصل ماهى الا حلم من أحلام المجانين ممن يجدون فى السخرية من الناس متعة ، وحتى ان كان هذا ظنكم فلكم بل وعليكم أن تنأوا بأنفسكم عن مدرســـتنا وتكفوا عن التلصص خلال النافذة وعن ازعاجنا ، والآن امضوا الى حال سبيلكم ٠

فى الصف الأمامى ترون حسناء زرقاء العيون شقراء الشعر ، يبدو أنها تعلم أن حسنها الآخاذ يكمن فى عينيها اذ أنها تستدير من آن لآخر الى الوراء وترمق الآخرين بنظراتها ، جمال أنفها الدقيق ورقة شفتيها — على نقيض الواقع القبيح حولنا — قد خلب لب الطلاب جميعا ، حتى الاناث القلائل بالفصل ، يتصور الطلاب لبرهة أن هذا ليس بفصل دراسى وانهم ليسوا بداخله ، بل هو ليل والقبر فيه منير وقد هبط الملائكة للاستجمام على الكلأ الأخضر

الناعم والحسناء الغامضة ترقص بثوبها الأبيض الفضفاض ، وان لم تكن ترقص فهى تبدو على وشك أن تفعل ٠٠

هل ندعها تستمر فى الرقص ؟ للشيوخ والشباب والفتيات ممن أتوا الى هذا الفصل باختيارهم أن يمنحوا الاذن بذلك أو يمنعوا ، ولكن لصالحهم أن ينهضوا الآن ، اذ أن هناك وقع خطوات تسمع ، الباب يفتح ، يبدو أن أحدا يريد أن يدخل الغرفة ٠

« شكرا ، تفضلوا بالجلوس » ٠

صمت ٠٠ صمت ، يخطو المدرس جيئة وذهابا ، رأسه على صدره ، ليس من الطلاب من يراه فى وضوح ، حتى الجالسين بالصفوف الأمامية ، يا للمأساة ! أنهم لا يميزون معالم جسمه أو ملامح وجهه ، من فضلكم ، كونوا رحماء ولا تفترضوا أنى أكذب حين أقول انهم لا يرون الا خطا باهتا بلا ملامح يتحرك أمام أعينهم ، ويسمعون صوتا ٠٠ نعم ، لا يسمعون الا صوته ، هذه المرة لكم أن تتخيلوا صوته جهوريا شديد الوضوح ٠

فجأة ، يتوقف المدرس عن الخطو (يظن الطلاب ذلك ، اذ لم يعودوا يسمعوا وقع قدميه) ، قبل أن أسجل الغياب، أحب أن أعرف ما تودون دراسته اليوم ، ما تريدوننى أن أناقش ، وما الى ذلك ، من فضلكم ، ارفعوا أيديكم واطلبوا الاذن قبل الكلام ٠

« أنا » أنطلق صوت أجش من آخر الفصل ٠

المدرس ينظر فى اتجاه الصوت ، ولكن وللغرابة لم يكن هو أيضا يكاد يرى أيا منهم فى وضوح ، كتل داكنة غامضة ذات أحجام وأشكال متشابهة قد صفت متجاورة أمام عينيه ، لا يمكنه أن يميز بينهم ٠

يقول المدرس : « تفضل »

« هلا فسرت لنا سر غيابك ؟ »

بين المدرس وطلابه الستين أو السبعين لا تتردد الا الكلمات فى الفصل الكبير ، يرى الطلاب بعضهم بعضا ، المدرس يرى نفسه ، أما المدرس والطالب فلا يرى أحدهما الآخر ، لا يعرف أحدهما من يكون الآخر وما هيئته ، نفد صبر الطلاب ، يتبادلون النظرات بعيون متسائلة : « لم لا نرى المدرس فى وضوح ؟ هل العيب فى عيوننا ؟ هل هو خطأ الناظر ؟! » ، والمدرس يتساءل ما اذا كان ضغط الدم العالى أو الخلل العقلى أم أنها علة أخرى قد حالت بينه وبين رؤية طلابه وأدت به الى افتراض انهم ظلال غامضة بلا ملامح ٠

« لم تأخرت ؟ آه ، نعم ، آسف جدا ، كانت دعوة الناظر غامضة تماما ، قضيت بعض الوقت أفكر فى الآمر . كان خلق هذا الفصل بهذه العجلة وبطلاب غرباء ، ودونما هدف محدد أمرا شديد الغرابة مثيرا الدهشة » ٠

يرد الصوت الأجش من آخر الفصل ، يدير الطلاب رؤوسهم الى ذلك الزميل الذى غدا المتحدث باسمهم ، ربما لاستطاعتهم أن يروه فى وضوح ، الا أن حسناء الصف الأمامى تفضل ألا تعود فتنظر الى الوراء ، اذ تقلصت عضلات رقبتها ، فتنظر الى السبورة ٠

« ولكن سيدى ، رجاء أن تأخذ فى اعتبارك اننا قد اتفقنا على تكوين هذا الفصل بهدف زيادة معارفنا وربما عقد صداقات جديدة ، بل واتفقنا على أن نطلب من الناظر أن يتخير لنا مدرسا قديرا من ثم فاننا لا نرى ضرورة لكل هذا التفكير والعسف » ٠

« آه ، نعم ، فهمت تماما ، لكنى كنت بحاجة الى مزيد من الوقت قبل أن أبذل الجهد فى تخيل أن المرء يمكن أن يتقبل دعوة كهذه من الناظر ويقوم بالتدريس لفصل كفصلكم هذا ، ربما كان هذا سر غيابى » ٠

يفتح المدرس كتابه المخطوط وينادى : « ياسيد ٠٠ يا آنسة ٠٠ » ، ما الفرق عنده أن نادى الأسماء أم لم يناد؟ انه لا يرى أيا من الطلاب بما يكفى لأن يميز بينهم ، فيطوى كتابه ٠

فجأة تنهض الحسناء ٠ (هل غدا كل شىء فى عينيها قبيحا بلا قيمة ؟) ، تنظر بساعتها ، تستأذن الطالبين

الجالسين بجوارها وتمشى نحو الباب وهى تفكر : « انى على ثقة أنه سيحاضر لمدة ساعة ، كنت سأمكث لو لم يكن قد تأخر ، الا أننى الآن لا أستطيع أن أدعه ينتظر أكثر من ذلك » ·

من هو ؟ ·· يبدو أن شئونا عاطفية قد تدخلت هنا ، تمر الفتاة بحذى المقاعد وهى تفكر : « صحيح ان المدرس يرانى أغادر الفصل دون اذن ، لكنى لا أظن انى مخطئة تنص القواعد على أن الطلاب أحرار يحضرون الدروس ان شاءوا أو لا يحضـــرون » ، عيناها الزرقاوان تودعان الفصل ·

يبدأ المدرس : « حسن ، سيداتى وسادتى ، لم تخبرونى بعد ما تودون أن نناقش اليوم » ·

ثمة لغط ، العديد من الطــلاب ينظرون بســـاعاتهم ويتبعون الحسناء ذات العيون الزرقاء ، هل أسرهم سحر عينيها ؟ أم هل بدا الفصل والمدرس جميعا فى نظرهم بلا قيمة أيضا ؟ يمضون ولا أكاد أتصور أو أحدس وجهتهم ، كان من الأفضل لكم أن تتبعوهم بأنفسكم بدلا من التلصص خلل نوافذ الفصــــل من يدرى ؟ ربما حظيتم بموعد مع الحسناء ذات العيون الزرقاء ، أو بصداقات مع الطلاب المتهربين وتكتشفون سبب تهربهم ·

يبدأ المدرس : « حسن ، أراكم لاتستطيعون التوصل

الى قرار ، لابد أن أبدأ ، رغم أن هذا أول لقاء بيننا ، وأنا أجهل المستوى الحقيقى لمعارفكم ودرجة تشابه أفكاركم ، ربما تتفقون معى أن أساس النجاح فى كل أمر هو ٠٠ »

ينهض الطلاب واحدا فى أثر واحد ، ويغادرون الغرفة، لا يرى المدرس سوى ظلال تتبادل الأماكن تاركة الفضاء الفوضوى المضـــبب أمامه خاويا ، لكن الطلاب يتبادلون نظرات الاعتذار كما لو كانوا يلتمسون الأعذار لأنفسهم على هذا السلوك السخيف ويعدون بأن يكونوا أكثر اجتهادا وتصميما فى المرة القادمة ، بل ويقترح البعض الذهاب الى الناظر والمطالبة بمدرس آخر ، ويرى آخرون ضرورة زيارة طبيب عيون أو أخصائى فى الاضطرابات العصبية والعقلية ، كل يعبر عن وجهة نظره فى حماس وكل يرى نفسه مجدودا اذ نال فرصة التعارف على الآخرين ، ويؤكد الأشد واقعية منهم لأصدقائه أن زيارة الطبيب ماهى الا ضرب من الحمق والعبث اذ ليس ثمة فصل مدرسى ولا مدرس يرى ، فالعيون سليمة وكذلك العقول والأعصاب ٠

ألم نتخيل كل هذه الأشياء ؟ ولكن الشغوفين بالحصول على نتائج يصـــرون على الذهاب الى الناظر والمطالبة ببرنامج دراسى أكثر انتظـــاما وبمدرس مواظب ، ثم يمضون ، جماعات بالنسبة لمن عقدوا صداقة فيما بينهم وفرادى بالنسبة للباقين ، ثم يفكرون ، فى الطريق الذى سلكته الشقراء ذات العيون الزرقاء ، وتمضى العجائز

الفانيات القلائل بالفصـــل الى ديارهن للطهى والتنظيف وشىء من الراحة أن أمكن ·

بالفصل ، يقطع المدرس المكان جيئة وذهابا ، متحدثا بوضوح وثبات : « ·· حتى بعد أن أوصلنا التيار ظل الضوء مطفأ ، ببساطة لأنه ربما لم يكن هناك تيار كهربائى، هذا هو السبب فى أنكم دائما على وعى باحتمال العتمة ، ولكن اذ أضاء النور فعلى المرء أن يحسب مقدار الكهرباء المستهلكة ، وهذا ممكن وبعملية بسيطة من خلال الوصفات التى تعرفونها خيرا منى ، انكم تحفظونها عن ظهر قلب ، وبعد أن يتم حساب مقدار الكهرباء لابد من أن نحاسب عليها ··· اترون ؟ ، هذه هى المشكلة الأساسية : المال ، اذا لم تدفع شهريا يقطعون عنك التيار ، وعلى أية حال فان قطع التيار لا يقل سخفا عن توصيله ، اذ من الممكن أن يستمر الضوء بعد قطع التيار ، نعم ، هذا يحدث أحيانا حين يكون ثمة قصور فى مكان ما ، حســـن ، فى هذه الحالة ، أما زلتم مضـــطرين الى حســـاب الـكهرباء المســتهلكة ؟ ، نعم ، هذا يحدث أحيانا حين يكون ثمة قصور فى مكان ما ، والآن يبرز سؤال ، ماذا يحدث لو وضـعنا كلتا اليدين على أســلاك عارية موصلة لتيار عالى ؟ أرى من جـانبى أن شيئا هائلا ســـيحدث ، هذا هو الموقف المثالى ، اذ فى هذه الحالة لايســتطيعون تحصـــيل مليم منكم ، مهما اســـتهلكتم من كهرباء ومهما حسبتم وبأى وصفات تحسبون ، اترون ؟ المال ليس

ضروريا دائما ٠٠ ولكن دعونا نتوقف عن تكاليف أنفسنا فوق طاقتها ، سأكف عن أملالكم ، دعونا نفترض - ان شئتم - ان الناقوس يدق ٠٠٠ »

كان الناقوس مفاجئا ورهيب الصوت الى درجة روعت المدرس وأزالت عن عينيه غشاوتها ، تغير كل شيء ، زالت الحجب واتضحت الرؤية أمامه ، لم يكن ثمة أحد فى الغرفة سوى شيخ هرم بآخر الفصل يغالب النعاس، كان الشيخ قد مر بنفس التجربة وطرأ عليه نفس التغير ، فكان يرقب المدرس الذى دنا منه فى هلع وذهول ، كان يستطيع أن يرى المدرس بوضـــوح - شـــاب ، قوى ، أنفه وأذناه مجدوعتان ، وشعره الأشعث يلف رأسه ورقبته ، أسنانه العليا الضخمة المعقوقة ناتئة من فمه ، عيناه الصغيرتان البراقتان كانتا باردتين نفاذتين ، اخترقت نظرته الحادة قلب الشيخ ، فارتعد ٠

سأله المدرس : أذهب الجميع ؟ كم أنا آسف ، هل استفدت من المحاضرة ؟ وأمعن النظر فى تلميذه الوحيد - كهل ملتح قذر له عينان دامعتان ، أسنانه صـــناعية ، يرتدى أسمالا ، وعلى سيماه وقار لا يعرف الحياء ٠

تمتم الشيخ : «لم ٠٠ لماذا أنت ؟ ٠٠ لماذا أنت ٠٠ هكذا ؟ »

« لا تستجوبنى ، من الأفضل أن ترد على سؤالى ٠ »

فقال : « لا ، لم تفدنى أية كلمة منها » ، حملق المدرس فيه . فأضاف الشيخ : « ليتنى كنت قد مضيت معهم ، بعد كل هذه السنين تخيلت أنى أخيرا قد سجلت اسمى بهذه المحاضرة ، كم من أمانى راودتنى ، لكنى الآن أرى أن الناظر كان يسخر منا » .

فصفعه المدرس على وجهه ، وأخرج من جيبه دفترا صغيرا وقال : « اعطنى اسمك » .

فبكى الشيخ من الألم ، وقد احمر جانب من وجهه وأخذ أنفه ينزف ، وناشدد : « أصفح عنى اغفر لى ، كنت مخطئا » .

مستحيل ، لابد أن آخذ اسمك ، سأجعلك بلاشك ترسب نصف العام ، واذا حدث أن تغيبت ويجدت مرة أخرى سترسب السنة الدراسية بكاملها ! » .

نهض الشيخ وأجهش بالبكاء مرة أخرى وقال : « رجاء سيدى ، أنى أعول زوجة وأطفالا وحفدة يعلم الله انى لم لم أقصد التبجح ، أعدك أن أواظب على الحضور وتحضير الدروس ، كانت المحاضرة مفيدة للغاية » .

— « بعد أن صفعتك ؟! هل ذكرك الألم بأنها كانت مفيدة ؟ »

— « لكن سيدى ، ألا ترى أن الجميـــع قد رحلوا ؟ أنا الوحيد الذى احترم وجودك .. »

ـ « كم أنت لطيف ! بقيت لتجلس فى ركن يغالبك النعاس ، ما الفائدة لو أنك رحلت ؟ »

ـ « ألم تر كيف ظلوا يحملقون فى الحسناء ذات العيون الزرقاء ؟ كانوا يودون لو التهموها بأعينهم .. »

ـ « وهل رحلوا بسببها ؟ »

ـ « فى قليل أو كثير ، لا تخبرهم بمصدر هذه المعلومة، ولكن صدقنى ، غضضت من بصرى طيلة الوقت » .

ـ « هل تحاول التأثير على بحسن سلوكك ؟ لن يعوضك حسن سلوكك وانتظامك عن دروسك العلمية ، ولا يدرى أحد ماذا كنت تفعل لو كنت فى شبابك » .

ـ « أنا راض بما يجرى على » .

ـ « وكذلك الجميع ، وخاصة لتهربهم من فصل دراسى قررتموه على أنفسكم ، لماذا ؟ لماذا أتوا الى هنا ؟ ألم يقولوا أنهم كانوا يريدون زيادة معارفهم وأن يصبحوا رجالا عظاما ؟! »

ـ « لكنك .. ماذا أقول لكى لا تضحك ؟! لا ، هذا سخف ، لن تصدقنى .. »

ـ « ماذا فى الأمر ؟ تكلم ، هل كانوا يسخرون منى ؟ »

ـ « لم يكونوا يرونك »

ـ « اذن كنت تكذب ، لم يتهربوا خوفا اذن »

ـ « أيا كان الأمر ، انا كهل لا أفهم ، ما أنا الا شيخ خرف »

ـ « أو ربما ظنوا الا شيء آخر عندى أفعله ، هل جاءوا لمعاكسة البنات ؟ قلت لى أنها كانت فاتنة حسناء ؟ »

ـ « من ؟ الفتاة ذات العيون الزرقاء ؟ »

ـ « عيون زرقاء ؟ »

ـ « ماذا ؟ ألم ترها ؟ كانت بالصف الأمامى ، هذا أمر غريب ! »

ـ « أيها الغبى ، انتبه الى من تتحدث ، هل توقعت منى أن أحملق فيها أنا أيضا ؟ »

ـ « على أية حال ، سلوكك محمود ، كانت فاتنة بحق ياسيدى » .

ـ « ياللخسارة ، خسارة أنها قد .. ، أيها الشيخ ، لا تسىء فهمى ، أمدرك أنت ما أقصد ؟ انى نادم على انى اضطررت الى انزال العقاب بطالب فى أول أيام الدراسة ، هذا كل ما فى الأمر ، لم أكن أقصد رؤيتها أو عدم رؤيتها » .

ـ « اذن فأنت لن تصفح عنى ؟ »

ـ « لا ، ستكون عبرة لباقى الطلاب ، سيحصلون

جميعا على أدنى الدرجات ، حتى الـ ٠٠٠٠ ، نعم ، لم يكن لديهم عذر للتهرب » ٠

دون المدرس اسم الشيخ ، وأعطاه درجة راسب ، فانهار الكهل فى مقعده ، ووضع رأسه على كتابه واستمر فى البكاء ، تيقظت بقلبه الرهبة والجذع ٠

دق الناقوس ، فبدأ الرجل فى التضرع : « أما تستطيع الصفح عنى هذه المرة ؟ انى أعول زوجة وأطفالا وحفدة وأبناء حفدة ٠٠٠ ، أؤكد لك الا شىء سيحدث اذا ما صفحت » ٠

غادر المدرس الفصل ٠

صرخ الشيخ فى أعقابه : « الى أين أنت ذاهب بهذا الوجه المتخفى ؟ أيها الأحمق العابث ، اذهب وافعل أسوأ ما عندك ٠ »

لا ندرى بما جرى للحسناء الشقراء وباقى الطلاب ، وأى درجات نالوا ، ولكن لما كنا قد اتفقنا على التخيل فلم لا نتخيل المدرس وقد التقى بالناظر فى الردهة وتبادل معه النكات واشتكى اليه من طلابه الجدد ، ومضى الى درسه الآخر حسب الجدول ٠

١٩٦٣

سـارقة البيض(*)

فريدون تنكابنى

كان ميدان شوش مزدحما يعج بالضوضاء ، فى هذا الوقت من بعد الظهر المشمس ، كان كل شىء عاريا مستقلا عن سائر الأشياء ، رغم أن الزحام كان اقل منه فى الصباح والعصر الا أن سيارات كثيرة كانت لاتزال تفد الى الميدان ، تدور به ثم تمضى .

فى الشوارع المتفرعة من الميدان اصطفت الحافلات ذات الطابقين بطولها المديد ولونها القـانى ، وقد انعكس فى العيون تحت الشمس ، كانت محركات حافلة أو اثنتين منها تدور هادرة بصوت متقطع ، وتطلق الدخان ، فى داخل الممر، اصطفت عربات اليد الخاصة بالباعة متجاورة فى صف ، وفوقها كل شىء ، شمندر مسلوق ، لفت ، فول مطبوخ يتقد

(*) من مجموعة اسير خاك ، تهران ، كلستان ، ١٩٦٣ .

تحته موقد بريموس ويتصاعد منه الدخان ، سكر نبات من كل لون يغلب عليه الأصفر والأحمر ، وبجانبه طبق من النقل الأبيض الجاف والفستق المقشور مصفوف فى ركن ويباع بثمن أقل قليلا ، فستق شامى ، لوز هندى ، ياميش مخلوط يبــــاع الكيل منه بثلاثة ريالات وكان معظمه من الزبيب الصغير الأخضر ٠

بالركن الأدنى من الميدان ، ثمة محطة بنزين أرضيتها زيتية سوداء ، كان الســـــائقون يتوافدون ، يتســـــابقون فيختلسون الأدوار ، يتشاجرون ثم يشترون البنزين ويمضون وكان ســـــائقو الدراجـــــات لا يرفعون أيديهم عن أبواقهم وأجراسهم ، يمرون من بين السيارات أو وسط الناس ، وكانوا يسبون ويسبون ٠

على الجانب الآخــــر من الميدان ، وفوق قطعة أرض خالية تحلقت جماعة من الناس يشاهدون معركة ، وكان الصـــــوت يعلو من حين الى آخر بالصـــــلاة على النبى استحسانا ٠

فى أحد أركان الميدان الأقل ازدحاما ، وعلى جانب من جدول فياض من أحد طرفيه ، وتجرى فيه مادة ســـــوداء وتفوح منه رائحة عطنة ، كان ثمة رجل وامرأة يقفان ٠

كانت المرأة فارعة الطول نحيفة ، والرجل قصير بدين كان وجه المرأة مسحوبا شديد النحافة ، ذقنها حادة ووجهها

به ثلاث زوايا ، كأن ثقلا ثقيلا قد علق بفكها ، على رأسها طرحة سوداء باهتة تناثرت خيوط أطرافها ونقشت عليها أهلة صغيرة الحجم بيضاء اللون كثيرة ، كأنها قد فرشت فوق الأرض ونثرت عليها أظافر ، أظافر بيضـــاء نظيفة ، كأنها لأشخاص خرجوا لتوهم من الحمام ، وكان للرجل وجه سمين ناعم نامت فوقه لحية قصيرة ، كان كل من يرى وجهه تساوره الرغبة في أن يمد يده اليه ليختبر سمنته ونعومته بيده ٠

كانت بيد المرأة بقجة التصق الرجل بزاوية منها ، ران الصمت عليهما والسكون ، كان وجه كل منهما لا ينم عن قدرة على التأثير ، كانا كزوجين فى طريقهما الى المأذون لاتمام الطلاق ٠

بمواجهتهما ، وقف رجل آخر ، وجهه مغضن ووجنتاه غائرتان ، فى أسفل لحيته السوداء بروز يغوص فى نظرة من ينظر اليه ٠

كانت هيئته تدل على أنه لابد أن يكون عاملا بمطعم ، ربما لم يكن كذلك ، على أية حال كان بائعا ، سأل :

« هاتعمل فيها ايه دى ياعم الحاج ؟ »

قال عم الحاج : « هاعمل ايه ؟ ودى عاوزه سؤال ؟! هاسلمها للقسم ، هارميها فى السجن ، البلد مش فوضى ، مش سوق للحرامية ، بيقولوا فيه قانون ، بيقولوا فيه دين وملة ٠ »

كانت المرأة صامتة لا تنبس ٠

قال الرجل : « وانت عرفت منين ياعم الحاج ؟ »

قال عم الحاج : « أنا كنت مكوم البيض ، ودى جت قالت كلمتين دوروا دماغى ، وبعد مامشيت لقيت البيض ناقص » ٠

ضحك الرجل وقال : « ماشاء الله ياعم الحاج ، عرفت من شكل البيض ؟! »

بينما كان الرجلان يتحدثان ، كانت المرأة تتابع الكناس وهو يدنو منهم ٠

كان الكناس قصيرا ، ونحيفا كالاقزام الاسطورية أو كوتد الحظائر تربط اليه الجياد ، أو كأنه طفل نبتت فى وجهه بوادر لحية داكنة غزيرة ، يرتدى سروالا مفتوحا فضفاضا ويداه فى جيوبه ، وقد تحول بشكل عام الى شىء مربع رث فضفاض ، وكان هذا الشىء المربع المرث الفضفاض يلهو فى فراغ وارتياح يجول هنا وهناك ويدنو من الرجلين ٠

جاء ووقف وبلا مقدمات سأل : « ايه اللى حصل ؟ »

الا أن أحدا لم يرد عليه ، فقال وكأنه أدرك من تلقاء نفسه : « يابا سـيبها ، ده ما مايرضيش ربنا ، ده بس الشيطان لعب بيها » ٠

رمقه الحاج بنظرة نارية حادة وأمره بأن يلزم مكانه فلا يتدخل ، ثم قال « كلام ايه ده ؟! والشيطان ده مالعبش

بى أنا ليه ؟! على كل ، بيقولوا فيه حساب وكتاب ، بيقولوا يوم القيامة ماينفعشى فيه الكدب ، اذا أنا سبتها ، هتقول لربنا ايه ؟! »

ثم وقعت عيناه على الرجل الآخـــر بمعطفه الأبيض ونظارته البنية وحقيبته الضخمة ، جذبت المرأة بقجتها الا أن الحاج لم يدعها تفعل واتجه اليها وقال : « على فين ياختى ، لازم نعرف راسنا من رجلينا » ، ثم نظر حوله وزأر : « السبب فى خراب بيتى ده ان مافيش كبير » .

قال الرجل ذو النظارة : «حصل ايه يا عم ؟» ، فلم يرد عليه أحد ، أدخل الحاج يده فى جيبه وأخرج ثلاث بيضات كبيرة وعرضها أمامه وقال : « أهم ، أنا ماباهزرش » .

قال الرجل : « طيب ، ده مش كويس ، لكن ‥ يمكن كانت محتاجة ، كانت جعانة ، سامحها حضرتك » .

صاح عم الحاج : « يعنى ايه كانت جعانة ، وأنا مالى بجوعها ؟! هو أنا مسئول انى أشبع بطون خلق الله ؟! والا فاتح جمعية خيرية ؟! أنا ماحلتيش حاجة ، أنا بياع غلبان ، مفيش على كتفى لاسة » .

بدون أن تتحرك المرأة لتجذب بقجتها ، شدت طرحتها على راسها ووجهها وجمعت شتاتها، اندفع البياع قائلا : « ياعم الحاج ، كل اللى بتقوله صح ، لكن سامح يبقالك ثواب ، دى ولية وناقصـــة عقل ، ماتفضحهاش أكتر من كده » .

عاد الحاج ينظر اليها ثم قطب جبينه وقال : « ازاى ناقصة عقل ، امال ازاى عقلها وصلها أنها تعمل العملة دى ؟! لما تيجى رجايهم كلهم يبقوا ناقصين عقل وضعفا وغلابة ، دول كلهم واعيين وناصحين فى الحاجات دى ، دول أوعى منى ومنك ميت مرة » .

صاح الكناس من أسفل : « ياحاج ، أنت بتتكلم صح ، قفل بأه ع الغاغة دى » .

لم يكن الحاج يريد أن يوليه أى اهتمام ، الا أنه لم يستطع أن يدع هذه العبارة الأخيرة تمر دون رد : « غاغة ايه ياخويا ! اللى بداها ينهيها » .

قال البائع مبتســـما ، وكأنه كان يعلم ان عم الحاج يصغى لكلامه :

« لازم حضرتك تسامح ، لازم تتراضى » .

غمغم الرجل ذى النظارة والمعطف : « ابن القحبة ده سمج سماجة ! » ، ثم أراد أن يقول :

« أنت زودتها أوى ، الموضوع مش كبير أوى لدرجة . » الا أنه خاف الاصطدام بعم الحاج ، فقال : « الرجل ده كلامه صحيح ، لازم العفو ييجى منك أنت » .

قال البائع : « كفاية عليها كده ، ماتكسفهاش أكتر من كده ، فايدته ايه لو حجزوها يومين ؟! ماعندهاش فلوس تتصادر ، وبرضه هترجع للسرقة تانى » .

قال عم الحاج : أنا ماعنديش كلام ، ربنا شاهد انى مايهمنيش التلات بيضات دول ، لكن ٠٠ »

فقاطعه البائع قائلا : « خلاص ، عم الحاج سامحك ، ياللا ياختى ، اشكرى الحاج ، اســتسمحى عمك الحاج وروحى » ٠

اضطر عم الحاج من شدة خجله أن يترك البقجة ، قال لنفسه : « دى اتفضحت ، كفاية عليها ، أسيبها تمشى » ٠
كان البائع يفكر بينه وبين نفسه : « أنا اللى راجل لو كنت وقعت فى زنقة زى دى كنت دبت من الكسوف ، أو كنت ضربت المعلم ده ضربة موتته أو أموت نفسى ، شوف الولية دى حالها ايه دلوقتى ! تلاقى نفسها الأرض تنشق وتبلعها » ٠

وأخذ الرجل ذو النظارة يفكر بينه وبين نفســه : « تلاقيها بتفكر فى عيالها اللى تلاقى ايديهم أطــول من رجليهم ، ويمكن تكون اتأخرت عليهم ، وتلاقيها فى وسط الهيصة دى قلبها مش جايبها ليكونوا وقعوا فى بركة المية أو اتلسعوا بنار الفرن ، ده لو كان عندهم بركة أو فرن ، ولو أن الشارع والاتوبيس والعربيات ، واللوارى ٠٠٠٠ والمعلم ده كمان لازق لى على دماغه برنيطة مابيخلعهاش أبدا ، ماتسيبها باه ، ده أنت ابن كلب صحيح ، سيبها تروح لنصيبها » ٠

وكان الكناس يفكر بينه وبين نفسه : « آدى مصيبة جديدة زادت الطين بلة ، دبور زن على خراب عشه ، تلقاها نسيت كل حاجة ، وبتفكر ازاى تخرج مالورطة دى وتخلص نفسها » ٠

كان كل من البياع والكناس والأفندى ذى المعطف وحتى « عم الحاج » يتصورون أنفسهم مكان تلك المرأة ، ويودون لو يعلموا فيم كانت تفكر فى تلك اللحظة ، كانوا يتخيلون انها بمجرد أن يطلق سراحها ستسرع بالابتعاد ، ظنوا انها ستنهض وتسير ، تجرى ، تهرب ، تخفى نفسها عن الأعين، كان المفروض أن يحدث ذلك ٠

الا أن المرأة وقفت هادئة صامتة ترمقهم بنظراتها ، فلم يعرفوا ماذا كان عليهم أن يفعلوا ، تحركوا قليلا ، الا أن المرأة ظلت مكانها لا تريم ، ثم قالت : « البيض ، وبعدين ، البيض ده هيتم فيه ايه ؟ » ٠

همهم الحاج : « أما غريبة ، بتاع الراجل اللى اتجراتى عليه ٠٠ » ثم نظر الى الآخرين ٠

فجأة انفجر البائع فى الضحك الذى انتهى بالسعال ٠

قال الكناس : « ســـيبك مالبيض ياختى ، طبعا مش هايديهولك » ٠

قال البائع بعد أن فرغ من الضحك والسعال : « ياختى

احمدى ربنا ان المسـألة ماكبرتش ، ادعى للحـاج انه مافضحكيش ، بيض ايه بأه ؟! » ٠

رمقه عم الحاج بنظرة ملؤها الاكبار ، وكأنه يقول له : « لا ، ولا حاجة ، كله لوجه الله ٠٠ » ، الا أنه لم يفصح ٠

وقف الجميع برهة صامتين يرددون النظر بينهم ٠

مضى الحاج أولا ، ثم تبعه البائع والكناس ، وتلاهم الأفندى ذو المعطف ، وبقيت المرأة ، لم تكن تنظر الى شيء أو الى أحد بالذات ، بل ولم تنظر الى من كانوا يمضون ويبتعدون ، وأخيرا مضت الى سبيلها ٠

فبراير ١٩٦١

الفراشات فى الليل (*)

غلا محسين نظرى

فاجاتهم ، دخلت الغرفة ، كان ثلاثتهم جالسين حول المدفأة ، هبت أمى من مـــكانها وفتحت غصـــنى يديها العجفاوين ، أحسست أنى لا أزال نفس الطفل الشـــريد الهارب من مدرسته لائذا بصدرها ، قلت لنفسى : « يارجل لقد كبرت » ، لكنى لن أكبر أبدا ، لن أكبر أبدا .

مددت يدى لأخى وأختى مصافحا ، وقبلت جبينهما ، وجلسنا ، أمى لم ترفع عينها عن وجهى :

« حسن ، تكلم ! »

بلعت ريقى ، « تكلم ، أين كنت فى العامين الماضيين ؟ ماذا فعلت ؟ »

(*) نشرت بمجلة **سخن** ، جلد ١٥ ، ص ٦٧٠ ، عام ١٣٤٤ / ١٩٦٥ .

« لاشىء ! »

« أمتعب أنت ؟ »

لم أحر جوابا ، كان أخى جالسا بمواجهتى ، كان السواد يخط شاربه ، وعيناه ·· كأنهم أخافوا عينيه . سألته :

« وأنت ، ماذا تفعل ؟ »

« لا شىء ! »

لم أقل شيئا لأختى ، كنا نتبادل النظرات لا أكثر ، نظرات باردة وصامتة ، كعاشقين بلا أمل ، كنا نتبادل النظرات لا أكثر ·

فوق المدفأة ، نفس المصباح المستدير ، والموقد القديم يحترق ، وعدة فراشات تدور فى شعاعه ، لاشىء تغير : الأبواب ، النوافذ ، الستائر ، عروق السقف الخشبية . لم يتغير شىء ، لا شىء الا أن زادت أمى عجافا ، وعينا أخى ·· أخافوهما ، وأختى ·· أختى كدمية جميلة ، جلست متكئة بذقنها على حافة المقعد ، تنظر بعيون زجاجية الى شعلة المصباح ·

قالت أمى : « أما من لسان فى فمك ؟ »

« ماذا أقول ؟ »

« أين كنت خلال العامين الماضيين ؟ ماذا كنت تفعل ؟ »
« لاشيء ! »

« أنت متعب ! سأنهض لأعد لك شايا »

لا ، لاشيء قد تغير : الأبواب ، الجدران ، النوافذ ، الستائر ، عروق السقف الخشبية ، كان كل شيء كما كان فيما مضى ، أظن فقط أن شيئا انكسر فى قلوبنا ؟ كسروا فى قلوبنا شيئا ٠

كان المصباح يحترق فوق المدفأة ، لم تعد الفراشات تدور ، التصقت بشعاع المصباح ، وكان البراد يغلى ، رأس أختى سقط على ركن من المقعد كرأس دمية مخلوعة كان الليل يمضى بطيئا ، وكنا ننظر كل الى الآخر فى حزن صامت ٠

غوتنغن ، ليلة العيد

١٣٤٤ هـ

البرج التاريخى(*)

خسرو شاهانى

فى قلب ميدان مدينتنا برج بنى من الطين والآجر لا يعرف له على وجه الدقة أصل ولا نسب ، وما من أحد كان يدرك الفلسفة وراء وجود هذا البرج فى وسط الميدان .

كان ارتفاعه يبلغ خمسة أو ستة وعشرين مترا تقريبا، وكانت الثقوب الكائنة بالأجزاء العليا من البرج تدل على أنه كان يستخدم فى سالف الزمان لأغراض دفاعية وأن أهل تلك القرية التى خرجت لنا فيما بعد فى صورة مدينة كانوا يستخدمونه فى زمن الحرب مع الأعداء ، أما فى زماننا فلم يعد يناسب هذه المهمة .

عندما كان شخصان يتنازعان ويتشاحنان مثلا كانا

(*) من مجموعة وحشت اباد ، تهران ، امير كبير ، ١٩٦٩ .

يستخدما برج وسط المدينة أيضا فى سبابهم وفحشهم ، فينسبانه الى الأخت والأم ، ويستشهدون به فى الخلافات المالية وغير المالية ، فكانوا يتركون الكلمة الأخيرة للبرج، وفى أسفله كان ثمة ثقب واسع بمثابة باب الدخول الى البرج ، وفى الزمان الغابر كان المحاربون يدخلونه من هذا الثقب ليقاتلوا أعداءهم ، أما فى زماننا هذا فكان الثقب يستغل لدخول دورة مياه عمومية ٠

وفى الثقوب التى نخرت فى سالف الزمان بالجدار الداخلى للبرج اتخذت العصافير والحمام أعشاشا ، وفى أوان الربيع كأن برج مدينتنا بمثابة مأوى للعصـــافير وللحمام لتضع بيضها ، وفى معظم الأوقات كانت أعشاش بعض الحمام تقع فى أيدى الصبية المتشـــردين بمدينتنا الخاوية ، ومن المزايا الأخرى التى تميز بها هذا البرج انه كان يعد عنوانا ومعلما طيبا يســـتدل به أهل المدينة والغرباء والواردون الجدد ويمكن القول ان هذا البرج كان جزءا لا يتجزأ من مدينتنا وكأنه كان من المحتم أن يكون بمدينتنا بكل ارتفاعه وهيبته وسماته ، وان لم يوجد اعترى المدينة نقص ، ولعلنا اذ ألفنا رؤيته فقد كنا نعتبر وجوده بالمدينة أمرا حتميا ، لا أدرى ، خلاصة القول أنى أظن أنه ان لم يوجد لكان أمرا شائنا ، هذا ما أريد قوله ، فى عصر ذات يوم ، رأينا رجلا بدينا على وجهه نظارة ولحية برفقة شخصين آخرين أو ثلاثة من ذوى الشــعر الأشـــقر والسراويل القصيرة وفى أقدامهم أحذية عسكرية ، كان

من الواضح انهم أجانب ، وكان كل منهم يحمل على كتفيه منظارا وحمالة كاميرا وشنطة وأشياء من هذا القبيل ، وكانوا يتحركون فى اتجاه حاكم المدينة ورؤساء الادارات ووقفوا بجوار البرج ·

وضع الرجل الملتحى البدين يديه على جنبيه ونظر برهة الى جسم البرج وارتفاعه ، خلع نظارته ثم أعادها وأدخل رأسه فى نفس الثقب السفلى للبرج الذى قلت من قبل انه كان بمثابة باب لدخول مرحاض عمومى ، ثم أخرج رأسه ووضع منديلا على أنفه ، ثم قال شيئا لرفاقه كأنه ينبههم لشىء ، وضعوا السيخ والحمالة على الأرض وبدأوا فى تصوير البرج وقياسه وتقدير قيمته ·

حين بلغ الخبر الأهالى بأن عددا من الأجانب والمسئولين وكبار رجال المدينة قد أتوا لرؤية البرج هرعوا الى وسط المدينة ، وتزاحموا فوق بعضهم كأنهم نمل وجراد كانوا يريدون أن يكون فخر اكتشاف مجاهل البرج من نصيبهم قبل السادة الرؤساء والوفد الأجنبى ، فى حين اننا كنا نرى البرج لسنين ونمر بجواره ولم تكن رغبة تحدونا للنظر اليه ، اما فى ذلك اليوم فقد حلت رؤيته والفرجة عليه وكأن معجزة قد حلت به ، وبمجرد أن رفع الرجل البدين ذو النظارة واللحية ــ والذى فهمنا فيما بعد انه رئيس هذه البعثة الأثرية وقائدها وكانوا ينادونه بلقب « برفسر » ــ عينيه ناظرا الى البرج كانت رؤوسنا

تشرئب معه بلا ارادة لننظر الى شـــرفة البرج الطينية البارزة ، وحين خفض رأسه خفضنا رؤوسنا أيضا وبصورة جماعية ، يلتفت البرفسر برأسه ليقول شــــيئا لرفاقه أو ليسأل عن شيء تلتفت رؤوسنا معه لا اراديا لنرى أين يوجه ناظريه ، كان يضع يديه على ركبتيه وينحنى لينظر بجانب وجهه الى أعلى ليرى البرج بزاوية خاصة وكنا نفعل نفس الشيء وكأننا تحولنا الى مرآة حية له اما حين كان البرفسر يدنو من البرج ويلمس جداره الخارجى فلم نكن نتمكن من فعل ذلك ، اذ حال بيننا وبينه عدد من المكلفين بالأمن ومنع الحوادث المحتملة حسبما تقضى هذه الأمور ·

ولكن ، عندما رحل البرفسر ورفاقه دنونا من البرج وتحسسنا بأيدينا الأماكن التى مد البرفسر يده اليها ، وكل ما فهمه من لمساته فهمناه نحن أيضا ·

ظل البرفسر ورفاقه يلتقطون الصور للبرج فترة ، وفى أثناء تلك الفترة لم نقف مكتوفى الأيدى ، بل أخذنا فى مناقشة عظمة البرج وسبب ورود الوفد الأجنبى وتاريخ بناء البرج ·

كان أحدنا يقول ان « كترا » قد اكتشف هذا البرج ، ويقول آخر عندما فر « دارا » أمام الاسكندر دفن مجوهراته تحت تراب هذا البرج فى طريق فراره ، ويقول ثالث ان هذا البرج قد بناه أحد الأئمة الأطهار وآمن عدد منا بأن

حضرة الامام مدفون تحت هذا البرج وأن هذا البرفسر ذا اللحية رأى الامام فى منام بأوربا وأتى الآن للتحقق من الأمر ، وما الى ذلك ، الا أن معظم حديثنا ومناقشاتنا كانت تدور حول وجود كنز تحت البرج ٠

أنه البرفسر ورفاقه عملهم ومضوا وبقينا ، وبقيت حفنة من الشائعات التى أدت الى دخول عدد من الناس الى داخل البرج منذ منتصف تلك الليلة وما تلاها وحفروا أسفل البرج باحثين عن الكنز ، وبلغ الأمر أن وضـــع المسئولون بالمدينة عددا من الحراس من أجل الحفاظ على البرج من ضربات فؤوس الباحثين عن الكنز ، ومر ما يقرب من شهر منذ أتى البرفسر وأحداث زيارته ، وذات يوم رأينا عددا من الاعلانات مذيلة بتوقيع حضرة السيد العمدة ملصقة على أبواب المدينة وجدرانها ، وكان مضمون الاعلان على ما أذكر كما يلى :

« الى أهالى المحافظة الغيورين ٠٠

لما كان الحفاظ على الآثار القديمة ـ وهى مبعث فخارنا فى الماضى ـ واجبا على كل فرد منا فقد رأت ادارة المحافظة ضرورة توجيه دعوة لجلب بعثة أثرية دولية اذ تأكد فى الزيارة التى تمت بتاريخ ٠٠ ٠٠٠٠ لبرج وســـط المدينة ان هذا البرج يعد من مفاخر أجدادنا الغابرة ، ويرجع تاريخ بنائه الى

عهد النبى دانيال ، وقد وجب علينا فردا فردا أن نبذل جهدنا للحفاظ على برج الفخار وجلاله ، ومن بين ما تقرر فقد تم فتح حساب ببنك ۰۰۰۰۰۰۰۰ تحت رقم ۰۰۰۰ ودعوة أهالى المدينة الأعزاء الشرفاء لأن يودعوا ماتيسر من المال بالحساب المذكور بغرض ترميم وتجديد مبنى برج الافتخار » ۰

ومنذ ذلك اليوم تبدلت نظرتنا الى البرج فحفظنا حرمته ، فلم نعد نحيله فى شجارنا الى أمهاتنا واخواتنا ولا نستخدمه بديلا عن المرحاض ، فاذا ما حطت على نوافذه حمامة أو غراب أو عصفور كنا نبعده بالتصفيق والقاء الحجارة والطواقى فى الهواء خشية أن تأتى تلك الطيور بفعل خارج عن حدود الأدب فوق برجنا ، وحين بلغت درجات غيرتنا مبلغها أودع كل منا قدرا من المال بالحساب المفتوح بهدف ترميم برج الافتخار ۰

عندما كنا نمر بجوار البرج كنا ننظر اليه ثم ننظر الى أنفسنا بغرور وكبرياء ، كان كل من يرد الى مدينتنا نصحبه ونطوف به حول قاعدة برج الافتخار ، وحين كنا نسافر الى مدن أخرى ونرى الناس فيها بلا برج افتخار كنا نزداد انتفاخا ونعتبر مدينتهم ضئيلة تخلو من التاريخ ونوبخهم بصورة غير مباشرة فنباهى بتفوقنا عليهم وما الى ذلك ۰

بدأ ترميم البرج منذ بداية جمع أموال الشـــرفاء والوطنيين ، الا أن حصـــيلة المال كانت قليلة ، لم يكن التقصير من جانبنا ، فقد أودعنا مالا جما بالحســـاب المصرفى ، انما كانت تكاليف الترميم عالية .

وذات يوم رأينا اعلانا آخر ملصقا على أبواب المدينة وجدرانها ، بعد مقدمة تحمل نفس معنى الاعلان الأول تضـــمن الاعلان الجديد انه لما كانت مسألة ترميم البرج عالية التكاليف فقد تقرر بموافقة مجلس المدينة والمحافظة منذ اليوم اضافة ريالين الى سعر السكر القوالب وريالين الى سعر السكر المبلور ، وثلاثة ريالات لكيلو الخبز ، وأربعة ريالات لكل لتر من الكيروسين والبنزين على أن يتم انفاق العائد فى ترميم وحفظ برج الافتخار ، لاشك أن هذه الزيادة فى الأسعار مؤقتة ثم تعود الأسعار الى ما كانت عليه بمجرد الانتهاء من أعمال ترميم البرج .

لم يكن لنا حيلة اذ كان الأمر يتعلق بالحفاظ على برج الافتخار بكل ما يمثله من شرف لنا وكرامة ، ومن ناحية أخرى لم يكن يصح أن تنفق الحكومة من مالها بينما نحظى نحن بالافتخار ، فلا أبصرت عيوننا ولا استحققنا الحياة ان لم ننفق عليه من حر مالنا ونصنه ، و « الغاوى ينقط بطاقيته » ، وفى اليوم التالى ذهبنا نشترى لحما فوجدنا الجزار الخسيس قد أضاف الى ثمن الكيلو ثلاثة تومانات .

سألناه : لماذا رفعت السعر ؟ نص اعلان ترميم البرج

على رفع سعر السكر والخبز والكيروسين والبنيزين فقط ، ولم يرد ذكر اللحم ٠

قال : أكنتم تتوقعون أن أشترى الخبز والسكر والشاى والكيروسين بالسعر الأعلى وأبيعكم اللحم رخيصـــا ؟ أتظنونى رهن اشارة من عيونكم ؟!

رأينا الحق فى كلام الجزار ، ومن ناحية أخرى فاذا ما انخفضت أسعار السلع التى تحتكرها الدولة لأصيبت عملية ترميم برج الافتخار وصيانته بالشلل ٠

ارتفعت بنفس النسبة أسعار سائر السلع والايجارات وتذكرة الاتوبيس والسفر وسائر الخدمات ، أما معدلات دخلنا فقد ظلت بنفس ما كانت عليه ، الفارق الوحيد الذى ميزنا هو ان سهما من مفاخر البرج قد صار من نصيبنا ٠

تمت عملية ترميم برج الافتخار وتأسست ادارة جديدة لبرج الافتخار بمدينتنا باشـــــراف مديرى تلك الادارة وموظفيها ، وتم تأسيس مكتب ولجنة ، وكان على كل من يود زيارة برج الافتخار ان يدفع تومانين ٠

وذات يوم وجدنا أن كل مسافر من المدينة أو وارد اليها عليه أن يدفع خمسة تومانات ويتسلم ايصالا ٠

بأعلى الايصال رسمت صورة برج الافتخار وكتبت تحت الصورة العبارة الآتية :

« من أجل ترميم برج الافتخار »

مامعنى ذلك ؟ لقد أصبح هذا البرج وبالا علينا ، ولكن لم يكن ثمة مفر ، فما كان ينبغى للحكومة ان تنفق على الادارة العامة لمفـــاخر الدولة بتنظيماتها وســـياراتها وموظفيها ، فالبرج لنا ، والفخر لنا ، فهل يكون المال من الدولة ؟! كل طموح له حدود .

ذاع صيت برج افتخارنا فى كل الأرجاء ، فكان الناس يتوافدون زمرا الى مدينتنا من شتى المدن لزيارة البرج ثم يمضون ، ولم يكن هذا التردد على المدينة خلوا من آثار وميزات لمصـــيرنا ، فقد ارتفعت أسعار فنادق مدينتنا ، وتجار مدينتنا « ضربوا فى العالى » كما يقال ، فكانوا يبيعون سلعهم بما يحلولهم من أثمان ، وعندما كنا نبدى اعتراضنا كانوا يقولون : لا تشتر ان شـــئت ، وكانوا ينطقون بالحق ، فلم نكن نشترى ، زوار البرج هم الذين كانوا يشترون ، وشيئا فشيئا أحسسنا أن هذا البرج قد جلب علينا المتاعب والقلق ، ولكن فى مقـــابل ذلك كان كثيرون يتمنون أن يكون هذاالبرج بمدنهم .

وذات يوم شاع بالمدينة ان البرج قد هبط ومال بمقدار أربعة أصابع ، تعالوا على الفور وقوموه ! جميل ! بعد كل هذا التعب يخرب البرج .

ظللنا نذهب يوميا ثلاث مرات أوأربع لزيارة البرج ، وكنا نجتر الحسرات علىاعوجاجه ، وكنا نبحث عن وسيلة

ما ، وحين بلغت أحزاننا مبلغها أتت من المركز لجنة أثرية للكشف على البرج ، فأكدت انه اذا لم نقدم على حل ما فان البرج لابد منهار ، أتى خبير وأعطى تقديره لنفقات جديدة لاصلاح برج الافتخار وشكلت لجنة منبثقة عن لجنة، والناس فى قلق وانتظـار وخـوف على برج افتخارهم ، الى أن رأينا ذات يوم واحدا من الاعلانات اياها ملصقا على أبواب المدينة وجدرانها ، فحواه انه بغرض الحيلولة دون انهيار برج الافتخار على الأهالى الأبرار ممن تزيد مساحة بيوتهم عن خمسين من الأمتار أن يدفعوا عشرين ريالا اضافية عن كل متر كعوائد شهرية ، وان القرار موجود نصه بمكتب السيد المحافظ ، ويعاقب المخـالفون عقابا شديدا !

... ولم يكن هذا مزاحا ، فهذا برج الافتخار ، ورثناه عن أجدادنا ، عظيم جدا ، عمره التاريخى يبلغ عدة قرون ، ولكن ما ذنبنا نحن أن نتلقى كل يومضربة من آثار أجدادنا المعمارية ؟! كان ينبغى على من أقاموا هذا البرج أن يبنوا حديقة ، أملاكا ، طاحونة ، قناة ، أو أى شىء يجعلونه وقفا على هذا البرج قبل موتهم حتى لا ينغصوا حياة حفدتهم بلا جرم جنوه ، من أين لنا بثلاثمائة أو أربعمائة تومان شهريا ندفعها ضريبة لبرج الافتخار ؟ هل نطبع النقود ؟ أو هل « أكلنا كبد طائر السعد» ؟ تجمعنا وتقدم عدد منا وذهبنا أمام مبنى المحافظة فى تظاهر نهتف بأننا لا نملك مالا ندفعه ولا نريد فخار هذا البرج ، فقد تركناه لكم .

لم يردوا فى ذلك اليوم ، مجرد وعدباعادة النظر فى القرار ، ولكن فى الغد سمعنا أن عددا منا قد احتجزوا وتم تعهد من المخالفين بألا يخـــالفوا مرة أخرى وذهب الباقون ودفعوا بمحض رضاهم ورغبتهم ضريبة ستة أشهر مقدما ، كل شىء صعب فى بدايته ولكن بمجرد البدء فان المرء يتعود عليه ، تماما كما تعودنا على الأكل وشراء السلع بأسعار مرتفعة فقد تعودنا أيضا على دفع ضريبة البرج ، الا أن الطبيعة بدت كما لوكانت قد تحالفتضدنا ، اذ وقع زلزال بمدينتنا فى نفس هذه الآونة الحرجة ، والى جانب انهيار عدد من البيوت حدثت تصدعات بالمنطقة الوسطى من برج افتخارنا ٠

بناء على دعوة من المسئولين تم استدعاء لجنة أثرية لمعاينة برج افتخـــارنا وتقدير ميزانية لترميمه ، وكنا من جانبنا قد أعددنا أنفسنا لدفع عوائد أعلى وضرائب جديدة ، وصلت اللجنة ، وبعد شهر من الدراسة أعلنت اللجنة أن هذا البرج ليس هو البرج الذى بنى فى زمان دانيال وان عمره لازيد عن سبعين أوثامنين سنة ، ولا يمكن أن يكون برج افتخار ، كان ذلك الأثرى والمستشرق الأوربى (وهو الرجل البدين الملتحى ذى النظارة) قد تشابهت عليه الأبراج وان البرج المقصود والذى كانت اللجنة تنقب عنه موجود بمدينة الظلمات ، ولعل علماء الآثار مشغولون بكشـــف محتمل لبرج الافتخار بتلك المدينة ٠٠٠ كأن ماء باردا قد صب على رؤوسنا ، فقد البرج عزته وهيبته ، تجمعت الادارة

والتنظيمات والمكتب وكل متعلقات البرج ورحلت ، وعاد برج افتخارنا مرة أخرى سيرته الأولى ، فصار مأوى للكلاب ومرحاضا عموميا ، وفى وقت الشجار أيضا أصبح مرجعا للطرفين فى السباب ، وازدادت التصدعات فى وسطه يوما بعد يوم وازداد ميله ، وعادت العصافير والحمام تتخذ من ثقب ماسورة جداره الداخلى والخارجى أعشاشا ، ومع ذلك لم يتم الغاء العوائد والضرائب التى كانت قد فرضت ، فبقيت بنفس معدلها ولانزال ندفع ، وبقيت الأسعار الحكومية وغير الحكومية التى كانت قد رفعت فى سبيل البرج على حالها ، ولازلنا لا ندرى هل وفق علماء الآثار والمستشرقون فى كشف برج الافتخار بمدينة الظلمات أم لا .



دفـن الميـت

خسرو شاهانى

كان أحد أيام الخريف الجميلة ، وكنت أهوى السـير على قدمى المسافة بين بيتى ومحل عملى .

قطعت شارعا أو اثنين أسـير الهوينا ، وحين بلغت منتصف الشارع الثالث رأيت عددا من الناس يحملون على أكتافهم نعشا متخذين وجهتهم نحو المدافن قائلين « لا اله الا الله » .

من ظاهر النعش وحاملى الميت كان يبدو ان المرحوم لم يكن ذا شأن ، فلم يكن ثمة نسوة يتشحن بالسواد حزنا ، ولا رجال على رؤوسهم قبعات وفى أيديهم مناديل ، ولا نعش تزينه الورود ولا سيارة يزينها شـريط دائر ولا موسيقى ولا شىء من هذا القبيل ، كان ثمة صبى على كتفه عباءة وشال أخضر يتقدم الجنازة ويتلو أشعارا يقطعها من آن لآخر ليقول .. « ارفعوا أصواتكم بلا اله الا الله » .. وأربعة

أشخاص اثنان منهم حفاة الأقدام وآخر بلا حذاء وقد تقطعت أنفاسهم تحت النعش ، وخمسة أو ستة أشخاص آخرين كانوا يمشون خلف النعش ويأمرون القارىء الذى كان يتقدم الجنازة بمداومة التلاوة ، وبعد كل عدة أقدام يتشهدون على روح المرحوم ·

حسبما أمر الشرع ، سرت سبعة أقدام وراء الجنازة ، وفى خلال هذه الأقدام السبعة قرأت الفاتحة أيضا وطلبت له المغفرة وأردت أن أعود ، ولكن لا أدرى أية قوة غامضة شدتنى وراء النعش وكأن شـــخصا كان يهمس فى أذنى قائلا :

« شيل النعش ·· كله بثوابه ·· شيل النعش ·· كله بثوابه ·· شيل بأه » ··

كلما كنت أهيب بنفسى أن أعود أدراجى وأمضى الى حال ســبيلى كانت قدماى تنجذبان بلا ارادة وراء هؤلاء الناس ونعشهم ·· أسرعت الخطى شيئا ، فبلغت قرب النعش حتى أحمل ركنا منه ، ولكن حين رأيت شخصا منهكا تحت النعش وسمعت نهنهته تراجعت قدماى ، وقد اطمأنت نفسى الى أنى لا قبل لى بحمل النعوش ، الا أن قلبى لم يطعنى ، وظلت نفس القوة الخفية تهمس فى أذنى :

« ياللا بأه ·· شيل ·· ساعد ·· لك ثواب ! »

سألت أحد المشيعين الأربعة أو الخمسة الذين كانوا

يمشون فى الجنازة عن علاقتهم بالمرحوم فقالوا : مفيش علاقة ! ..

.. لم يكن للمسكين أحد فى هذه الدنيا ، لا زوجة ولا ولد ، لا أخ ، ولا أخت ، ولا أهل ولا قريب ، قمنا بهذا الأمر من باب الثواب ، ماذا نفعل ؟! مهما كان من أمره فهو فى النهاية عبد من عباد الله ومسلم ، ومن واجب المسلم أن يعين أخاه فى الدين ، وهذا مسلم مات بلا حول و قوة .

رأيت ألا مجال للتردد والحيرة ، فأسرعت الخطى ودنوت من أحد الشخصين حاملى الطـــرف الخلفى من النعش ، أدخلت كتفى تحت النعش وتبدل الحال .

لما كانت قامة الرجل الذى كان يحمل الطرف المقابل من النعش أطول من قامتى فقد اختل التوازن وانتقل ثقل المرحوم بكل ضغطه الى كتفى .

عندما مشيت عدة خطوات أدركت فداحة الخطأ الذى رسمت به خططى ، تهدجت أنفاسى وأخذ كتفى يتحرك من مكانه .

كانت التعاسة تكمن فى اننى فى البداية لم أسأل أحدا من هؤلاء المؤمنين الأتقياء الذين كانوا يمشون فى الجنازة لوجه الله عما اذا كان المرحوم رجلا أم امرأة أم طفلا ، كم كان يبلغ من العمر ، وكم يبلغ وزنه ، وهكذا وضعت بدنى الواهن دون ادراك أو تقدير تحت ثقل المرحوم البدين الذى لم أكن أعرفه أبدا !!

شيئا فشيئا تفتحت مسام جسدى ألما وانهاكا ، فتصبب العرق من فتحة قميصى ، وبعد مائتى متر لم أجد أحدا من هؤلاء المؤمنين الذين كانوا يمشون وراء النعش كأنهم أدوا واجبهم وان واجبى أن أحمل الميت وأوصله سليما معافى الى قبره ، انشغلوا بالحديث عن انخفاض أثمان الأراضى وارتفاع ايجارات البيوت وشيك السيد أسد الذى كان بلا رصيد .

انزلق طرف النعش قليلا من فوق كتفى مرة أخرى دون ارادة منى فأمسكت به فى الوقت المناسب وقررت أن أنجو بنفسى من تحت النعش وأفر هاربا ، الا أنى رأيت أنه ليس من الاسلام فى شىء أن تنكسر ذراع الميت وأرجله فى آخر لحظاته ، فضلا عن حرمانه من الأهل والأقارب ، وما يدرينى ان العدالة لن تمسك بتلابيبى بتهمة قتله !

فى النهاية ، وقرب المدافن ، أتى أحد هؤلاء المشيعين كان يمشى فى الخلف وخلصنى ، استرددت أنفاسى ودلكت كتفى وأردت أن أعود أدراجى ، فلم يدعونى وقالوا : مادمت قد وصلت الى هنا فعليك أن تكمل باقى المسافة والا لاحقتك عين الميت .

ياربى ، ماذا أفعل ؟ ماذا أفعل ؟ لدى عمل أنجزه ، ولى حياتى الخاصة ، فلأذهب ، كيف أذهب ؟ وماذا أفعل حيال عين الميت التى ستلاحقنى ؟ عاد نفس الصوت اللعين الخفى الى الترديد :

« روح ٠٠ اكسب ثواب ٠ ٠ماترجعش ، لا لا ٠٠ روح ٠٠ الميت عينه عليك ٠٠ أنت مسلم ، الخير يقعد لك ، ايه عرفك ٠٠ يمكن الحاجات الصغيرة دى تشفع لك فى الآخرة »

وظل يهتف ويهتف حتى استسلمت ٠

وصلنا الى المدافن ، قمنا بالمراســـم الأولى للدفن ، وعندما أردنا أن نقوم بدفن الجثة لم يكن لدينا تصـــريح بدفنها ، ولم يكن حارس المدافن ليرضى بدفن ميت بدون تصريح دفن ، فاتجه أحد المشيعين الأربعة أو الخمسة الى قائلا : « ياسيد (لم يعرفوا اسمى حتى ذلك الوقت) يهيأ لى انك اذا ذهبت أنت ستصل الى نتيجة أسرع من أى منا ، إذ ان هيئتك توحى بأن حضـــرتك « ادارجى » ، وسيفهمون كلامك بسرعة » ٠

أردت أن أقول ان لدى عملا ، علاوة على انى لا أعـــرف ، عادت نفس القوة الخفية تهمس فى أذنى : « روح ٠٠ اكسب ثواب ٠٠ ضرورى تقوم بالمهمة دى ! »

قلت : « على عينى ٠٠ أروح ٠٠ المرحوم اسمه ايه ؟ » « سيد منير الدين اسحق آبادى عاقبت طلب محمدى بور فردزاده !؟ ، قلت « انتومش قلتو دلوقتى ان الراجل الميت ده مالوش حد ؟ » ٠

على أية حال ، ذهبت الى ادارة الوفيات ، كتبت شهادة الدفن ، ولكن بما انه كان بلا أقارب فقد ســـألنى الموظف

المسئول عن اصدار شهادات الدفن عن اسم صاحب الميت ليدونه ٠

قلت : والله أنا ماعرفش ، حضرتك اكتب الاسم اللى يعجبك » ، فقال : « ماينفعش ، لازم يكون للمرحوم صاحب أو ريث ، من غير دول مش ممكن اصدار تصريح دفن ، وأنت ايه علاقتك بالمرحوم ؟ »

قلت : « أى علاقة تحسبها ! »

ضاق صدر ذلك الوغد موظف تصـــاريح الدفن فمزق الورقة التى كان قد كتبها ، وقال فى عصـــبية : « احتفظ بخشبة حضرتك على الأرض لحد الجثة ماتعفن » ، قلت : « لم العصبية ياسيد ؟! هذه ليست جنازة أبى ، هل ارتكبت جرما اذ مشيت سبع خطوات وراء النعش حســب أوامر الشرع ؟! » ٠

قال : « لا تكثر الكلام ، هل تريدنى أن أحرر تصريح الدفن باسمك ؟ »

نظرت اليه شذرا وقلت : « لماذا تحرره باسمى »

قال : « أقصد أن أدون اسمك باعتبارك صاحب الميت »

قلت : « وبعدين معاك يا أستاذ ٠٠٠ »

قال : « مفيش بعدين ، كل حاجة لها أصول ٠٠ والا ايه ؟ »

لم أجد مفرا ، كانت جثة الرجل ذلك العبد من عباد الله باقية دون داع على حافة القبر وعينه على الطريق ، قلت أكتب ماشئت ، فدون اسـمى فى الورقة باعتبارى وريث الميت وصاحبه وسلمها لى ، اقلنى التاكسى مرة أخرى عائدا الى المدافن ودفنت الجثة ، ونظرا لأن المرحوم كان بلا أهل ولم يكن مشيعوه يملكون سوى بعض عواطف وأحاسيس انسانية وشعور دينى فقد أخذوا منى سبعين أو ثمانين تومانا هى كل ماملكت وأعطوها للمغسل والتربى وساقى القبر وموزع التمر وخياط الكفن وما الى ذلك ، ومشـينا باتجاه المدينة ، وفى الطريق تحدثنا عن سـجايا المرحوم ومحاسنه وغربته ، فتبادلنا الأحزان ولعنا الدنيا وغدرها وبصقنا عليها ، وتقرر انه مادام المرحوم بلا أهل وعينه على الدنيا فلنذهب الى منزلى فنقيم للمرحوم سرادقا لقراءة الروضة فيتم ثوابنا ويكتمل ٠

فى الطريق اصطحبنا مقرئا ومضينا جميعا الى دارى، واحتسينا الشاى والقهوة وأقمنا سرادقا لختمة المرحوم بصورة مشرفة ثم مضى الناس الى حال سبيلهم وعدت أنا الى حياتى المألوفة ٠

بعد عشرة أيام من تلك الحادثة أو خمسة عشر يوما ، لا أدرى ، عدت ظهر يوم الى بيتى فوجدت رجلا يربو على الأربعين بثلاث أو أربع سنوات وامرأة فى نفس السـن وخمسة أطفال صغار وكبار وقد جلسوا متحلقين بالغرفة

يأكلون البطيخ ، فسلمت وانطلقت المرأة بالدعاء لى بأن ينعم الله على بالخير ، « الهى تمد يدك الى التراب فيصير ذهبا » ، « نور الله قبره اذ أنجب وترك من ذكراه ابنا » ، « نحن ممنونون للغاية ، عوض الله عليك اذ لا نملك ما نعوضك به » • وما الى ذلك •

لا أعرف حتى الآن ما هى القضية ومن يكون هؤلاء الناس ، من ثم أخذت أنحنى وأعتدل وأرد التحية قائلا : « ممنون جدا •• متشكر •• ابدا ، لم أفعل شيئا •• أقصد •• الآن •• نعم •• بكل سرور ، العفو ياهانم •• »

•••• فى النهاية اتضح أن هذه السيدة ذات العباءة هى شقيقة المرحوم الذى انتهى أمره منذ عشرة أو اثنى عشر يوما مضت ، وهذا السيد هو زوج شـــــقيقة ذلك المرحوم ، وقد أتيا وبصحبتهما الأولاد لزيارتى ، ولكن من أين لهم بعنوانى ؟ لا علم لى ، لعلهم حصلوا عليه من أحد من أولئك الأربعة أو الخمســـة من المؤمنين الذين كانوا يمشون بالجنازة •

لا أطيل عليكم ، تناولنا الغداء معا وقمت على خدمتهم فى العشاء والنوم ، وفى صباح اليوم التالى ومبكرا جدا وجدت موظف البريد على الباب حاملا الى برقية من الأهواز فتحت البرقية ، بعد العنوان المفصل للبيت كتب ما يلى :

« السيد فلان ، سنصل مع الأولاد فى قطار الساعة الثامنة مساء ، انتظرنا ، سيد سبحان الدين » •

مامعنى هذا ؟ فى أثناء حديثى مع نفسى ومع الأولاد بأنى لا أعرف أحدا يدعى سيد سبحان الدين هبت شقيقة المرحوم سيد منير الدين من مكانها واتجهت فى حبور لم أر مثله على وجه أحد من قبل فى حياتى الى زوجها عريض القفا الذى كان منهمكا فى تناول طعام الافطار هنيئا مريئا باذن الله وقالت :

« ياسيد مجتبى ‥ ده تلغراف من سـيد سـبحان الدين ! »

« ‥‥‥ !؟ »

ألقيت نظرة الى وجه شقيقة المرحوم تغمده الله برحمته وهى فى سرورها وقلت :

« كيف كان ذلك يا هانم ؟ »

قالت : « مفيش ‥ ده السيد سبحان الدين بتاعنا ‥ جاى ! »

قلت : « آه ‥‥ أنا عارف انه جاى ‥‥ لكن ايه شأن حضرته ؟ »

قاطعتنى قائلة : « أخو المرحوم منير الدين !؟! » ثم نهضت واختطفت البرقية من يدى !

« انها لى ، أليس كذلك ؟! »

فى الظهيرة ، عدت الى البيت ولم أكد أدخل من الردهة

الى داخل الفناء حتى هرعت الى ابنة أخت المرحوم سيد منير الدين ـ وهى طفلة لطيفة فى السادسة أو السابعة من عمرها ـ قائلة : « خالى حبيبى ، خالى حبيبى (وهذا أنا) ، عمى سيد ســـبحان الدين ومرات عمى وخديجة وكلثوم وزفت الطين ورجب وفاطى جم ! »

شببت بقدمى على الدرج بداخل الفناء ووقفت على أطراف قدمى وألقيت نظرة من بعيد خلال نافذة الحجرة المطلة على الفناء ··· لا ··· هذا صحيح ، لقد أتى عمى سبحان الدين وامرأة عمى وأولاده من الأهواز ·

وضعت كيس العنب والبطيخ على جانب من الغرفة ودخلت ، فنهض سيد سبحان الدين من على الأرض وهو ـ ماشاء الله ـ بدين وتحت جلده وفرة من الشحم ، جذبنى من قفاى وقبلنى وقبلته ، ومرة أخرى بدأت كلمات الشكر من جانبه والرد المتواضع من جانبى ، لا أطيل عليكم كانت لدى شوربة خضار ولكن لما كانت الشوربة لا تروق لمزاج سيد سبحان الدين ، اذ كانت « تنفخ » بطنه فقد أرسلت فى طلب عشر أو اثنتى عشرة بيضة طازجة ، وصنعت عجة وقدمتها لسيد سبحان الدين ·

ولما كان « الأفندى » غريبا فى تهران ولا مكان له فيها فقد « تفضل » بقضاء الليل فى دارى ، وكان أولاد سيد مجتبى قد رأوا أولاد عمهم بعد فراق طويل فقد اشتاقوا لأن يقضوا الليلة أيضا فى بيتى ليلعبوا مع أولاد عمهم ·

وفى صباح الغد وفى أثناء تناول الافطار التفت سيد سبحان الدين الى سيد مجتبى زوج أخته قائلا : « لا قدر الله أن يفقد سيد نصر الدين العنوان الى هنا ! »

بلا إرادة منى دارت رأسى فوق رقبتى وتجمدت نظراتى فى عيون سيد سبحان الدين وقلت بصوت يقطر توسلا :

« أى عنوان قلت ياسيد ؟! »

قال ببرود :« أبدا ... عنوان بيتك ! »

قلت : « هل هناك المزيد ! ! »

قال : « سيد نصر الدين منا ! »

قلت : « أعرف ، ولكن ... »

قاطعنى السـيد مجتبى قائلا : « انه عديلى بمدينة شاهرود ! »

قلت : « هل تقرر انه سيشرفنا ؟ ... »

قال سيد سبحان الدين : « نعم ، أرسلت اليه برقية قبل أن أتحرك من الأهواز بثلاثة أيام وأعطيته عنوانك ، ولكن الآن لا قدر الله أن يفقد العنوان ... »

وبابتسامة كريهة نفذت الى لب عظامى أضـاف : « فمدينتكم كبيرة للغاية والاستدلال على عنوان بها أمر صعب » .

قلت : « لا ، العنوان مباشر ياسيد ، وليس صعبا » ، ولم تكد عبارتى تنتهى ويسمع رجع صوتى تحت سـقف الغرفة حتى رن الجرس ، فتحت الباب ، عرفت من سحنة الطارق انه هو السيد القادم من شاهرود ، لف سيد نصر الدين يده حول رقبتى فى ردهة الباب وأخذ يقبلنى وكأنهم ـ قصم الله ظهورهم ـ قد تعلموا فنون المصافحة والعناق فى كتاب واحد •

دخل سيد نصر الدين وأم العيال والعيال وعددهم ثلاثة الى الغرفة وتجددت الذكريات •• وأنا أمام هؤلاء الناس الأوفياء بلا حيلة سوى الترحيب ، فبدأت مرة أخرى فى الحديث والمجاملة عن سجايا المرحوم الأخلاقية وعظمته ، ومر أسبوع على قدوم ضيوفى وقد فاض النعيم على فى جوارهم ، وفى ظهر يوم وبعد الغداء قال سيد سبحان الدين حفظه الله :

« والله ياسيدنا فلان نحن ممنونون لكل ما تحملته من متاعب من أجل المرحوم ، وفى أثناء هذه الأيام العدة التى مكثناها ، ولكن لدينا أعمال ، فأوضح طلباتك حتى نعود الى بيوتنا وحياتنا فى أقرب فرصة » •

نظرت الى السيد وقلت : « أى طلبات ياسيد ؟ »

قال : « توليت أمر الميت على كل حال ! »

قلت : « توليت أمر ميتكم رحمة على روح أبى وقبره ،

لم أفعل سوى انى مشيت سبع خطوات فى الجنازة حسب أوامر الشرع » ٠

قالوا : « كان المرحوم يمتلك الكثير »

قلت : « وما شأنى ! زاده الله من نعمه ! »

قالوا : « بحثنا فوجدنا اسمك بتصريح الدفن أمام خانة الوريث وصاحب الميت ، وقد تم تسجيله بالدفتر ، وكتبنا التماسا بالأمس ، هل يصح ياسـيد فلان أن تأكل مال القصر بهذه البساطة ؟ ان أموال المرحوم تؤول لهؤلاء الصغار لا لك ، لا يرضى الله أن تطمع فى ميراث وثروة حفنة من الصغار » ٠

أدركت أن القضية أكثر جدية مما كنت أظن ، فأخذت أتوسل : « ياسيد ، أقسم بالله وبكذا وبكذا انى لا أدرى أى شىء عما تقولون ، أنا لم أر المرحوم فى حياتى ، لا أعلم أين كان بيته ، لم أفعل سوى أن حملت نعشه على رقبتى ـ ليتها انكسرت ، ولم أفعل غير ذلك ، لو كان المرحوم يملك شيئا فلابد أن أكله أولئك الأربعة أو الخمسة من المؤمنين الذين حضـروا تشـييع الجنازة وأعطوكم عنوانى ! »

لا أصدع رؤوسكم ، خلال شهرين كاملين جرنى هؤلاء الثلاثة الى المحكمة وقسم البوليس وادارة الوفيات وادارة الاحصاء والتعداد وادارة ضرائب المواريث وديوان الدولة

وديوان الحكومة وديوان بلخ وادراة الأموال بلا صاحب وبيت المغسل والى كل مكان يخطر ببالكم ، وفى النهاية وبعد أن توسلت وأقسمت الايمان ضــــقت بالأمر فكتبت اشهارا ووقعته باسمى ونشرته بالصحف ودفعت أجره من جيبى ونصه انى لا تربطنى بالميت أية صلة أو قرابة ، ولم أر أمواله ، فوافقوا على أن يأخذوا ما تيسر منى ويصفحوا عنى ٠

الآن وقد ذهبوا وتخلصت روحى من قبضتهم لم تتركنى ادارة ضرائب المواريث حيث تقول :

« عليك ان تدفع مبلغا سنويا كضـــرائب عن الميراث الذى آل اليك عن المرحوم المغفور له سيد منير الدين اسحق آبادى عافيت طلب محمدى بور فردزاده « أظلم الله قبره » ٠٠

« ماالعمل فى ذلك ؟! »

❊ ❊ ❊

القيـــد(*)

بهرام صادقى

قبيل الظهر فى أحد أيام الثلاثاء من شهر نوفمبر ، الصق الاعلان التالى على الجدران بكل أرجاء مدينتنا :

« لن تقبل المستشفى الحكومى المزيد من المرضى بعد الآن ، وذلك لتكدس مرضـــاها ، وتعلن انها بمقتضى التوصيات الصريحة لمجلس المدينة وأوامر فخامة السيد المحافظ لن تقبل أيضـــا أى نوع من التوصية أو الوساطة ، وعلى جميع الأهالى الشرفاء الغيورين بهذه المدينة مراعاة مضمون هذا الاعلان وتنبيه المرضى الموقرين » ٠

بعد ظهر نفس اليوم مس الجنون اثنين من أهالى المدينة

(*) من مجموعة **سنكر وقمقمة هاى خالى** ، ١٩٦٩ ، زمان ، تهران ٠

« الشرفاء » الغيورين » ممن اعترتهم سابقة القلق المادى والوراثى والمعنوى ولاحقة المشكلات الأســرية ، ولو أن الحالة فى هاتين الحادثتين قد تفاوتت فى أسرة كل منهما ـ أسرتى السيد « وحدانى » والسيدة « شيرين هانم » .

كان السيد وحدانى سليما معافى حتى الظهيرة ، عاد متعبا منهكا كعادته من شارع « غردى » ورد تحية بناته وبنيه وامرأته المخلصة الحنون ودخل غرفته ، بعد نصف ساعة استدعى خادمته العجوز ، وأخذ يحدثها همســا لبعض الوقت ثم أذن لها بالخروج من الغـــرفة ، وحين خرجت الخادمة كانت تمسك بورقات كلفت بتوزيعها على كل سكان البيت .

أخذت زوجة السيد وحدانى احدى هذه الورقات ، ولما كانت على غير المام تام بالقراءة والكتابة فقد لجأت الى أولادها ، كان ابناها وكذلك بناتها الثـــلاث لايزالون فى عجب من الأمر ، وأخيرا قرروا أن يقرأوا نص الورقات التى صيغت على نسق واحد ، فأمسك الابن الأكبر ـ الابن البكر للعائلة ـ باحدى الورقات والتى طبع أعلاها خاتم المتجر الســـابق لأبيه ، بينما ركز الآخرون عيونهم على فمه :

« لقد أفلســـت منذ مدة ، تعلمون ذلك ، لكن لماذا ؟ أجيبونى !

فقدت مكانتى وكرامتى وحياتى منذ عشر سنوات ، من كان يتصور أن يضيع يوما متجرى بكل أجهزته الضخمة المنظمة ؟ أين لكم من هو أصدق وآمن منى ؟! تعبت سنوات. واستنفدت طاقتى كالكلب ، حين كنت فى شبابى كنت آكل وجبة وتفوتنى وجبة ، حرمت نفسى كل لذة حتى ارتقى بحق وعدل يليقان بى ، وقيت امرأتى وأطفـــالى عثرات التعاسة ، أنا الذى كنت يوما لا أزيد عن شخص تعس يأكل الجوع فى دار أبيه ، بلغت بتعليمى المتوسط ونشاطى الدؤوب الى درجة ان انشـــغلت بمنافســـة أكبر تجار العاصمة ، كان ذكائى واستعدادى الفطريين سببا فى ان أوجه كل حادثة مهما صـغرت الى صـــالح تجارتى ، باختصار تضاعفت ثروتى فى غضون عامين أو ثلاثة ، بلغت أموالى أرقاما خرافية ، وأحييتكم حياة مترفة بلا منغصات ، ولكن قولوا لى لماذا أفلست ؟ اذهبوا واسألوا الحكومة ، والغرفة التجـــارية ، ووزير المالية ، ورئيس جمهورية ألمانيا ، هل هذا جزاء عمر من النشاط والكفاح الصادق ؟!

فى هذه السنوات العشر من البطالة كنت دائم التفكير فى سبب بؤسى ، هل حل خلل ما باستعداداتى وذكائى ومعدل فعاليتى ؟ مطلقا ، أبدا أبدا ، كان لكل شىء أثر عكسى على ، كنت أنام الليل ، اديت فريضة الحج ، كنت استيقظ فى الصباح ، نشــيطا ، وأؤدى الزكاة ، باعوا ديارى وسددوا بأثمانها ديونى ، صـــادروا بضائعى ،

استولوا على أموالى ، وكان كل الناس يهنئوني على أنى لم أدخل السجن ، الآن وقعت فى ضائقة ، أريد عملا ! دبروا لى عملا ! داهمتنى الشيخوخة وكذلك زوجتى ، وانتم يا أطفالى الأبرياء تحمر وجوهكم من اللطم ، كفى ، لا مزيد قررت أن أكافح قدر طاقتى وأن أعبر بأعلى صوتى عن آلامى وبؤسى ، ولابد أن أقابل رئيس جمهورية ألمانيا ، ووزير الاقتصاد الأمريكى على وجه الخصوص ، ولهذا الغرض احتاج الى مكبر صوت خشبى أصرخ فيهم به ، أود لو يعلم الجميع ان لى اليوم صوتا عاليا .

امضاء ـ وحدانى »

رغم ذلك لم يبد أى قلق او اضطراب على أى منهم فى اللحظات الأولى ، ولو أن لقاء رئيس جمهورية ألمانيا ووزير الاقتصاد الأمريكى كان يبدو ضربا من الحمق بعض الشىء ، وكان الصوت العالى شيئا لا سابقة له فى حياة السيد وحدانى .

فى الســـاعة الواحدة والربع بعد الظهر بلغ القلق والاضطراب مبلغه فى قلوب الأسرة حين تعالت من غرفة السيد وحدانى أصوات ثائرة ، كان السيد وحدانى يتلو فى وضوح وقوة أشعارا من شـــاهنامة الفردوسى على طريقة جمعيات الفتوة ويدق على أنغامها على صـــينية فضية كبيرة كانت قد بقيت من عهد الثراء .

لم يعد الصبر جائزا ، ولما كانت هذه المدينة خالية من مستشفى أو من طبيب متخصص فى الأمراض النفسية استقر الأمر فيما بينهم على أن يلحقوا الأب بمســـتشفى الأمراض العقلية بأسرع وقت ، كانت مدينتنا القصية هذه هى المدينة الوحيدة فى كل هذه المنطقة الشاسعة أو ـ على حد قول الاداريين ـ الوحيدة بكل هذه المحافظة التى حظيت بنعمة وجود مســـتشفى للأمراض العقلية ، حتى مركز المحافظة لم يكن به شىء كهذا ، وفى العاصمة بدأوا مؤخرا فى انشائها ، كان المحافظ فى محافظتنا يختال مرحا بهذه الميزة، ولو أنه أحيانا يتحسر على وجوده فى هذه المحافظة الهادئة المفعمة بالأسرار والقابعة بالبيداء المترامية الأطراف وحيدة تفصلها أميال عن المدن البهيجة الصاخبة بالحركة والعمران النشيط ، كانت صحف المركز تطلق على مدينتنا وأطرافها اسم « المنطقة المنبوذة » ، ومن حين لآخر كانت تورد على صفحاتها حكايات عن بلاهة قاطنيها وسفاهئهم .

ربما كان الأمر كذلك ، اذ لم يكن مستشفانا كسائر المستشفيات ، اذ لم يكن أى من القواعد العلمية أو العملية مرعيا فيه ، بل ولم يكن معروفا مدى اشـــراف الادارة الصحية عليه ، فى الحقيقة كانت تدير هذا المستشفى العظيم الرمزى جماعة لم نر أيا منهم أبدا ، ولم تكن تلك الجماعة تشارك فى اجتماعات المدينة وكانت ثمة شائعة قد انتشرت فجأة وذاعت فى المدينة والصحراء والقرى النائية تقول ان رئيس المستشفى طبيب مجازى هرم يساعده عدد من الأطباء

المساعدين والممرضات الأشد هرما ، أما المسائل الأخرى من قبيل ما اذا كان هذ المستشفى حكومى أم أهلى ، وكم يضم من المجانين وكم تبلغ ميزانيته ، وما الى ذلك ، فهى أشياء قد ظلت طى الغموض وبالتالى أضحت غير ذى أهمية .

نفذت أسرة السيد وحدانى قرارها ، فوصلت شيرين هانم برفقة الأسرة الى باب المستشفى متأخرة نصف ساعة .

يقع مستشفانا بأبعد أحياء المدينة وأشدها خرابا ، فى الواقع كان أشبه بقلعة حربية ، بابه الأسود الضخم مغلق دوما تحيط به أشجار الدلب العتيقة الضخمة من كل جانب .

جاءت أسرة السيد وحدانى وأقارب شيرين هانم وقد أفاقوا لتوهم من تأثير الضربة الأولى المشئومة المذهلة ، جاءوا الى باب المستشفى المغلق يستطلعون الأمر ، كان الابن الأكبر يتخذ موقفا معارضا ، اذ اقترح الذهاب بالأب الى العاصمة والحاقه بمصحة خاصة ، وكانت الأم وبناتها يعتبرن هذا الأمر ضربا من المستحيل مع ذكر الأرقام والشواهد ، اذ لم يكن المال الكافى لمثله غير متاح ، أما السيد وحدانى الذى كان قد ترك صينيته الفضية بالبيت فقد أخذ يضرب على بطنه ضربا رقيقا وينشد بصوت حماسى .

أصيب أقارب شيرين هانم ـ الذين كانوا قد اتخذوا ركنا قصيا يجترون شكوكهم وسوء ظنونهم ـ بالصدمة من جراء مواجهتهم لجماعة أخرى ، وبسبب اطلاعهم على المضمون الصارم المرير للاعلان الملصق على باب المستشفى، وهى نفس الصدمة التى ألمت بأسرة السيدة وحدانى بدورها فى الدقائق الأولى ، كان هؤلاء الأقارب الذين لا يحصون عددا لسيدات وبنات فى أعمار مختلفة : عجائز حدباوات لا تساوين لقمة خبز ، ونساء سـمينات وفتيات يانعات حسناوات ذوات أعين سوداء شيطانية ، ولم يكن برفقتهن رجل واحد ٠

نسـيت أسرة السـيد وحدانى فجأة ولى نعمتها واستغرقت فى الفرجة على هؤلاء النسوة ، هل لنا ان نقول ان هؤلاء النسوة كن يرتدين جميعا ثيابا وعباءات سوداء مسكية وقد وسـمن حواجبهن وطوقن أعناقهن وأذرعهن بحلقات ذهبية ؟ ، قالت امرأة السيد وحدانى لنفسها : « ان لنا صلة بعائلة دينية تليدة » ٠

جلست شيرين هانم على احدى المصـاطب الحجرية العريضة أمام باب المستشفى فى مواجهة السيد وحدانى ، وقبل أن تفترش منديلها على ركن منها صاحت :

ـ أنا ثور ، انى معك أيها السيد المبجل ! ألا تندهش ؟ أنا ثور ! هل تفهم ؟ »

صمت السيد وحدانى فجأة عن انشغاله بشأنه ونظر اليها :

ـ لماذا ، لماذا ؟ أنا مندهش ، أنا لم أر ثورا مثلك من قبل ٠

نهضت شيرين هانم ومضت باسمة نحو أقاربها ، ثم قالت وكأنها قد سرت :

ـ أخيرا أدرك المرء حقيقة وجوده فى هذه الدنيا ، والأهم من ذلك أن يندهش !

عاد السيد وحدانى الى أناشيده على مصطبة المستشفى ، ولكن بصوت أهدأ وأشد حذرا ، وكان من حين لآخر يختلس النظر الى شيرين هانم التى دخلت فى زحمة النساء من أقاربها ٠

الى جوار المستشفى ومن وراء طابور من أشجار الدلب كان ثمة طريق يؤدى الى أراض بور بلا زرع ولا ماء خارج المدينة ، كان ذلك الطريق يبدو فى هذا الوقت من بعد الظهر عريضا جافا موحشا ، قطعان من الأغنام والماعز تساق الى المذبح بالمدينة هجعت على مرتفعات الصحراء ووديانها طلبا للراحة قبل الموت ، كانت أغناما سوداء وقد اصطفت متقاربة فى عدة خطوط متقاطعة تهز أفواهها ولحاها القصيرة فى سكينة ، كانت تبدومن بعيد وكأنها جماعات من اللاجئين الجوعى والعطشى وقد تلاصقوا خوفا بانتظار

الطاعون والكوليرا ، مرددين الأوراد والأدعية دون جدوى ٠

سرعان ما بلغت أحاديث شيرين هانم مراحل مخجلة دقيقة : فترك الثور مكانه للخنزير ، والجواد للانسان ، الانسان الذى يعبر عن أدق دقائق أفكاره وتفاصيل عملية التزاوج ، اصطبغت وجوه الفتيات بحمرة الخجل ، الفتيات سود العيون اللاتى كن يمنحن أولاد السيد وحدانى ابتسامات أكثر من ذى قبل ، وجعلت النساء والعجائز تصغين بآذان أشد حدة حتى لا تفوتهن كلمة ، توالت عشرات الطرقات على باب المستشفى الحديدى الضخم بمقبضه الأسود المخيف دون جواب الى جانب ذلك كانت صرخات النسوة القعيدات تطالب بحقوق لهن بدعوى مكانتهن والشهرة التى تمتعت بها عائلاتهن ، وعلت أصوات أولاد السيد وحدانى الحادة تتحدث بحماس وايمان عن الحرية النفسية وحقوق الأفراد ومسئولية مديرى المستشفى مما دل على أن اعلان المحافظ لم يكن له أدنى تأثير وان أحدا لم يصغ الى تعليماته الصارمة ٠

كانت شيرين هانم تبدو امرأة قذرة المظهر فى الأربعين من عمرها طويلة القامة لها عينان جريئتان بلا حياء ، وكان وجودها يبدو غريبا مثيرا بين هؤلاء النسوة المتشحات بالسواد اللاتى كان لكل منهن حظ من الحسن والتوافق الدينى النسوى ، كانت شيرين هانم لاتزال

تجلس على المصطبة تروى حـــكاياتها التى لا تنتهى عن الأعضاء التناسلية والأمور الجنسية ، كانت أسرة السيد وحدانى وأقارب شيرين هانم ـ الذين ما كانوا ليتعارفوا ويتقاربوا فى فرصة غير هذه ـ قد جمعت بينهم التعاسة المشتركة (وهذا حدس من جانبنا) فتركوا مرضاهم وحدهم وجلسوا متحلقين تحت شـــجرة الدلب العجوز الظليلة يتواسون ·

قالت امرأة ان شـــيرين هانم طلقها زوجهـــا وتزوج بأخريات ، التحق ولدها بالجيش وفى احدى حروب الوطن ذاق حلاوة الشهادة ، وابنتها أيضا بعد أن تزوجت أصابها السرطان ، الا أنها توفيت وهى تضع وليدها ·

قالت احدى الفتيات ان شيرين هانم كانت مصـــابة بالوسواس منذ بداية حياتها ، وفى الليل كانت تخاف أن يلدغها الثعبان ، وكانت أحيانا تتخيل نفسها وقد جلست بمطعم تأكل الكباب ، ولكن للأسف كانت شرائح الكباب ، تلك القطع المثقوبة المخيفة ، لا تنتهى أبدا وكانت تتطاير من الطبق بلا انقطاع وكأنها خيط وتهبط بفمها ·

فتاة أخرى لها يدان سمينتان بيضاوتان انغرســـت أساور الذهب على رسغيها وحفرت عليهما أطواقا تحدثت قائلة ان شيرين هانم كانت تهوى الاطلاع وتقرأ الكثير من الكتب وانها بدأت مؤخرا تنظم الأشعار العاطفية ، وجدت

الفتاة الجميلة الفرصة لكى تزين من عرض يديها ورأسها ونهديها ٠

كان السيد وحدانى وشيرين هانم كلاهما جالسين على المصاطب بعيدا عن عائلتيهما ، وقد انخفض صوتهما وخفت من الارهاق ، فأخذا ينظران كل الى الآخر ، كانت العائلتان مسرورتين بأن أهل المدينة لم يعرفوا بالحادث بعد ، وأن كرامتهما لاتزال محفوظة ، ولا غرابة في المجيء للفرجة على المرضى ، فى ذات الوقت كانت ثمة فكرة مقلقة تعذبهما : هل من الممكن ـ حتى ولو كان بالمستشفى متسع ـ ان يقبل هذان الكائنان وان يعالجا ؟

يعالجا ؟! وهل ثمة علاج ؟!

* * *

أخيرا وفى الساعة الرابعة من بعد الظهر ، انفتح باب المستشفى ، ذلك الباب الأسطورى المهول نصف فتحة ، مثيرا فى الجو ضجيجا عاليا وتراب ، وكأنه لم يفتح منذ قرون ، برز قليلا من وراء الباب شيخ مهيب بدين يرتدى رداء أبيض ، خيم الصمت على الجميع وتقهقروا عدة خطوات الى الوراء ٠ لا ريب ان الشيخ البدين ذا الرداء الأبيض قد ظن النساء المتشحات بالسواد حدآت أصابها الذعر لحضوره فتراجعت ، ابتسم ٠

تقدم ابن الأكبر للسيد وحدانى وقال :

ـ سيدى الطبيب !

قال « الطبيب » :

ـ نعم ، أرى ، ولكن ألم تقرأوا اعلان المحافظ ؟ أثرتم كل هذا الضجيج دون معنى ، مامن متسـع لدينا حتى للخطرين من المجانين ممن يقيدون بالسـلاسل ، لعلكم تدهشون حين أقول الا مكان حتى لنا نحن ٠

ـ رغم كل هذا فلازلنا متعلقين بهذه المـدينة ، لقد صعرنا خدودنا ، أوليناكم كل احترام ، كما أن عائلاتنا لا تسمح لها كرامتها بأن يطلع على أسرارها سواكم أنتم وتنظيماتكم ٠

ـ يمكن لكم أن تحيلوهم الى المسئولين المختصين ٠

ـ لا نريد أن نأخذ مرضانا الى المركز ، هذا يفوق طاقتنا ، كما اننا نريد حقنا ، ينبغى ان يكون كل شىء على المشاع ، حتى المستشفى ٠

ـ كم شخص هم ؟

حينئذ خلص السـيد وحدانى نفسـه من يد زوجته وخادمته واندفع الى الأمام وصـب صوته المصم للآذان على رأس الطبيب ووجهه :

ـ افلاس وبطالة ٠٠ هذا يخص حياتنا ، مقعد وفراش ٠٠٠ هما كذلك من صميم حياة أولئك السيدات ٠

وأشار الى شيرين هانم وأقاربها ، أخفى الطبيب جزءا أكبر من جسمه وراء الباب وقال :

ـ حالة مريضكم غاية فى السوء ، علينا أن نتدبر الأمر ٠

أمسكت شيرين هانم بيد السيد وحدانى وانخرطت فى البكاء ، تقدمت الحدآت باسمات ، فقال الطبيب :

ـ نأخذهما ونفحصـــهما ، ونبلغكم بالنتيجة ، ربما نشفيهما تماما

قالت احدى النساء :

ـ ولكن يجب أن نعرف ما يجـــرى لهما ، ربمـــا احتجزتموهما ، حينئذ ماذا يحدث لهما ؟ لا أحد يعرف خبايا أموركم ٠٠

ـ هذا مستشفى ، ماظنكم ؟!

ـ مامن أحد خرج منه ، لايدرى أحد ماذا يأكلون ، وما دواؤهم ، وكيف يعاملون ، ألم تسمع مايقال من انكم تقتلون المجـــانين هاهنـــا ؟ تلقونهم فى زيت محمى أو تشنقونهم ؟

لمعت عينا الطبيب وقال :

ـ اننا نضحى ها هنا ،و لكن ماذا عسانا أن نفعل ، مثل هذا يقال دائما عن مستشفى الأمراض العقلية ٠

قالت احدى الفتيات :

ـ لماذا لا تفتحون الباب لو كنتم صادقين ، لم لا تفسحون لنا الطريق ؟

ـ آه ، اما هذا فشأن وزارة الصحة ، لا شأنكم ... عليك أولا وقبل كل شىء أن تتزوجى .

قال ابن السيد وحدانى الأصغر :

ـ بل انكم لا تنبئون العائلات عن أحوال مرضاهم . اما يحق لنا اذن أن نرتاب ؟!

ـ لكل أن يظن مايشاء ، اما نحن فليس لدينا جهاز كبير ، ثم ماذا لدى المجنون من أخبار ننبىء عنها ؟ لنعترف الآن انكم معاصرون اذ تطلقون عليهم صفة « مريض » !

ـ ولكن اطمئنوا ، فلستم ذوى قوم من الرعاع : هؤلاء قوم ذوو شأن ، وسيأتون يسألون عن مرضاهم أنا لا ريب أمزح ، ولكن سيدى الطبيب ، لا صلاح فى شنقهم !

ـ آه ، بعد أيام تنسونهم ، فيهلكون تلقائيا أو ـ وأنا أيضا أمزح ـ يختنقون .

فى نفس تلك اللحظات الأولى ، تملك الانهاك الجميع، حسن ، ما فائدة كل هذه المفاوضات العقيمة الغبية ؟ أليس من الأفضل أن نلحقهما بالمستشفى ونمضى كل الى حال

سبيله ؟ وعلى أية حال ماهى قيمة السيد وحدانى وشيرين هانم حتى يهدر كل هذا الكلام فيما لا طائل من ورائه ٠

فجأة اختفى الطبيب ، خرج حارس البوابة المتين البنيان والذى كان يبدو وكأنه قد تحجر فى مكانه ، وأخذ السيد وحدانى وشيرين هانم الى داخل المستشفى ، تتبعتهما العائلتان بالنظرات الأخيرة ، دار الباب التاريخى الهائل على كعبه محدثا صوتا يقبض القلوب ، وثار الغبار مرة أخرى من ثناياه ، وفى نفس الفترة القصيرة التى كان الباب فيها مفتوحا الى منتصفه كانت امرأة السيد وحدانى قد رأت صفصافة مجنونة ضخمة وقد انتثرت أغصانها حول حوض ماء ورأت أيضا مقعدين خضراوين وتمثالا حجريا لأسد يضحك ٠

كان الوقت قرب الغروب ، وكان النسيم اللطيف ينثر بالجو الرائحة المتصاعدة من مطبخ المستشفى وكان راعى الغنم ينشد بصوت هادىء حزين ، بعد ساعة ، أى فى نفس اللحظة التى دقت فيها ساعة المدينة العتيقة بايدان خمس مرات ، انفتح الباب مرة أخرى ، وفى هذه المرة كان الحارس المتين البنيان يخفى نفسه وراء حديد الباب ، ولم يكن ثمة طبيب ، ظن الجمع ان الباب قد فتح من تلقاء نفسه بوسيلة خفية ، صف من أشجار البقس الصغيرة وبركة وعدد من المقاعد الخضراء وامرأة عجفاء منتثرة الشعر نصف عارية تستند الى شجرة وقد ربطت حول

معصمها أصفاد سوداء ، كانت أشياء وقعت عليها عينا امرأة السيد وحدانى من زاوية أخرى ٠

قال الحارس بصوت أجش :

ـ تم توقيع الكشف عليهما ، حالتهما وخيمة ميؤوس منها ، لا حيلة لنا الا أن نقبلهما ٠

قفزت النســوة المتشـحات بالسواد وعائلة الســيد وحدانى غبطة ، كل تهنىء الأخرى على ما تم احرازه من نجاح ، قال الابن الأكبر للسيد وحدانى :

ـ ألا ينبغى أن نحضـــر من أجلهما شيئا ؟ ثياب ، غذاء ؟ ألا يجب أن نوقع على أوراق ما ؟ أما من مراسم ؟

ـ لا ٠

أغلق الباب ، وعلت أصـــوات الرضا والسرور من العائلتين ، فقد تخلصــتا على الأقل من اهــدار الكرامة ونظرات الجيران المنقبة ونفقـــات باهظة ورعاية مجانين خطرين ، ولكن لم تعد ثمة رابطة بينهما ، لأن ٠٠٠ ربما لا تشتركان فى التعاسة (وهذا حدس من جانبنا) ، لذا فقد انفصلتا عن بعضهما البعض ، نظرات أولاد الســـيد وحدانى ، فى هذه اللحظة الأخيرة حين كانت العائلتان تودعان بعضهما البعض قد امتزجت بالنظرات السوداء الشيطانية للفتاتين الحسناوتين البدينتين وتوقفت قليلا ، وثقوا العهود فيما بينهم ٠

كانت الشمس مشرقة على الأسطح ونشوة تموج فى الجو ، كان هناك عدد من أهالى المدينة يمرون بجانب المستشفى ، ألقوا على الفريقين نظرات حادة مشوبة بسوء الظن ، كان صوت الناى قد خمد ، وفى الصحراء المحيطة، تناثرت قطعان الأغنام تاركة وراءها سحابة غامضة بلا شكل محدد من الغبار ، كان الراعى يقودها نحو مصيرها الدامى •

كلما كانت العائلتان تبتعدان عن المستشفى كل فى طريق كان هذا البناء الهائل يبدو وكأنه يكبر ويفقد محدوديته بدلا من أن يصغر ويدق حجما ، وصلت أسرة السيد وحدانى بسرعة الى البيت ، وبدأت حياتهم الرتيبة المملة ، فى روحى ابنى الأسرة فقط ومض شعاع من أمل كمصباح خافت الضوء •

اضطر أقارب شيرين هانم الى قطع الطريق فى مدة أطول عبر حارات المدينة الضيقة المتداخلة كانت منازلهم بعيدة بعيدة ، كن يلففن رؤوسهن بعباءاتهن السوداء ، فلا تبدو من كل منهن سوى عين واحدة دون الأخرى ، فى تلافيف احدى الحارات التقين بجماعة يحملون على أكتافهم نعشا فى الطريق الى المدافن ، انتحت النسوة المتشحات بالسواد جانبا وقرأن الفاتحة همسا ، ثم استأنفن الطريق وسط غبار غروب الحارات •

لم نسمع عن أشياء سرية الا فى الأعوام التالية ، شائعات كانت تصدر من المدينة نفسها وتنتشـــر بالبلاد والقرى المحيطة ثم تسرى بالمنطقة المنبوذة بأسرها ، ثم تعود ثانية الى حارات المدينة الترابية الضيقة ، وفى الليل تتردد تحت الأسقف الخشبية وحول فرن المدفأة : تزوج ولدا السيد وحدانى من فتاتين من أسرة دينية ورحلا بهما الى العاصمة ترافقهما أمهما والخادمة العجوز ، والأخوات رحلت كل الى مدينة حيث بيت الزوجية ، وانشغلن بتربية أبنائهن ، قيل ان السيد وحدانى قد تزوج من شيرين هانم بالمستشفى وانهما قد شفيا ، وكان يقال ان أحدا لم يسأل عنهما أبدا طوال هذه السنوات الطويلة ، ثمة شـــخص بالعاصمة سمع من ابن السيد وحدانى الأكبر خبر موت والده بمستشفى الأمراض العقلية ، والسبب على ما يبدو فى الظاهر كان الالتهاب الرئوى وضعف القوى الجسمانية، وغيرها ... وغيرها .

ثمة شائعة سرت تقول انه ذات صباح حزين مغبر فى الخريف ، حيث اكتست الدنيا بلون ترابى ، وخلف مبانى المستشفى ، وفى نفس الفناء المشؤوم المحاصر بأشـــجار الصفصاف والدلب والبقس المتشابكة ، وعلى منصة مشنقة مستشفى الأمراض العقلية ، تم شنق كل من السيد وحدانى وشيرين هانم ، وفى نفس المكان ، دفنت جثتاهما .

كانت هذه الشائعة الأخيرة لا ريب كاذبة أو على الأقل مبالغا فيها ، أما الشيء المؤكد فهو ان أحدا لم يعترض حتى الآن على المستشفى ولا طالب أحد بتقصى الحقائق او جمع المعلومات فيما يتعلق بكيفية موت هذين المريضين أو المرضى الآخرين ، وعن الأوضاع الداخلية لهذه القلعة العتيقة الحصينة النائية ٠

لعل الكتاب الصحفيين بجرائد المركز ومجلاته كانوا على حق ، ربما كان هذا الأمر من اختصاصهم هم ٠

* * *

غصن بنفسج من أجل عديد

نسيم خاكسار

أخذوني أنا وعديد معا ، كان المطر ينســـاب قطرات دقيقة ، قرب المعسكر ، كان التراب ذا لون بنى فاتح ، كان عديد يتقدمنى ، وكان من حين الى آخر يستدير بقطرة مطر على جبينه وينظر فى وجهى ويبتسم ، ابتسامة طفولية وحزينة ، كانت أيادينا فى قد واحد معا ، حارسى كان شابا ، كان يرافقنى كظلى ، وحين كان شىء ما يجذب انتباهى ، كان يبطىء خطاه ، لم يكن بالشارع شىء فى مجال نظرى ، سوى جواد كان يجر عربة محملة بأجولة الأسمنت والجبس ، والأطفال وهم عائدون من مدارسهم ، كان مكاننا فى السيارة ضيقا غاية الضيق ، فيما عداى أنا وعديد كان ثمة عدد آخر من الأشخاص فى الطريق الى دائرة المدعى العام ، كانوا يروجون الهيروين أو الأفيون ، أو متهمين بالسرقة ، نزلت أنا وعديد بعد الجميع ، الآن حيث كنا نسير على الأقدام أحببنا النظر الى السماء ،

كان عديد حزينا لأنه لم يكن بامكانه ان يحرك يديه ، عندما خرجنا عن الطريق أفرغ عديد اضطرابه على التراب المبلل بماء المطر قرب المعسكر ، كان يدب على الأرض بقوة ، أو يحك نعل حذائه على التراب ، ثم يركل الطين العالق بحذائه حوله ، ضاق به حارسه الكهل :

« اهدا ياسيد ، أنت عليك بيضة ؟! »

ابتسم عديد ، عاد وأشار الى أثر حذائه على التراب ،

قلت : « كفاية ياعديد ! »

قال : « ياسين ، حط رجلك هنا »

بلا ارادة وضعت قدمى مكان قدمى عديد لعدة خطوات. ولكن كان الأمر سيئا وكان القيد مؤلما ،

قال حارسى : « أنت اللى جبته لنفسك »

عاد عديد وابتسم وقد علقت قطرات المطر بشعره المجعد وسقطت حبة ماء من فوق جبينه ،

« مبسوط يا ياسين ؟ » ، ثم ركل الطين مرة أخرى ٠

تحركت بندقية حارس عديد الكهل وكادت تسقط من فوق كتفه ٠

قلت : « عديد ، اهدا ! كفرت الراجل العجوز »

عاد عديد وحملق فى وجه حارسه وقال : « وشه زى وش الخواجه ينى ، انت ندهت له ؟ »

وقال للرجل الـــكهل : « كان لازم تبقى حارس على كوبرى » .

قال الكهل : « الله يجازيك ! بعد العمر ده كله عايزنى أقع فى ايد قطاع الطرق ؟ »

ضحك عديد بصوت مسموع : « أيه رأيك ياياسين ! والنبى مايعجبوكش قطاع الطرق ؟ »

قلت : « أيوه » ـ ووضعت قدمى مرة أخرى مكان قدمى عديد .

قال عديد لحارسه : « الحرامية ، مش قطاع الطرق »
قال حارسى : « صاحبك حبوب أوى ، ها ؟ »

استئأت من كلامه ، ولأول مرة استدرت وحملقت فى وجهه ، بدا لى أحمق غبيا ، ساءنى أن أمزح معه ، كان طرف أنفه حادا ، وكان له وجه شاحب ، كان عديد لايزال يجادل حارسه حول كلمة « قطاع الطرق » ويركل الطين العالق بحذائه .

كان لون طوب المعسكر الكبريتى الأصفر يبدو للعين أشد صفرة ، عدد من الجنود يقومون بالحراســـة حول المكان ومن حين لآخر كان رئيس المجموعة وهو قائد الحرس يخرج من الممر ليلقى نظرة عليهم ويعود فى هدوء ، وعندما وصلنا الى الطريق الأسفلت قال حارس عديد :

« دلوقتى بأه كل اللى عندك اعمله »

قال عديد : « بالراحة على يابا ، الخواجه ينى كان أرحم كتير »

قال الحارس الكهل : « يلعن أبو أم ينى ٠٠ ابن القحبة بيقول انى زى الخواجات ! »

ضحك حارسى وحك طرف أنفه بيده :

« أنت نفسك تبقى زيهم ! »

« مالكش دعوة »

« ايه مليش دعوة ؟ دلوقتى بتنكسف أوى ، مش عايز تبقى خواجه »

قال حارس عديد : « اختشى ، وماتعملش علينـــا أبو العريف ! »

كان حارسى يحاول الظهور بمظهر المعاصر المتحضر ، كنت أنا وعديد مسرورين اذ نسير جنبا الى جنب ، كان عديد أسعد منى ، كان عديد يود أن يرانى أكثر سعادة على الدوام ، اما أنا فكنت أتذكر أمى ، كنت كلما مرت بخاطرى استغرق فى تفكير عميق ، كنت قد قلت لعديد انه سيكون من الأفضل ألا تأتى العجوز ، اما الآن فلم أعد أطيق صبرا ، كان عديد يعرفنى ، كان يعرف أن بعض الأمور تثير غضبى وثورتى وتؤدى الى مضايقتى ٠

كان عديد يدرك أنى اذا ما رأيت أمى وسط الجنود لكانت فضيحة لى ، كنت أغتم ولا يطيعنى قلبى أن يرى سواى حزنها وقدها الضئيل تحت تلك العباءة السوداء القديمة ، لاتزال عيناها المتوســلتان بذاكرتى أول يوم التقينا وأنا وراء القضبان ٠

قلت لعديد : « فكرك تكون جت ؟ »

وكنت أخاف أن أنظر داخل الممر ٠

قال عديد : « لا يا ياسين ، مادام قلت لها ماتجيش مش هتيجى »

قلت : « لو جت ، لو لقيتها ، هالعن جدود أى عسكرى مين يكون »

قال : « مش جاية يا ياسين ! مادام قلت لها ماتجيش يبقى مش جاية »

سلم حارسى « أوراق اعتمادى » لقائد المعسكر ، وسلم أيضا أوراق عديد ، وحين دخلنا الممر فكوا وثاقنا الا أن القيود ظلت معلقة بأيدينا ، وقف حارسى بجوار الباب ، وجلســت أنا وعديد متجاورين فوق دكة طويلة رمادية اللون ، كانت الغرفة المجاورة للممر صغيرة وطويلة وفى آخرها باب مربع صغير بدت السماء خلفه بلون بنفسجى داكن ، كنت أود لو يأخذوننى أولا ، كان حارسى كلما أدار رأسه يعود فجأة ويرمقنى بنظراته كأنه كان يخشى أن أنسل

خارجا من الباب الصغيرة ، أما حارس عديد فكان هادئا ، تركنا وذهب الى دورة المياه ، كان كلما اعتراه الغضب أخذ يطلق السباب كالحصى ، لم نكن أنا وعديد نغضب من سبابه ، حين عاد قال له عديد :

« ايه ياخواجه ينى ! امتى تبتدى بأه ؟ »

قال : « أصبر أنت الآخر بالخواجة ينى بتاعك ده ! » ثم عقب هامسا : « انتو الاثنين عاجبنى أوى ، أبو طويلة ده أنا كفرت منه ، نفسى يدوله تأبيدة »

تذكرت جبور ، كان حين يسير يسبب ضيقا لحارسه الكهل ، كان جبور يريد أن يسرع الخطى الا أن الكهل لم يكن يستطيع ، كان جبور قد استشاط غضـــبا وقال له « يا الدغ » .

قال عديد : « اذا زودت فى الشتيمة هانقولك زى جبور ما كان بيقول لك »

قال : « ملعون أبوك »

قال عديد : « لا ... » وأطال فى حرف الألف

فقال : « شفتوا بأه انكو كلكو ولاد قحبة ؟! »

كان يستاء من أن يوصف بأنه « ألدغ » ، كان يغضب غضبا عارما من هذه الكلمة ، قال لعديد :

« دد واد مش تمام ، طلع روحى برجليه الطويلة دى ، وآخرتها يقول يا ألدغ »

قلت : « ماقلتش هايبتدوا امتى »

لم يكن الكهل منتبها ، تابع حديثه بنفس الطريقة : « هو بصراحة عفى ، صحيح احنا بقينا كراكيب ، لكن . »

قال حارسى : « أوه ، خلاص بأه »

قال الكهل : « كنت بأتضايق منه أوى ، لو كنت مكان رئيس المحكمة كنت أديله تأبيدة ، هو ابن القحبة ده اللى سود عيشتهم »

كنت أنظر الى الخارج خلال الباب الصغير ، أرضية السماء البنفسجية الداكنة تحولت الآن وراء الباب الى اللون الرمادى الداكن ، بلا ارادة تذكرت أمى ، سمعت بالحاح انها كانت قد أتت وانها واقفة وراء الباب ، سمعت أنهم نهروها ، لهذا فائدة أيضا : فما كنت أطيق أن أرى كيف نهروها ، لابد أنهم قبضوا على كتفيها الضئيلتين ونهروها ، فى نفس اليوم حين كنت خارجا من الغرفة رأيت فى عيون الجنود دلائل الخسة ، عندما كنت فى طريقى لركوب السيارة رأيت هذه الدلائل ، لكنى لم أكن أدرى لمن تكون دلائل الخسة هذه فى عيون الجنود، وبعد أن جلست بالسيارة قال الحارس لى ذلك ، لكن كان قد فات الأوان خرج الأمر من يدى ، ولم يكن باستطاعتى سوى أن أراها

بقدها الضئيل المكوم من خلف الزجاج واقفة بجوار باب المعسكر ، حينئذ فقط أطلقت عليهم ما ورد على لسانى من ســـباب ،

قلت : « ياعديمى الشرف » ، واندهش حارسى من غضبتى المفاجئة ·

قال عديد :« ياسين ، قلت لك مش جاية ، لحد امتى هاتفضل تفكر فيها ؟! »

قال حارسى : « ندهوا عليكم ، قوموا لو سمحتم »

بيدى الطليقة مررت على شعر عديد ونهضت ، كان شعره مبللا ، وقد أضفت قطرات المطر العالقة به كحبات الندى ملمسا عطوفا ·

قلت : « مع السلامة »

قال : « ياسين ! » لا أدرى ماذا أراد أن يقول حيث قاطعه الكهل قائلا : « سيبه يمشى بأد »

وسحبنى من يدى ·

قال عديد فى غضب : « ياألدغ » ·

كان عديد يحاول من أجلى أن يحتفظ بهدوئه ، وحين قال « يا ألدغ » أدركت أنه لابد قد غضب ، اندفعت خارجا مع الحارس ودلفت الى قاعة المحكمة ، كانت جدران القاعة صفراء اللون ، رجال جالســـون ، بدا لى كل شىء وقد

شحب لونه ، طلى الاصفرار كل الوجوه بلون الزعفران ، كان الهواء ينفث رائحة الكبريت ، تحملت هذه السحن العابسة المنهكة ساعتين كاملتين تحت ثقل ثقيل ، وحين خرجت كنت منقبضا منهكا ٠

قال حارسى : «ها ! »

كان عديد واقفا بباب الغرفة ، رفعت له أصبعين قائلا : « عامان » ٠

عندما مر بجانبى فى طريقهالى داخل القاعة قال : « أنا كنت عارف » ٠

كانت على وجهه ابتسامة طفولية حزينة ، ونوع من الخوف ، طلب من الجندى المكلف بحراستى أن يأخذونى بسرعة ٠

كان قلبى لايزال مثقلا ، كان هواء القاعة الثقيل المقبض الذى تحملته ساعتين كاملتين لايزال يثقل على أنفاسى ٠

كان عديد دائم الالتفات حوله فى خوف كالعصفور ٠

قال حارسى : « لازم نمشى بسرعة »

قلت : « لأ ، خلينا ندخل الأوضة ونقعد نستنى عديد هناك » ٠

قال : «لأ ، هو بمزاجنا ؟! دول اتصلوا بالتلفون ، لازم نروح عالسجن واحد واحد » ٠

رفعت يدى ، قيد الحارس يده الى يدى معا ، وخرجنا من المعسكر ، كان الجو غائما ، وكانت آثار طين حذاء عديد لاتزال على الأسفلت أمام المعسكر . وعلى الطريق المقابل حصان يجر عربة ثقيلة ، وكان السائق واقفا على العربة ممسكا بلجام الحصان ، قلنسوته كست رأسه فأكسبت وجهه لونا داكنا فبدا مبهم الملامح من بعيد ، مثل لوحات فان جوخ ، ظللت أنظر الى العربة من بعيد حتى انمحت شيئا فشيئا فى الهواء الرمادى ، ثم خطونا أنا والحارس والقيد فى أيدينا معا على تراب بنى اللون رطب لزج ، كانت آثار أقدام عديد يملؤها الماء ، لم يعد ممكنا ان أضع قدمى فيها مهما ضربت بقدمى لم يكن التراب يعلق بحذائى ، كان حذائى كتانيا رقيقا ، فكنت اذا وضعت قدمى مكان قدمى عديد كان الماء يغمرها ، كنت أنظر باشتياق الى الفضاء من حولى ، كنت أعلم أن ماهو آت لا يزيد عن مجرد بقاء على قيد الحياة فى غرفة مغلقة مملة ، كنت أود أن أحتفظ فى ذاكرتى بالمناظر التى أراها لآخر مرة : وجه سائق العربة ، آثار أقدام عديد ، الجو الغائم ورائحة الرطوبة التى تفوح منه .. ، كنت أود أن أحتفظ بالأصوات فى خاطرى : سباب الحارس الكهل ، صوت قطرات المطر ، هدير عجلات العربة .. وحين بلغنا

الطريق عدت لأركل طين حذائى ، وجه حارسى كان لايزال أبيض شاحبا ، بلا اردة ألقيت نظرة على بوابة دخـــول المعسكر : امرأة تتشح بعباءة سوداء وقد وقفت فى ركن قصى تحت المطر تنظر الى ، درت بسرعة وفى حدة ، الا أن الأصفاد منعتنى ، توقفت ولوحت لأمى بيدى الطليقة ٠

خرمشهر ،يناير ١٩٧٣

الخــــوف(*)

جمال مير صادقي

رفع الرجل رأسه من فوق الصحيفة وهمهم :

« كلها قتل ومذابح ، لم تعد ثمة أخبار غير ذلك » ٠٠

نظر باشفاق الى طفل دقيق الحجم صغير يخطو أولى خطواته على قدميه ، انحنت أمه الشابة تتبعه حريصة على ألا يسقط متعثرا ٠

كانت حجرة الانتظار مزدحمة ، أطفال صغار يترددون بين حجرة وأخرى ، وأمهاتهم وآباؤهم فى أعقابهم ، نظر الرجل الى الأطفال وهم يضحكون ويبكون ، ارتدت نظراته وثبتت على عنوان الصحيفة بالخط العريض ، طوى الصحيفة والقى بها فى اناء القمامة ٠

(*) من مجموعة هراس ، تهران ، انتشارات اكاه ، ١٩٧٧ ٠

جدار دقيق يفصل بين حجـرتى الانتظــــار ، وعلى الجدران ورق حائط منقوش بألوان ورسوم جميلة ، وفى أسفل الجدار بين الحجرتين حوض زجاجى صغير تتحرك بداخله أســــماك صغيرة ملونة تسبح بين أعلى الحوض وأسفله ·

ربت الرجل على شعر ابنته الصغيرة المسترسل الناعم كانت البنت تجلس بجواره على كرسى جلدى ، محمومة ساهمة ، تنظر الى الأطفال ·

تردد رنين جرس التليفون فى جنبات الحجرة ، التقطت الفتاة التى اتخذت مكانها وراء المكتب السماعة وقالت :
« عيادة الأطفال ، أمرك »

نظر الرجل الى وجه الفتاة المتعب وهى تصغى الى التليفون فى أناة ، وسمع صوتها الرقيق :

« لاشىء ياسيدتى ، هذه حمى واسهال وبائى ، لا تقلقى على الطفل ، أتريدين أن تتحدثى الى الطبيب ؟ لحظة من فضلك » ·

نهضت ابنته منمكانها وذهبت نحو دمية كبيرة جميلة وضعت على نافذة بداخل علبة زجاجية ، طفل صغير وقف أمام حوض السمك وأمه تشير الى الأسماك ، عادت البنت ونظرت اليهما ثم اتجهت نحو حوض السمك ، مشى الطفل وتبعته أمه الى الى الحجرة الأخرى ·

نادته ابنته :

« بابا ، بابا ، تعال انظر الى هذه السمكة السوداء كم هى كبيرة ..

ردت الفتاة على مكالمة تليفونية أخرى ثم نادت اسما ، امرأة شابة تحمل وليدها ، نهضت من مقعدها الى جواره ، واتخذت طريقها نحو غرفة الطبيب .

« تعال انظر يابابا ، كم هى كبيرة ..

نهض الرجل من مكانه ووقف أمام الحـــوض ، رأى السمكة السوداء وهى تقطع الحوض بطوله فى سرعة ، ثم تدور عائدة ، والأسماك الصغيرة تفر من طريقها مذعورة تغوص بين الأعشاب المائية ثم تبرز من الجانب الآخر من الحوض ، فتهتز الأعشاب الخضراء مع أمواج الماء الرقيقة وبين الأعشـــاب ترقد صدفة صناعية بيضاء فاغرة فاها فيخرج منه حباب الماء ، يصعد الحباب دائرا فى الماء نحو السطح ثم ينمحى ، وفى ركن من الحوض سفينة محطمة ترقد فوق رمال شفافة ، تدخل الأسماك الصغيرة وتخرج من نوافذها وأبوابها ، الأسماك حمراء وبيضاء وسوداء تتحرك بين الأعشاب بألوانها وذيولها وزعانفها الشـــفافة اللامعة وأجسامها العريضة الرقيقة البراقة وتســـبح بين أعلى الحوض وأسفله ، والقواقع الصـــغيرة تتمايل فوق الرمال الملونة متعانقة .

نظر الرجل الى سمكة حمراء صغيرة ببطنها البارزة الحمراء وعيونها الكبيرة السوداء اللامعة وذيلها المستدير الأبيض والوردى وكأنها فراشة ، خرجت من نافذة السفينة وانسابت بين الأعشاب فى حركات هادئة مرحة ، وصعدت سابحة ثم توقفت فى سكون تحت بقعة نور منعكسة على سطح الماء ، وأخذت تفتح فاها وتغلقه ، كان المصباح الكهربى العارى المتدلى من السقف ينشر بأركان الحجرة نوراً أصفر شاحبا ٠

مشى الرجل نحو النافذة ، كان الظلام قد هبط ، وحبات الثلج الرقيقة تنزلق على حافة النافذة ثم تسقط ، جاءت ابنته وراءه :

« تعال يابابا ، انظر ، سمكة سوداء ٠٠ »

أخذت يده وعادت ثانية أمام الحوض ، قالت ثائرة :

« السمكة السوداء تريد ابتلاع السمكة الحمراء ، انظر ، هاهما ٠٠ »

رأى الرجل السمكة السوداء وقد أسرعت نحو السمكة الحمراء وسددت الى بطنها ضربة بطرف فمها ثم عادت مسرعة ، فألمت بالسمكة الأصغر رعدة فى أنحاء جسدها وانسحبت بحركات متشنجة نحو قاع الحوض ٠

قال الرجل : « لا ياصغيرتى ، انها لا تريد ابتلاعها ، انهما تلعبان »

تركزت نظراته على الحوض ، كانت السمكة السوداء قد عادت مرة أخرى وقطعت الحوض فى سرعة ، وكانت السمكات الصغيرة تفر من أمامها وتختبىء بين أغصان الأعشاب ، وكانت السمكة الحمراء قد اتخذت من ركن من الحوض ملاذا ، فلم تلبث السمكة السوداء ان هرعت اليها واخترقت دائرة ذيلها الأحمر الجميل ، ثم ابتعدت عنها وهى تحرك فمها ، ارتعدت السـمكة الحمراء واتجهت مضطربة نحو الأعشاب ، ففاجأتها السمكة السوداء مرة أخرى من الخلف .

تصاعدت ذرات الأنفاس البراقة الى سطح الماء ، كانت السمكة الحمراء تجر جسمها نحو السفينة وأشلاء ذيلها المبعثرة وراءها سكنت الأسماك الصـغيرة الأخرى فى أركان الحوض وبين الأعشاب هادئة تفتح أفواهها وتغلقها، والأصداف البيضاء ترسل حبابها نحو سطح الماء .

سرت بأعصاب الرجل رعدة ، وصاحت ابنته :

« آه .. بابا .. آه .. اقتلعت عينها .. »

كانت السمكة السوداء قد ابتعدت تحرك طرف فمها ، وكانت عين السمكة الحمراء قد تبدلت حدقتها من عين سوداء لامعة الى حفرة بيضاء ، دارت السمكة الحمراء حول نفسها بحركات بطيئة نصف ميتة فحملها الموج الى السطح .

انحنى الرجل فى لهفة وضم ابنته الى صدره قائلا :

« لا ياصغيرتى ، لا ، السمكة الحمراء أغلقت عينها فقط » .

ملأت الدموع عيون الصغيرة ، مشى الرجل نحو النافذة ، كان وجه ابنته يحترق من أثر الحمى ، أدارت رأسها نحو الحوض وركزت عينيها عليه ، فأدار الرجل رأسها وقال :

« انظرى حبيبتى ، عاد الثلج يتساقط من جديد »

كان المصباح لايزال ينشر نوره ، وشعاعه الأصفر الشاحب متجمد فى الهواء ، كأنه سائل يفتك بأعصاب الرجل ، مر الطفل الصغير بجانبه متعثرا فى خطواته ، شيخ هرم همهم وراء ظهره ثم نهض من مكانه وألقى بصحيفته فى اناء القمامة ٠

* * *

مليكة روحي

كلى ترقى

كاشان ، وصلت ، أحس ارهاقا ، أضرب بالصحراء بلا دليل ، أسير على غير هدى ، الجو لطيف جميل ، تملأ الهواء ذرات رطبة غير مرئية ، وعبير ·

سألت : « ياسيد حيدرى ، ما دوركم فى هذه الثورة ؟ » كان يرتعد وقد تملكه الأرق من هول الاثارة ·

قلت لزوجتى : « يساورنى الشك فى صاحب البيت ، أظنه يتعامل مع اسرائيل » ·

كانت تجلس بجوار النافذة ، تجلو ملاعقها وشوكها الفضية ·

كانت سعيدة تتغنى همسا بنشيد ثورى ·

السماء ، فوق رأسى قريبة ملموسة فى متناول اليد ، والصحراء ، خضراء تمتد خضرتها حتى سفح الجبل ،

كستها الورود المسكية والشـــقائق الحمراء ، وفرة من أشجار الرمان انتثرت فى ســـفوح الوديان ، والجبال ، بنفســـجية ولازوردية وحمراء ، عارية أنثوية لها ملامح جسد امرأة عجوز ، والأفق ممتد الى اللانهاية ، الى العدم، وعلى البعد ، فى ظل شجرة ، نام فوق التراب رجل ، وهنا ، بالقرب منى ، عند منعطف طريق ترابى ، وقف حارس يصلى ٠

تحت قدمى ، نبتت أصغر ورود الدنيا ٠

سألت : « سيدى الشاعر ، أين ضميركم التاريخى ؟ »

قال : « لم أفق بعد من دهشتى من هذه الوردة » ٠

الجو ، كم هو صاف عليل ، والنسيم ينشر الشذى ، شذى الأشجار الريانة والورود الآخذة فى التفتح ، وكأنها قد مرت خلال سماء مزركشة أو احتوتها أنفاس عطرة ، لايزال الحارس بمكانه ، ساجد ، جبهته على الأرض ٠

والدى يعارض اعدام الحراس ولا يفهم معنى « محاربة الله » ٠

امرأتى تقول : « الثأر فى الاسلام مباح » ، وتنظر فى ذهول الى صور من تم اعدامهم ٠

الرفاق يقولون : « آن الرحيل »

الرفاق يقولون : « يجب أن نبقى ، ونتكلم ، ونكتب ، ونقاتل » ٠

الرفاق يفكرون بسرعة فى تأسيس صحيفة ونقابة ٠

السـيد حيدرى ملأ القبو فى بيته بالطحين والأرز والكيروسين والحبوب ، وأحضر بسطه الحريرية الى دارنا، سحب أمواله من البنك ، وعلق عملاته الذهبية فى كيس يتدلى من عنقه ٠

زوجتى اكتشفت الله فجأة ، وهاج هياجها ، كانت تسهر الليل تقرأ الفقه فى عجلة وفى أوقات النهار تذهب مهرولة الى فصل لتوعية المرأة بالتعاليم الدينية ، قلمت أظافرها الحمراء ، ومسـحت الظلال الخضراء من فوق عينيها ، تابت ، لا تلعب القمار ،غطت شعرها ، وتحرص كل الحرص ألا يرى أحد شحمة أذنيها ، تجلس الى جانبى تنظر فى أسى ، تحدثنى عن كرامات الامام الرضا ، وعن فضل الله ، عن شرور الامبريالية وضعة الشيوعية ٠

تسألنى : « ألا تؤمن بالله ؟ »

أفكر فى الرجل الذى انتحر ليثبت ان الله غير موجود، وان الانسـان مالك لمصيره وانه ليس ثمة ارادة فوق ارادته ٠

تسألنى : « ألا تؤمن بالجنة والنار ؟ »

تمسك بيدى ، جلدها دافىء ، وأنفاسها لها رائحة الحمى ، لا تبدو فى حالتها الطبيعية لا تشبه أحدا أعرفه

تقضى ليلها ســــــاهرة ، كلما نظرت اليها رأيت عينيها مفتوحتين ، فيغوص قلبى .

الجامعة مزدحمة ، ثمة من يلقى خطبة ، وجموع الناس تردد الصلوات ، فوق دكة يبــــاع اللفت والبطاطا المسلوقة والفول المطبوخ ، وصور الامام تتدلى من أفرع الشجر ، امرأة عجوز تواجهنى رافعة صورة ولدها الشهيد، من أجل العدل جاءت ، ووراء آية من آيات الله مجهول تســـير .

الطريق مغلق ، أدور مبتعدا ، الأرصفة مغطاة بالكتب وشرائط الأناشيد الدينية والنعـــال الكتانية وبنطلونات الجينز وصور الشهداء ، فى ركن من الأركان ، فدائى يعلم جمعا من الناس طريقة استعمال رشاش عوزى ، وتحت الأشجار رجل وزوجته وأطفاله وقد مدوا مائدة وانشغلوا بتقسيم الطعام ، صبى يقف أمامى ، يسألنى عن حالى ، لا أعرفه ، وجهه ملطخ بالسواد وقد لف رقبته بشــــال مربعات ، سترته تبدو أكبر منه ، وحذاؤه أيضا أكبر من قدمه عدة نمر .

ألغيت محاضرتى ، طلابى لديهم جلسة اذ يحاكمون الأساتذة غيابيا ، يضربون بقبضتهم الجدران اعتراضا ، طلابى يهرولون بممرات الكلية بحثا عن معنى الحرية .

يسألون : « سيدى ، ماهى وحدة الكلمة ؟ المادة هى الأصل أم الفكرة ؟ هل الحقيقة هى التاريخ أم الله ؟ ٠

طلابى يقرأون « محاكمات روزيه » و «رسائل ماركس» و « توضيح المسائل » ويذهلون ٠

يطرق الباب ، الوقت منتصف الليل ، امرأة تهب من مرقدها ذاهلة ، يسرع والدى لاخفاء زجاجات العرق ، انه السيد حيدرى ، جلب لنا لبنا رائبا ، ولحما باردا وجبنا وزيت سمك هنديا ، تتهدج أنفاسه ، يقول : « خلص البنزين الطحين منعدم ، تفشت الكوليرا والجدرى ، سرعان ما سيأكل الناس بعضهم بعضا ، سيموت الجميع من زمهرير البرد ٠

امرأتى تبكى وتقول ان الامام سيأتى لنا بالطعام ، يضحك ولدى ويدق بحقد على أجولة الطحـــين ، ولدى يعتقد أن الثورة الحقة آتية فيما بعد وان النصر للجماهير المقهورة ، فى أوقات النهار يذهب الى المصانع ولايدرى كيف يقيم صـــداقة مع العمـــال ، يرتدى ثيابا قذرة وينام الليل بحذائه ٠

الصحراء ، كم هى بعيدة عن هذا الصخب ، وكم هى بريئة لم تمسسها يد ، لا أدرى كيف عزمت على السفر ، جاء الصباح فى عجلة ، نهضت ومضيت ، كانت زوجتى منهمكة فى الصـــلاة ، تعلمتهـــا حديثا ولا تحفظ الآيات

القرآنية ، فكتبتها على ورق ألصـــقته على الحائط لتقرأ منه ٠

كان صاحب البيت بالفناء ، هب واقفا حين رآنى ، كان يرتعد ، وكان ينتظـــر أحدا ، نظر الى الحقيبة فى يدى ٠

سأل: « قررت الهرب ؟ »

قلت : « لا »

سأل : « اسمك أيضا فى القائمة ؟ »

هززت رأسى ٠

قال : « سيأخذوننى ، اليوم أو غدا ، وســـيأخذونك أيضا ، سيأخذون الجميع » ٠

كان والدى أيضا مستيقظا ، كان جالسا خلف النافذة يضبط العود ، أنه يقضى الليل ساهرا ، بيده كيس زبيب وحلة للطهى السريع ، وينهمك فى صنع العرق البيتى ، فى تلك الفترة كان يقوم بتعليم العود ، الا أن تلاميذه لم يعودوا يأتون ، مسيو آرداواز يأتى فى أوقات العصـــر لزيارته ، يحتسيان العرق ، مسيو آرداواز أغلق متجره الذى كان يبيع فيه الخمور ، أضرموا النار فى متجره ، حول احدى حجــرات بيته الى دكان يبيــع فيه الخـــبز وكمبوت

الكمثرى ، مسيو آرداواز يخشى الامبريالية وقد أعطى صوته للجمهورية الاسلامية ٠

السيد حيدرى يبحث عن عمل فى اللجنة ، يقوم بالحراسة فى أوقات الليل ، وكيس عملاته الذهبية تحت أبطه ٠

أقف ، فجأة ينتهى الطريق الترابى ، فى مواجهتى ، حقول القمح وبساتين الخيار والزهور الملونة يحوطها جدار من جذوع الشجر ، وعلى البعد ، عند سفح الجبل ، نامت مدينة صامتة بين أحضان أشجار السرو ، وعلى منحدر ، طواحين مهجورة ونهر فاض بمائه وعين فياضة تحت غطاء من الصخور ، أحس خفة ونشاطا ، احساس طائر مهاجر يسبح فى الفضاء أردد فى نفسى :

« يالشذى النباتات بالرياض !

انا فى هذه المدينة

أسعى وراء شىء ،

وراء النوم ربما ،

وراء ضوء ، بسمة ، أو حصاة » ٠

وعلى مدى أبعد ، فوق تل ، أرى مورد ماء ضخم فى حجرة طينية ، بلا باب ولا معالم محددة ، أحس بالعطش ، ماء راكد تسبح فيه أسماك دقيقة الحجم وزواحف ، أغسل

وجهى ، أرهف السـمع ، طائر على البعد يغرد ، أخرج سيجارة ، شـعلة الكبريت تخيف جرذا فيلوذ بالفرار ، أواصل السير ، تحت قدمى شىء يخشخش ، ثعبان ؟ كهل يمر وبجانبه حمار ، أمر به ، أترك الخشخشة وراء ظهرى تماما ، أحث الخطى ، كأنى على موعد مع أحد أو مكان ٠

قال صاحب البيت : « لابد سيأخذونى ، سيأخذونك أنت أيضا » ٠

يقول ولدى : « ينبغى قتل الجميع ! » ــ وهو عاجز عن قتل حشرة تحت قدميه ، يقضى الليل فى القاء الخطب، ويكتب على جدران الفناء شعارات بلون أحمر ، تلقى ضربا مبرحا ، وتحت عينيه أزرق اللون ٠

امرأة عجوز تجلس بالحقول ، والى جوارها بقجة ، تترسب الشمس تحت جلدى ، أترنح كمن أصابته الحمى ، ويود أن تصيبه الحمى ، العجوز تمضغ شيئا لا ينتهى ٠

والدى حائر مضطرب ، يسب الجميع ويطوى الأرض سـعيا وراء الزبيب الجيد ، تفوح رائحة العرق الذى يصنعه بالبيت ، جلدوا مسيو آرداواز عشـرين جلدة بالسـياط ٠

أفكر فى ابنتى التى بلغت الخامسة عشر وهى عاشقة ، تمشى حافية القدمين تحت الأشجار تكلم نفسها ، فمها ممتلىء ، أصبحت بدينة ، بدينة جدا ، تخفى طعامها تحت

مرقدها ، وتأكل فى منتصف الليالى ، جائعة دائما ، حين كانت طفلة ، كانت تأكل الورق والممحاة والقلم الرصاص الملون ، وكانت تأكل الطين وأوراق الشجر والجير ، وهى الآن عاشقة ، تعشق شخصا لا نعرفه وتبكى ٠

ألف ألف شخص وقفوا يصلون جماعة ، ألف ألف شخص ينحنون ساجدين ، امرأة وقفت بجوارى ترتعد ، وتدعو ، النساء تحت الأحجبة السوداء ، ملأن الحارات ، صديقى الشاعر طريح الفراش ، يقولون أنه قد مسه الجنون ، يضرب رأسه فى الجدران ، أذهب لزيارته ، قلبى متحجر منقبض ، نائم ، فى شبه وعى ، شعره مبلل بالعرق، والدته الى جوار الباب ، فى الممر ، جلست تحدث نفسها همسا ، أدخل ، تحت عينيه وحول شفتيه أزرق ٠

امرأته لاتفهم ، امرأته ذاهلة ، رأتنى فانخرطت فى البكاء ، تقول : « لا أدرى ماذا يريد ، خائف ، ويعلن توبته على الدوام ، فى اليوم يصلى مائتى ركعة ويرى كل شيء نجسا ، فى أوقات الغروب يصعد الى السطح ، ومن آذانه وتكبيره يخرج الجيران مذعورين ، فى الليل ينتحب ، ومن خوفه من لقاء الله لاينام » ٠

لا أصدق ، كم كان صامتا هادئا وغامضا ، كان يأتى فى ليالى شهر محرم الى دارنا ، كان يجلس ولا يقول شيئا ، كنا ننصت ، كلانا غارقان فى الصمت ، الى صيحات

التكبير من فوق أسطح المنازل غير المرئية ، والى الهمهمات الغريبة من الحارات البعيدة وصوت الرصاص المتناثر فى الظلام ، وصراخ صادر من نافذة الجيران يدعو الجميع الى القيام ، ومئات النوافذ كانت تفتح ، ونساء وشيوخ وأطفال يخرجون متناثرين وكان صديقى صامتا لا ينبس ٠

أتوقف ، السماء خضراء وكأنها من فصيلة النبات ، الصحراء تسود بلا مقدمات ، تحاصرنى قفار يكسوها تراب جاف ، تحت قدمى قفر خلت من الحياة تزحف نحو بلاد مجهولة مظلمة ، وماسورة مجارى فخارية تنتهى هنا ، وظلال مبهمة متداخلة ، تراب مخيف يثير الوساوس ، كأنه امرأة نهمة ، امرأة مرتمية فى عطور الليل السامة بأنفاسه الملتهبة ٠

ضللت الطريق ، انعدمت الحياة ، منهك ، الجو يميل الى الظلام ، أتقدم ، أعلم انى لابد عائد ، لا أعلم أن القفر تغوى ولا ترحم ، رغم ذلك استمر مسحورا مستسلما ٠

امرأتى تقول : « ليتنا كنا نعلم أين الامام الغائب ؟ »

على البعد ، مستقر الشياطين والأرواح الشاردة ٠

أعدموا حارس حينا ، امرأته حامل ، تأتى كل يوم بأطفالها على تفاوت أعمارهم الى مفترق الطريق وتلقى الحجارة على السيارات ٠

امرأتى رأت فى المنام السماء وقد اضرمت فيها النيران، وهى خائفة ٠

يدى لها رائحة الدم ، دم حار سفك حديثا ، دم صبى لا أعرف حتى اسمه ، كان بجانبى ، يتحدث ويجرى ، كان يهز قبضته الصغيرة فى الهواء ، كان يهدد الجنود ، فقدت أثره عند منعطف الطريق ، كان ثمة مبنى يحترق ، كان الشارع غارقا فى النار والدخان ، كانت النساء تجرى والرجال يغلقون متاجرهم فى عجلة ، كان اطلاق الرصاص قد بدأ ، رأيته مرة أخـــرى ، كان منحنيا ، كانت يداه تحيطان بجذع شجرة ، كان فاغرا فاه ينظر الى ، كان يريد أن يقول شيئا ، كان فى عمر ولدى ، ولدى الصغير كنت قد فقدت عقلى ، كان صوت سرينة الاســعاف قد أصابنى بالجنون ، رفعته ، كان ثقيلا ، لم يكن يتنفس ، ناديت أحدا ، اعترضت طريق رجل ، ذهبت وراء جندى ، كانت رأســه على صــــدرى ، لم يكن يتعدى الرابعة أى الخامسة عشر من عمره ، فتحت جيوبه ، كانت خاوية ، آه يا طفلى فاقد الهوية ! كان أعلى فمه مخضرا ببواكير شارب ، كانت يده لاتزال فى يدى ٠

امرأتى توقظنى ، ترش ماء على وجهى ، يبللنى العرق، ريقى جاف ، أنفاسى تتردد ، أفتح النافذة ، أخرج الى الشرفة ، الثلج يتساقط ، جسمى دافىء ، أحترق ، أقبض

الثلج فى يدى وأدلك به رقبتى ، رائحة الدم تنبعث من يدى ، دم حار برىء ٠

يعتقد أبى ان عصر الظلام قد دنا من نقطة الانفجار ، وان فاجعة كبرى فى الطريق ٠

أخذوا صاحب البيت ٠

يعتقد ولدى ان صاحب البيت يجب أن يقتل ، ولدى يعارض النظام الرأسمالى ٠

ابنتى أيضا عاشقة ، لديها ألبوم للفراشـــات الملونة والزهور المجففة ، وتجمع صور الفنانين الأجانب ، سعيدة هى بأن المدارس فى عطلة ، تنام حتى الظهيرة ، تضع على شعرها شرائط مخملية ، وقد طلت أظافرها بألوان خضراء وصفراء وبنفسجية ٠

امرأتى تؤمن بالجهاد ، كنست حارة حينا الترابية فى يوم نظافة المدينة ، ونثرت النشارة على الرصيف ، امرأتى تفكر أيضا فى اعداد ملجأ للفقراء ، وتبرعت بأقراطهـا الفضية للمسجد الكائن على ناصية الحارة ٠

شخص ينادينى من أطراف الصحراء ، شـــخص خفى ، يمشى بجانبى متهدج الأنفاس ، أخاف ، أتوقف ، القفر ترمقنى بحيرة ، القفر تبتلعنى ، ثمة احساس غريب فى الفضاء وروح مضطربة تهيم حولى ٠

أسأل : « ياسيد حيدرى ، ماسر نجاحك ؟ »

امرأتى تقول : بدن الكافر كله ، حتى شعره وافرازات بدنه وأظافره ، نجس » ·

الصحراء تنبض ، تتحرك ، تحاصرنى التلال المتحركة والرمال السيارة ، أحدث نفسى ، أغنى ، أضحك ، أصرخ : الله أكبر ، أعلى ، من أعماق قلبى ، أجرى ·

طلابى يقولون : « الموت للفلسفة ، الموت للرجعية ! »
طلابى يعشقون العلوم الاجتماعية ·

أتوقف ، تخفت الهمهمات ، الصحراء أليفة رحيمة ، لا أصدق ، أرى مناما ، أمامى روضة خضراء ودار بيضاء بين جذوع الأشجار ، تبدو مستحيلة فى جمالها وبهائها ، فتظل طيفا فى الذاكرة ، كأنها نبتت من الأرض وتنزلت من السماء ، أتقدم ببطء وفى وجل ، أخشى أن أرفع ناظرى عنها فتختفى ، أخشى أن تعلو أنفاسى فتنهار ، باب صغير نصف مفتوح باتجاه الجنوب ، أدخل ، فناء ملىء بالأشجار خال ، صامت ، غامض ، به صفان من أشجار السرو الخضراء العجوز تحيط به الجدران والرياض المكسوة بالنباتات الملونة والزنابق البيضاء الرقيقة، وفى الوسط بركة ماء ضخمة يجرى فيها ماء زلال راكد ، وحولها فرشت الأرض ببلاط يكسوه غبار ناعم ، لا أثر لقدم ولا

أثر ليد على الجدران ، لا حركة من أوراق الشجر ، ولا نسيم ، صمت وسكون وغياب ، يشبه فى غرابته ولا واقعيته روضة من صنع ساحر ، والدار ، بين أعمدة سامقة ، ومزهريات فيروزية ، وبها نوافذ بلورية شفافة صـــافية تواجه السماء ، تبدو رقيقة هشة كأنها معلقة فى الفضاء .

أستند الى جدار ، تنعشـــنى أنفاس الماء وتزيل عن روحى غبار ألف سنة ، أجلس على حافة حوض ، أغسل وجهى ، أشرب ، أنتعش ، يا للذة ! صورة الدار تشع فى قاع الماء وتجرى الأشجار على سطحه المرمرى ، والحوض مترع بزرقة السماء ، أنظر ، مامن أحد ، أخلع ثيابى ، أنزلق ، وأغوص تحت الماء ، بارد وحاد ، جلدى يريد أن ينشق ، وأن يحترق لب عظامى ، أغوص برأسى تحت الماء ، أغوص أكثر ، تبللت بالماء روحى ، وترتعد ، تهبط الشمس من ثنايا أشجار الصنوبر ، والأشجار ، انسلت جذوعها فى بواكير الغروب ، تقع عيناى على الدار مرة أخرى ، فيرى قلبى ، كم هى رقيقة بلا تكلف ! ، وغامضة ، كم هى صادقة ! تخففت من الأثقال ، تحررت من المادة ، خلت من غبار الزمن ، كأنها روح مصورة فى الفضاء ، تذكرنى بشخص ومكان ، من ؟ ، أين ؟ ، شخص قريب ولكنى لا أذكره ، شخص استقر فى مستهل حلم جميل ، فى مستهل ذكريات قديمة ، فى صفائها وطهرها كأنها معصومة من الغسل ، تذكرنى بامرأة اثيرية ، امرأة لها جسد سماوى وعيون مائية ، نعم ، ، تذكر ، انها تشبه صورة عرس أمى

والطرحة البيضـــاء على وجهها ، وتلك النظرة العذراء الخجولة ، وتلك الوردة ذات الخدود الأربعة بين أصابعها، تشبه امرأة جاءت تزورنا فى وقت متأخر ذات ليلة ثلجية ، وقال أبى هى من أقاربنا البعيدين ، بل وأبعد منها : امرأة من قومى الأقدمين ، امرأة تسرى فى الزمن .

أخرج ، أسنانى تصطك ببعضها ، غروب القفار ، منعش رطب ، أرتدى ثيابى ، أمسك بحذائى فى يدى ، أمشى حافى القدمين اثنتا عشرة خطوة ، أعدها ، ثمة شخص بالشرفة ، كان يصلى ، أثره باق ، الشـرفة ضـخمة ومفتوحة ، وبساط أبيض منقوش بزهور رقيقة زرقاء ، أدخل ، ســاحة منيرة بجدران نقية بلا نقوش ، ومقاعد للجلوس ، والركن المجـاور للايوان مزين بزهور دقيقة الحجم جيرية ، وثمة امرأة حول النوافذ العفيفة المتواضعة، وعلى جانبى الردهة بابان مفتوحان قليلا ، كل يؤدى الى غرفة ومنها الى غرفة أخرى ، وكل مكان أدخله يؤدى الى مكان آخر ، ويطل على خلوة سرية ـ ممرات متداخلة ودرج ملتو وشبه مظلم .

حين أصعد السلم الى الطابق الأعلى ، تتهدج انفاسى، من هنا ترى أركان الدنيا الأربعة ، والســماء على بعد خطوة ، والصحراء تتصل بنهاية الأفق ، بأرض البقاع الأبدية ، أجلس فترة طويلة ، أين أنا ؟ أى وقت من الزمن هذا ؟ لا أدرى ، يغـالبنى النعاس ، الحلم رابض خلف

جفونى لا يبلغ داخلى ، أتمدد ، ساعات ، يتوالى ظهور النجوم واحدة فى أثر أخرى ، فيم أفكر ؟ فى اللاشىء ، نظراتى سابحة فى الفضاء ، وخواطرى كدوائر مائية تدور فوق سطح وعيى ، شيئا فشيئا أفقد احساسى بيدى وقدمى، فقد جسدى ثقله المادى وتشابكت خطوط ملامحى ، كأنى امتداد للشرفة والأشجار والصحراء ، وعيونى تتدلى من الأنجم ، تخلو رأسى فجأة من منطق العلية وحساب اللحظات ، كم أنا بعيد عن كل الناس وعن كل شىء ، عن التوافق الهندسى للأجسام والتناسب المعقول للأشياء ، وعن حاصل الضرب المطلق للأرقام ، عن الروابط المزينة والخواطر المدونة ، عن لوح القانون الأعظم وكتاب الأخلاق السوية وقواعد العيش ، كم أنا بعيد عن سيطرة المادة عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، عن آداب الحياة والحتمية التاريخية والحقيقة المطلقة للمثل ، عن أحكام الحيض والنفاس وتجلى العقل الأول وعالم القيم ، كم أنا بعيد عن صراع الشرق والغرب والمستكبرين مع المستضعفين ، وقانون صحة مراسم الدفن والكفن ، وعن القائل أن الله قد مات ومن كان يخشى الموت ومن ينتظر المهدى المنتظر .

حين استيقظ أجد السحر قد حل ، أنظر فى ذهول ذهول وحيرة حولى ، أنهض ، جائع وكم أنا سعيد ! أحس خفة وقد زال عن بدنى التعب ، نسيم عليل يهب ، ديك يؤذن على البعد قرية صغيرة ، فى القاع ، عند سفح

الجبل ، ســـاهرة ، أرتدى حذائى ، يعلو دبيب قدمى ، أهبط ، شيخ يجلس على حافة الحوض يتوضأ ، لحيته كثة بيضاء ، ألقى عليه السلام ، يهز رأسه ، يتلو الأوراد •

بقيت آثار قدمى على غبار الدرج ، حين أدنو من الباب أتوقف ، أعود وأنظر وراء ظهرى ، أعلم أن هذه آخر مرة ، فينقبض قلبى ، الدار تنظر الى من بعيد ، وفى الظلام ، السحر المنير أصيل وكامل لدرجة أنى أرتعد ، يقول لى شيئا ، شيئا طيبا صحيحا ، شيئا لا يقال ، أدركه وسعيد بأنى أدركه •

عاد الطريق ولم يعد غريبا على ، الصحراء ساكنة صامتة ، خلت من الهواجس الرهيبة ، حين أبلغ النقطة الفاصلة بين القفر والبقاع الخضر أخلط بينهما ، أمر من بين المروج ، وحين أبلغ الطـريق تتوقف ســـيارة نقل ، وتقلنى ، فتى ذو لحية داكنة وبشرة أحرقتها الشمس •

صور مئات من آيات الله ملصقة على زجاج نافذته ، قرب المدينة ، أهبط عند مقهى ، أدرك فجأة كم أنا جائع ، طلع الصبح ، صبح منير وحر الصيف •

شاى دافىء معطر ، قشدة ، بيض ، خبز مقدد ، ابنتى تعشق العيش الفينو ، وهى تأكل أكثر منذ أن هامت عشقا •

قلبى منقبض ، لعلهم يضربون ابنى ، امرأتى تبكى وتظن أنهم قد قادوا ابننا الى الانحراف ، تدعو له فى نهاية صلاتها ، وتطلب من الله أن تموت المادة ، تنمحى الامبريالية ، فنسعد جميعا ٠

صبى القهوجى يسأل : « ألا تريد شيئا آخر ؟ »

أهز رأسى ، أنظر اليه ، كم هو مفعم بالحياة معافى ، وواقعى ! كم هو متحفز !

أعود الى غرفتى بفندق المدينة ، مـــكالمات تليفونية عديدة من تهران ، وأتى صديق كنا قد قررنا الليلة الماضية أن نلتقى ومضى تاركا رسالة ، على أن أعود بسرعة ، حدث أمر هام ، رســـالة فوق مكتبى ، اعتصـــم طلابى والأساتذة يفكرون فى التحصن ، أجمع ثيابى ، أحمل حقيبة يدى وأمشى ، محطات البنزين معطلة ، اهمهم بالسباب ، لدى القليل من البنزين ، أصل الى قم ، الطريق مزدحم بعربات النقل المحملة والحمر وعربات الكارو ، وحين أبلغ قم أجد الطريق مسدودا ، ميت محمول ، أصبر ، زحمة من الناس تزعق بالتكبير والصلاة ، نساء متشـــحات بالسواد يتحركن فى تلاحم ، الجو ملىء بالتراب ورائحة الطين والجيف ، والحر ، أقف الى جوار جدار ، فى الظل، أصبر حتى يفتح الطريق ٠

بجانب من الســـاحة يقفون فى مواجهتى ، يطلبون تصريح السيارة ، أشير الى الشارة ، يفتشون شـــنطة

السيارة والحقيبة وأسفل السيارة ، وجيوبى ، أستطيع أن أتحرك ، أضغط على البنزين ، رأسى تدور ، أمضغ عقب سيجارتى ، أبصق ،أطلق النفير ، أصرخ ، امرأة تضرب بقبضتها على كبوت سيارتى ، وتطلق السباب ، وطفلها يبكى .

حين أبلغ الطريق أزيد من سـرعتى ، عربات النقل مربكة ، وتندفع فى مواجهتى بلا رحمة ، لو بلغت تهران حيا لكانت معجزة ، أنظر الى صورتى فى مرآة السيارة فينقبض قلبى ، أفتح زجاج النافذة ، تراب رمادى ميت وجبال صخرية شاهقة .

امرأتى تسأل : « أين الامام الغائب ؟ »

والدى ثمل ويطارد امرأة صاحب البيت ، حطم عوده وبدأ فى ترديد الأناشيد الثورية .

أسأل : « سيد حيدرى ، الى أين حملت أثاثك ؟ »

غدا فى الصباح الباكر لدى اجتماع ، مقالتى التى كنت قد وعدت بها ظلت ناقصة ولم ترسل ، ينبغى أن أذهب للعزاء فى صديقى .

امرأتى تقول : « ياعزيزى ،كن على حذر ، مناهض الثورة فى ورطة » .

قمائن الطوب تظهر على البعد ، سيارة ورائى تطلق

النفير تطلب افساح الطريق ، لا أستطيع أن أنتحى الى جانب من الطريق ، الطريق أمامى مسدود ، يطلق النفير ، يصرخ ، يتوعد ، أود أن أنزل لأضربه ، رائحة العادم والدخان تنتشـــر فى الفضاء ، ألهث باحثا عن ذرة من أكسجين ، السماء أسفلتية والأفق بعيد ، والسحب الفضية توقفت فوق رأسى ، الهواء ثقيل ملوث يصطدم بنظراتى ، قلبى منقبض وأفكر فى أيام الغليان الآتية ، وفجأة ، من قاع الأفق الرمادى ، من ذلك البعد الأسمنتى المسدود ، من طاقة الهية ، تلوح صورة الدار كمعجزة ، هبة ، جديدة ، مغسولة ، معطرة ، تدنو فى هدوء ، انى أراها هناك ، دائما هناك ، تختفى أنفاسها الملائكية وراء الأشـــــياء ، وأعلم أنها بعد ذلك آتية على حين غرة ، تبحث عنى ، وأعلم أنها ستكون فى أوقات الغروب الرطبة المقبضة ، فى ليالى اليأس الحالكة ، فى حلم تنفس الصبح الطيب ، فى انتظار أليم لمعجزة ، فى زمن الموت ، وستريح قلبى المتعب ـ أنها دائما هناك ، كاملة ، انها مليكة روحى .

* * *

(٧)

ملحوظات على بعض كتاب القصة القصيرة وأعمالهم القصصية

بهرام صادقى :

طبيب أديب ، كتب الرواية والقصة القصيرة ، وعمل على تطوير أسلوب أدبى محلى فى القصة القصيرة ، ومن أعماله القصصية :

ـ ملكوت (رواية) ١٩٧٤ ،

ـ سنكر وقمقمه هاى خالى (مجموعة قصصية) ١٩٦٩ .

محمد على جمالزاده :

ولد بأصفهان عام ١٨٩٥ ، تلقى تعليمه بلبنان وفرنسا وسويسرا ، وعمل بعد تخرجه بمكتب العمل الدولى التابع

للأمم المتحدة وأقام بسويسرا بصفة دائمة ، وله العديد من المؤلفات والترجمات :

الروايات :

دار المجانين ، ١٩٤٢

صحراى محشر ، ١٩٤٤

قلتشن ديوان ، ١٩٤٦

راه آب نامه ، ١٩٤٨

نمك كنديده ، ١٩٥٥

سروته يك كرياس يا أصفهان نامه ، ١٩٥٦

المســــــرحيات :

معصومة شيرازى ، ١٩٥٤

المجموعات القصصية :

يكى بود ويكى نبود ، ١٩٢١ (٦ قصص)

سركذ شت عمو حسين على ، ١٩٤٢ (٧ قصص)

تلخ وشيرين ، ١٩٥٦ (٧ قصص)

شاهكار ، ١٩٥٧ (٧ قصص)

كهنه ونو ٠ ١٩٥٩ (٨ قصص)

غيراز خدا هيچكس نبود ، ١٩٦١ (٦ قصص)

مركب محو ، ١٩٦٥

قصة هاى كوتاه براى بچه هاى ريش دار ، ١٩٧٤ (١٢ قصة)

قصه ما به سر رسيد ، ١٩٧٨ .

جمال مير صادقى :

ولد بتهران عام ١٩٣٣ ، وحصل على ليسانس اللغة الفارسية وآدابها بجامعة تهران ، ثم عمل مدرسا بالمدارس الثانوية ، وبمكتبة كلية المعلمين بجـــامعة تهران ، ومن مؤلفاته العديدة ما تمت ترجمته الى العديد من اللغات :

الروايات :

درازناى شب ، ١٩٧٠

اين شكسته ها ، ١٩٧١

آتش از آتش ، ١٩٨٤

باد خبر از تغيير فصل ميدادند ، ١٩٨٤

المجموعات القصصية :

مسافر هاى شب ، ١٩٦٣ (١٢ قصة)

چشمهاى من خسته ، ١٩٦٦ (١٠ قصص)

شبهای تماشا وكل زرد ، ١٩٦٩ (٨ قصص)

داستانهای منتخب ، ١٩٧٢ (١٠ قصص)

این سوی تلهای شن ، ١٩٧٣ (١٠ قصص)

نه آدمی ، نه صدایی ، ١٩٧٥ (١٠ قصص)

دوالیا ، ١٩٧٧ (٩ قصص)

هراس ، ١٩٧٧ (٩ قصص)

خسرو شاهانی :

ولد عام ١٩٢٩ وعمل صحفيا بصحيفة **خراسان** فى عام ١٩٥٥ ، ثم بصحيفة **خواندنیها** والصحفى البرلمانى لصحيفة **كيهان** ، كما عمل أيضا مذيعا بالاذاعة .

ومن أعماله :

كومیدی افتتاح ، ١٩٧٤

امضای یادکاری ، ١٩٧٥

المجموعات القصصية :

بهلوان محله ، بلا تاريخ (١٥ قصة)

کور لعنتی ، ١٩٦٥

وحشت آباد ، ١٩٦٩ (١٥ قصة)

آدم عوضی ، ١٩٧٠ (١٥ قصة)

بالاروديها وبائين روديها ، ١٩٧٢ (١٧ قصة)

الكی خوشها ، ١٩٧٧ (١٥ قصة)

تفنك بادی ، ١٩٧٩ (١٧ قصة)

كرة كور ، ١٩٨٣ (٢١ قصة)

فولكس دكتر بقراط ، ١٩٨٤ (١٨ قصة)

كلی ترقی :

ولدت بتهران عام ١٩٣٩ ، تلقت تعليمها الأولى وحتى الثانوى بايران وتعليمها الجـــامعى بالولايات المتحـدة الأمريكية حيث حصلت على ليسانس الفلسفة بجامعة دريك ثم حصلت على درجة الماجستير بجامعة تهران ، وعملت بتدريس الفلسفة بكلية الآداب بنفس الجامعة لمدة ســت سنوات حتى أغلقت الجامعة عام ١٩٨٠ .

الروايات :

خواب زامستانی ، ١٩٧٣

المجموعات القصصية :

من هم جی كوارا هستم ، ١٩٦٩ (٨ قصص)

فريدون تنكابنى :

ولد عام ١٩٣٧ ، ألقى القبض عليه عام ١٩٧٠ على أثر نشر مجموعته القصصية **يادداشتهاى شهر شلوغ** التى هاجم فيها الحكومة كما جرى الزعم •

الروايات :

مردى در قفس ، ١٩٦١

المجموعات القصصية :

اسير خاك ، ١٩٦٣ (٨ قصص)

بياده شطرنج ، ١٩٦٥ (٩ قصص)

ستاره هاى شب تيره ، ١٩٦٨ (١٠ قصص)

يادداشتهاى شهر شلوغ ، ١٩٦٩ (٢٤ قصة)

منتخب داستان ، ١٩٧٣ (١٢ قصة)

ده داستان كوتاه ونوشته هاى ديكر ، ١٩٧٨ (١٨ قصة ومقالة)

ميان دوسفر ، ٧٨ ــ ١٩٧٩ (١٩ قصص)

سرزمين خوشبختى ، ١٩٧٩ (٨ قصص)

الجزايرى ، ١٩٨٠ •

نسيم خاكسار :

اشتهر نسيم خاكسار ككاتب بصحف شهيرة منها **كتاب جمعه ·**

المجموعات القصصية :

من ميدانم بجه ها دوست ميدارند بهار بيايد ، ١٩٧٤

كياهك : ١٩٧٨ (٧ قصص)

نان وكل ، ١٩٧٨ (٨ قصص)

كامهاى بيمودن ، ١٩٨١ (٣ قصص) ·

* * *

قائمــة المراجــع

براهنى ، رضا . قصة نويسى ، جاب دوم ، تهران ، أشرفى ، ١٩٦٩ .

بهار ، محمد تقى . سبك شناسى ، ٣ جلد ، تهران . أمير كبير ، جاب دوم ، ١٩٥٩ .

حريرى ، فارس ابراهيمى ، **مقامه نويسى در أدبيات فارسى** . تهران ، انتشارات دانشكاه تهران ، شـــمارة ١١٣٠ ، ١٣٤٦ .

Aloob. Abdelwahab. *The Persian Social Novel : 1900 — 1941.* Doctoral Dissertation. The University of Michigan, Ann Arbor , Michigan, 1988.

Bashiri, Irai. *The Fiction of Sadeq Hedayat.* Lexington, KY, Mazda, 1984.

Browne, E.G., *A Literary History of Persia.* 4 Vol. Cambridge, Univ. Press, 1924 (Reprint 1953).

Daragahi, Haideh. «The Shaping of the Modern Persian Short Story ; Jamalzade's Preface to Yeki Bud-o Yeki Nabud». *The Literary Review*, 18 (1974), PP. 18 — 24.

Dorri, J. «The Satire of Sadeq Chubak», in : *Norody Azii Afriki*, 5 (1975), PP. 106 — 114.

George, Albert. *Short Fiction in France : 1800 — 1850*. Syracuse, 1964.

Green, John. *The Modern Persian Short Story. 1921 — 1981 : A Bibliographical Survey.* Doctoral Dissertation. The University of Michigan, Ann Arbor 1987.

Jazayery, M.A. «Modern Persian Prose Literature». in : *Journal of The American Oriental Society*, 90.2 (1970), PP. 257 — 265.

Kamshad, H. *Modern Persian Prose Literature.* Cambridge, Univ. Press, 1966.

Kubickova, «Persian Literature of the 20th Century», in : *History of Iranian Literature* Edited by Jan Rypka; Dordrecht, D. Reidel, 1968, PP. 353 — 410.

Mashiah, Yaakov. «In Search of An Insane Universe». in : *Le Museon* (Louvain) 86. 1 — 2 (1973), PP. 147 — 174.

Reid, Ian. *The Short Story*. Britain, Methuen & Co. Ltd, 1977 (Reprint 1979).

الفهـــرس

رقم الايداع ١٩٩٢/٩٩٠٩

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 3207 — 1

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

يعد الأدب الفارسي من دعامات الثقافة الإسلامية على مر قرون عديدة . وتحتل الحكاية فيه مكانة بارزة سواء في الشعر أو في النثر . وتقدم هذه الدراسة خلفية أدبية وتاريخية عن تطور فن القص الموجز في تاريخ الأدب الفارسي . فقد امتزجت الحكاية الكلاسيكية الفارسية بقالب المقامة العربية لتصل في القرن العشرين إلى ما يعرف باصطلاح ، القصة القصيرة ، الفارسية . وتناقش الدراسة مدى محلية القصة القصيرة الفارسية ومدى تأثرها بقواعد هذا الشكل حسب المفهوم الأوربي .

ويضم العمل ترجمة لنماذج مختارة من القصة القصيرة الفارسية عبر مراحل تطورها في العقود الستة الأخيرة . وكما تتباين هذه المختارات من حيث تطور الشكل فإنها تتباين أيضا من حيث الموضوعات وأسلوب التناول والأفكار . وينتهي العمل بنبذة عن رواد القصة القصيرة من الإيرانيين وأشهر أعمالهم .

الكتاب القادم :

أجمل ما قرأت عن الموسيقى الشعبية .
عبد الحميد توفيق زكي

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٣٠ قرشا